طراز المجالسة

(ح) أحمد موسى الحازمي، ١٤٣٠ هـ

فهرس مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الحازمي، أحمد موسىٰ

طراز المجالسة من ليالي الإمتاع والمؤانسة/

أحمد موسىٰ الحازمي - الرياض، ١٤٣٠ هـ

.. ص؛ .. سم

ردمك: ٠-١٨٠٠-٠٠-٦٠٣-٩٧٨

١- الأدب العربي - مجموعات ٢- البلاغة العربية أ. العنوان

ديوي ٨١٠,٨٠٠٥ ١٤٣٠/٩٧

رقم الإيداع: ١٤٣٠/٩٧

ردمك: ٠ - ١٨٠٠ - ٠٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولىٰ

١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩م

دار التوحيد للنشر

المملكة العربية السعودية - الرياض: ص.ب: ١٠٤٦٤ الرمز البريدي: ١١٤٣٣

هاتف: ٠٠٩٦٦١٢٦٧٨٨٧٨ - ناسوخ: ٠٠٩٦٦١٤٢٨٠٤٠٤

البريد الإلكتروني: E-mail: dar.attawheed.pub.sa@gmail.com

طراز المجالسة

من ليالي

الإمتاع والمؤانسة

إعداد

أحمد بن موسى الحازمي

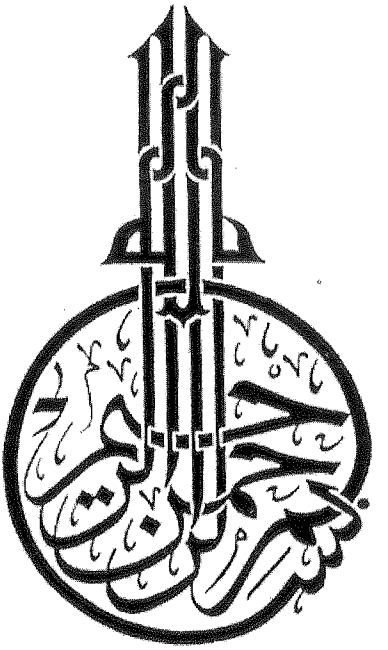

دعاءٌ وابتهالٌ

أبو حيّانَ التوحيديُّ

اللهمَّ إنَّا نسألُك جِدًّا مقرونًا بالتوفيقِ، وعلمًا بريئًا من الجهلِ، وعملًا عريًّا من الرياءِ، وقولًا موشَّحًا بالصوابِ، وحالًا دائرةً مع الحقِّ، وفطنةَ عقلٍ مضروبةً في سلامةِ صدرٍ، وراحةَ جسمٍ راجعةً إلىٰ روحِ بالٍ، وسكونَ نفسٍ موصولًا بثباتِ يقينٍ، وصحةَ حُجةٍ بعيدةً من مرضِ شبهةٍ.

اللهمَّ واكفِنا من اللسانِ فلتتَه، ومن الهوَىٰ فتنتَه، ومن الشرِّ خَطْرَتَه، ومن الرأيِ غلطتَه، ومن الظنِّ خَبْطتَه، ومن الطبعِ سَوْرتَه، ومن الأمرِ رَوْعتَه، ومن العدوِّ سَطوتَه، وجنِّبْنا معاندةَ الحقِّ، ومجانبةَ الصدقِ، وشراسةَ الخلُقِ، ومذمَّةَ الخَلْقِ، والقِحَةَ بالعلمِ، والبَهْتَ بالجهلِ، والاستعانةَ باللَّجاجِ، والإخلادَ إلىٰ العاجلةِ، والخفوقَ مع كلِّ ريحٍ، واتباعَ كلِّ ناعقٍ.

فالشقيُّ مَن لم تأخذْ بيدِه، ولم تؤمِّنْه من غدِه، والسعيدُ مَن آويتَه إلىٰ كَنَفِ نعمتِك، ونقلتَه حميدًا إلىٰ منازلِ رحمتِك، غير مناقشٍ له في الحسابِ، ولا سائقٍ له إلىٰ العذابِ، أنت وليُّ النعمةِ ومانِحُها، ومرسلُ الرحمةِ وفاتحُها، بيدِك الخيرُ، وأنت علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ.

فهرس المحتويات

مقدمةُ مُعِدِّ الكتابِ ١١
سبب تأليف أبي حيان لكتاب الإمتاع والمؤانسة ١٣
القيمة الأدبية لكتاب الإمتاع والمؤانسة ١٤
عيوب كتاب الإمتاع والمؤانسة ١٥
لماذا كتاب طراز المجالسة المنتقىٰ من كتاب الإمتاع والمؤانسة؟ ١٦
تعريف موجز بأبي حيان التوحيدي ١٩
اسمه ونشأته ومؤلفاته ووفاته ١٩
تعليق مهم في الحاشية حول عقيدة أبي حيان وشخصيته ٢٣
(طراز المجالسة من ليالي الإمتاع والمؤانسة)
مقدمة الليالي ٢٤
الليلة الأولىٰ ٣٧
ترحيب الوزير بأبي حيان وطلبه منه الحضور للتأنيس والمحادثة ٣٧
قبول أبي حيان لطلب الوزير بشروط ٣٨
فوائد محادثة الرجال ٤١
الليلة السادسة ٤٤
سؤال الوزير لأبي حيان: أتفضل العرب علىٰ العجم أم العجم علىٰ العرب؟ ٤٤
أنواع الأمم عند العلماء ٤٤
جواب لابن المقفع يذكر فيه أوصاف الأمم، ويفضل العرب علىٰ جميع الأمم ٤٤

تأكيد أبي حيان علىٰ جواب ابن المقفع بذكر الشواهد الدالة علىٰ ذلك ٤٧
وصف لغة العرب ٥٠
الرد علىٰ الجيهاني -وهو أحد الشعوبيين والمتعصبين ضد العرب- في تشبيهه
العرب بالكلاب ٥٢
الفرق بين أخلاق البدو وأخلاق الحضر ٥٥
الرد علىٰ زعم الجيهاني في أن النعمة والترف دليل الشرف والفضل والتقدم ٥٧
الرد علىٰ زعم الجيهاني في أن العرب لا علم لهم بالعلوم التجريبية كالطب
والهندسة والفلك ٦٠
عادة قبيحة للفرس تدل عل ضعف عقولهم وهي نكحهم للأمهات والأخوات ٦١
تفنيد ادعاء نبوة زرادشت، وذكر سبب انتشار دعوته وهي غياب الملك الحازم العاقل ٦٢
فطرة العرب السليمة بنهيهم عن الزواج من الأقارب ٦٤
الليلة السابعة ٦٦
ادعاء ابن عبيد كاتب الوزير أن الحساب أفضل من البلاغة والإنشاء ٦٦
رد أبي حيان علىٰ ابن عبيد قوله من عدة وجوه ٦٧
منها أن الحساب جزأٌ من البلاغة، متصل بها، داخلة فيها ٦٨
ومنها أن قلة البلغاء والكتاب يدل علىٰ شرفهم وعلو منزلتهم ٦٩
ومنها أن البلاغة لا تعاب إلا بالبلاغة لقوة تأثيرها في النفوس ٧١
ومنها أنه لا يمتهنها إلا علية القوم والخاصة من الناس ٧١
الليلة العاشرة ٧٣
غرائب ونوادر الحيوان ٧٣
عجائب أعضاء جسم الإنسان وبعض الحيوانات ٧٣
غرائب بعض الحيوانات البرية ٧٤
العداوات بين الحيوانات ٧٥
خصائص السباع: كالأسد والذئب والكلب والضبع ٧٦

خصائص وغرائب: الجمل والبقر والفيلة والخيل والحمار والجرابيع والمعزىٰ والحية ٧٩
غرائب وخصائص الطيور ٨٣
الليلة السابعة عشر ٨٧
فقرات تروح العقل موصولة بشيء من معاني الكتاب والسنة والشعر ٨٧
الليلة التاسعة عشر ٩٤
كلمات بوراع، قصار جوامع، فيها قرع للحس، وتنبيه للعقل، وإمتاع للروح ٩٤
الليلة العشرون ٩٩
معرفة عبد الملك بن مروان وتصرفه في فنون العلم والأدب والأخلاق ٩٩
الليلة الرابعة والعشرون ١٠٢
أقوال وآثار للزهاد من السلف فيها تنبيه حسن وإرشاد مقبول ١٠٢
تأثر الوزير بتلك الأقوال والآثار، وتحسره علىٰ قلة حظه منها ١١١
الليلة الخامسة والعشرون ١١٢
مرتبة النثر والنظم، وأيهما أجمع للفائدة وأرجع بالعائدة؟ ١١٢
أنواع الكلام وحالاته ١١٣
مزايا النثر ومزايا النظم ١١٣
مزية البلغاء علىٰ الشعراء ١١٨
أنواع البلاغة ١٢١
أحسن الكلام ١٢٣
الليلة السادسة والعشرون ١٢٦
كلمات قصار، مشتملة علىٰ حكم كبار، يستعين بها أصحاب القلم واللسان ٨٤
الليلة الواحدة والثلاثون ١٣٦
أمر الطاعمين والذين يهشون عند الطعام ١٣٦
الإشارة إلىٰ كتاب البخلاء للجاحظ وأنه أفضل من صنف في ذلك ١٣٧
أقوال في البخل والكرم وإكرام الضيف ١٣٨

أقوال في ذم الشبع وأجوبة مختلفة لأصناف من الناس على حد الشبع ١٤١
بعض أخبار البخلاء ١٤٤
وصف التجار ١٤٩
الليلة الثالثة والثلاثون ١٥٣
ضيق حال العرب قبل الإسلام وجهدها وضنك عيشها ١٥٥
نوادر في العلم والأدب ١٥٨
الليلة الرابعة والثلاثون ١٦٠
ضيق الوزير من خوض العامة في حديث السياسة ١٦٠
أسباب خوض العامة في حديث السياسة ١٦٢
قصة لأحد الخلفاء العقلاء مع وزيره الأهوج الجاهل بحدود العقاب والمؤاخذة ١٦٣
نوادر متفرقة وأجوبة حاضرة مسكتة ١٦٦

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمةٌ

كتابُ الإمتاعِ والمؤانسةِ:

كتابٌ بديعٌ من كتبِ التراثِ العربيِّ المجيدِ، ودُرَّةٌ يتيمةٌ خالدةٌ من خوالدِ النثرِ الأدبيِّ الرائقِ؛ في صياغةٍ مذهلةٍ و تركيبٍ عجيبٍ، تصلحُ أن تكونَ مدرسةً في الأسلوبِ الحسنِ، و الموهبةِ الكتابيّةِ، والحسِّ الأدبيِّ، وفيه أشياءُ من طريفِ الممالحةِ، ممَّا يضحكُ السنَّ، ويفكهُ النفسَ، ويدعو إلىٰ الرشادِ، ويزيدُ في الفهمِ والأدبِ.

ومؤلفُ هذا الكتابِ هو أبو حيّانَ التوحيديُّ، فيلسوفُ الأدباءِ وأديبُ الفلاسفةِ، وأحدُ أكبرِ أدباءِ العربيةِ في القرنِ الرابعِ الهجريِّ وما بعدَه، والذي لم يكنْ له حرفةٌ سوىٰ الوراقةِ والنسخِ وجَوْبِ الأقطارِ وقصدِ وزراءِ دولةِ بني بُوَيْه[1]، لعلَّهم يكافِئونَ علمَه وأدبَه، لكنَّه لم يلقَ منهم سوىٰ الحرمانِ المرِّ،

(١) البويهيون أسرة فارسية تنسب إلىٰ رجل اسمه بُوَيْه، وابناؤه أحمد وعلي والحسن، استولوا علىٰ العراق وفارس وبلاد الجبل عام ٣٣٤ هـ، فكانت بغداد لأحمد ولقبه معز الدولة (٣٥٦ هـ) ثم لابنه بختيار عز الدولة (٣٦٧هـ)، وكانت فارس وحاضرتها شيراز=

والصدِّ القبيحِ، والمعاملةِ السيئةِ، فرَقَّ لحالِه قلبُ صديقِه أبي الوفاءِ المهندسِ[١]، ولانَ له فؤادُه، ورفرفَ عليه بجناحِه؛ إذ كان أبو الوفاءِ علىٰ صلةٍ بابنِ سعدانَ العارضِ - وزيرِ صمصامِ الدولةِ[٢] ببغدادَ -، فقرَّب أبو الوفاءِ أبا حيانَ من الوزيرِ ووصَله به، فسامَره أبو حيانَ وخلا به ما يقاربُ الأربعينَ ليلةً، يحدثُه الوزيرُ بما يحبُّ وبما يريدُ، ويلقِي إليه ما يشاءُ ويختارُ، ويطرحُ عليه أسئلةً في مجالاتٍ مختلفةٍ ويجيبُ عنها أبو حيانَ، حتىٰ أصبَح من خُلصاءِ الوزيرِ، وأهلِ مودتِه، ويستشيرُه في الأمورِ المهمةِ والمُدلهمَّةِ.

= لعلي ولقبه عماد الدولة (٣٣٨هـ) ثم بعده لابن أخيه عضد الدولة ابن ركن الدولة لأن عماد الدولة لم يكن له عقب، وكانت أقاليم بلاد الجبل وحاضرتها الري للحسن ولقبه ركن الدولة (٣٦٥هـ) ثم لأبنائه عضد الدولة ومؤيد الدولة وفخر الدولة وكانت لعضد الدولة الرياسة علىٰ أخويه، ثم لم تلبث الأمور أن ساءت بين عز الدولة بن معز الدولة صاحب بغداد وعضد الدولة صاحب بلاد الجبل فاشتبكا في حروب قُتل فيها عز الدولة ودخلت بغداد تحت حوزة عضد الدولة، وبهذا تكون جميع الأقاليم قد آلت إلىٰ عضد الدولة أعظم ملوك بني بويه أعظم ملوك دولة بني بويه، والتي كانت تعتنق المذهب الشيعي الغالي الإمامي الإثنى عشري، ولما توفي عضد الدولة عام ٣٧٢هـ، قسم مملكته علىٰ أبنائه الثلاثة، شرف الدولة وصمصام الدولة وبهاء الدولة، وتولىٰ شئون بغداد والعراق صمصام الدولة وهو الذي وزر له ابن سعدان الذي سامره أبو حيان، ولم يدر عامان حتىٰ قتله صمصام الدولة.

(١) هو محمد بن محمد بن يحي بن إسماعيل، ولد ببوزجان من بلاد نيسابور عام ٣٢٨ هـ، وقدم العراق سنة ٣٤٨ هـ، يعد أحد الأئمة المشاهير في علم الهندسة، وله استخراجات غريبة لم يسبق إليها توفي عام ٣٨٧ هـ.

(٢) أبو عبد الله الحسين بن أحمد، كان وزيرًا لصمصام الدولة بن عضد الدولة، من ٣٧٢ هـ إلىٰ مقتله عام ٣٧٦ علىٰ يد صمصام الدولة، كان واسع الاطلاع، وله مشاركة جيدة في كثير من فروع العلم من أدب وفلسفة وطبيعة أخلاق ويدل علىٰ ذلك أسئلته العميقة لأبي حيان ونقده الدقيق للإجابات.

ثم تبدَّلت الرأفةُ من أبي الوفاءِ حسدًا لأبي حيانَ، والمحبةُ مقتًا، وكان منه لأبي حيانَ ما يكونُ عادةً من التحاسدِ والتباغضِ، والمصارعةِ النفسيةِ بينَ المتنافسينِ في الاستباقِ إلىٰ قلبِ الوزيرِ، فهدَّد أبو الوفاءِ أبا حيانَ بالفصلِ بعدَ الوصلِ، وبالوحشةِ بعدَ الأُنسِ، وبالغفلةِ بعدَ الاهتمامِ؛ إن لم يُطلِعْه علىٰ جميعِ ما تحاورَا -هو والوزيرُ- وتجاذَبا هدبَ الحديثِ عليه، وتصرَّفا في هَزْلِه وجِدِّه، وخيرِه وشرِّه، وطيبِه وخبيثِه، وباديِه ومكتومِه؛ حتىٰ يكونَ أبو الوفاءِ المهندسِ كأنَّه شاهدًا معَهما ورقيبًا عليهما، أو متوسطًا بينَهما.

فما كان من أبي حيانَ إلَّا أن قالَ: «أنا سامعٌ مطيعٌ، وخادمٌ شكورٌ، أفعلُ ما طالبتَني به من سردِ جميعِ ذلك، في رسالةٍ تشتملُ علىٰ الدقيقِ والجليلِ». ثم دوَّنَ أبو حيانَ ما دار بينَه وبينَ الوزيرِ في كلِّ ليلةٍ علىٰ غرارِ ليالي ألفِ ليلةٍ وليلةٍ، ولكنَّها ليست ليالي اللهوِ والطربِ، بل ليالي الفكرِ والأدبِ، فكان هذا الكتابُ؛ كتابُ الإمتاعِ والمؤانسةِ، نفَث فيه أبو حيانَ كلَّ ما في نفسِه من جدٍّ وهزلٍ، وغثٍّ وسمينٍ، وشاحبٍ ونضيرٍ، وفكاهةٍ وطيبٍ، وأدبٍ واحتجاجٍ، واعتذارٍ واعتلالٍ واستدلالٍ، وأشياءَ من طريفِ الممالحةِ، مما يضحِكُ السنَّ، ويفكهُ النفسَ، ويدعو إلىٰ الرشادِ، ويدلُّ علىٰ النصحِ، ويؤكدُ الحرمةَ، ويعقِدُ الذِّمامَ، وينشرُ الحكمةَ، ويشرفُ الهمةَ، ويلقحُ العقلَ، ويزيدُ في الفهمِ والأدبِ.

ولم يرضَ أبو الوفاءِ المهندسُ من أبي حيَّانَ بتأليفِ الكتابِ وحسْبُ، بل أرَاد أيضًا أن يكونَ الكتابُ علىٰ تباعدِ أطرافِه واختلافِ فنونِه مشروحًا،

واللفظُ خفيفًا لطيفًا، وأن يعمدَ إلىٰ الحسنِ فيزيدُ في حسنِه، وإلىٰ القبيحِ فينقصُ من قبحِه؛ وألَّا يومئَ إلىٰ ما يكونُ الإفصاحُ عنه أحلَىٰ في السمعِ، وأعذبَ في النفسِ، وأعلقَ بالأدبِ، ولا يفصِحُ عمَّا تكونُ الكنايةُ عنه أسترَ للعيبِ، وأنفَىٰ للريبِ، وألَّا يعشقَ اللفظَ دونَ المعنَىٰ، ولا يهوَىٰ المعنَىٰ دونَ اللفظِ، وألَّا يباليَ إذا طالَ، وألَّا يكترثَ إذا تشعَّبَ، فإنَّ الإشباعَ في الروايةِ أشفَىٰ للغليلِ، والشرحَ للحالِ أبلغُ إلىٰ الغايةِ وأظفرُ بالمرادِ، وأجرَىٰ علىٰ العادةِ، وأن يقصدَ الإمتاعَ بجمعِه ونظمِه ونثرِه، والإفادةَ من أولِه إلىٰ آخرِه؛ فلعلَّ هذه المثاقفةَ تبقَىٰ وتروَىٰ، ويكونُ في ذلك حسنُ الذكرىٰ...

والكتابُ ممتعٌ مؤنسٌ كاسمِه لمَن له مشاركةٌ في فنونِ العلمِ. وفي تقسيمِه إلىٰ ليالٍ ما جعَله لذيذًا شيقًا، ومتنوعًا تنوعًا ظريفًا، لا يخضعُ لترتيبٍ ولا لتبويبٍ، وإنَّما يخضعُ لخطراتِ العقلِ، وطيرانِ الخيالِ، وشجونِ الحديثِ، في نغمةٍ ناغمةٍ، وحروفٍ متقاومةٍ، ولفظٍ عذبٍ، ومأخذٍ سهلٍ، ومعرفةٍ بالوصلِ والقطعِ، ووفاءٍ بالنثرِ والسجعِ، وتباعدٍ من التكلفِ الجافِي، وتقاربٍ في التلطفِ الخافِي، حتىٰ لنجدُ في الكتابِ مسائلَ من كلِّ علمٍ وفنٍّ؛ فأدبٌ وفلسفةٌ وحيوانٌ وأخلاقٌ وطبيعةٌ وبلاغةٌ وتفسيرٌ وحديثٌ ولغةٌ وسياسةٌ وتحليلُ شخصياتٍ وتصويرٌ للعاداتِ، أبانَتْ عن اطلاعٍ فذٍّ، وتبحرٍ في العلمِ والمعرفةِ عجيبٍ، كما أبانَ عن عبقريَّةٍ لا مثيلَ لها في التصرُّفِ بالكلامِ والتفنُّنِ في طرقِ البيانِ، والتباهي بأساليبِ البلاغةِ المُطربةِ، وفي تفريعِ الجملِ بعضِها من بعضٍ كأنَّما يكتسحُ قارئَه اكتساحًا بما يتخللُه من السجعِ،

والتلويناتِ العقليةِ واللفظيةِ، والمطابقةِ بين المعنَىٰ والمبنَىٰ، والوضوحِ والصفاءِ والدقةِ، والبعدِ عن التكلفِ والتزويقِ المصطنعِ، والقدرةِ الباهرةِ في استعمالِ الازدواجِ والمقابلةِ والتقسيمِ، وإحكامِ بناءِ الجُمَلِ وتوازنِها.

واستطاعَ أبو حيانَ بقدرتِه الفذَّةِ أن ينفصلَ عن موجةِ السجعِ التي سادَت الكتاباتِ الأدبيةَ في أيامِه. وأدبُه ليس لفظيًّا قعقعة ولا طحن بل هو أدبٌ يحملُ زادًا كبيرًا من المعاني.

وقد يخيلُ للقارئِ بادِي الرأيِ حينَ يقولُ أبو حيانَ: أخبَرنا وحدَّثنا، أو: قال شيخُنا، أنَّه يسوقُ كلامَ غيرِه، ولكنْ إذا حقَّقتَ النظرَ، وأعمَلْتَ الفكرَ، فإنَّك لا ترَىٰ لغيرِ أبي حيانَ قولًا ولا غيرَ أسلوبِه أسلوبًا ولا غيرَ روحِه روحًا، وقد يكونُ المعنَىٰ لغيرِه أو القصةُ معروفةً، لكنَّ الديباجةَ ديباجتُه لِما ترَىٰ فيها من بارعِ التعبيرِ، ورصينِ التأليفِ، والبلاغةِ الممتنعةِ، في السلاسةِ الممتنعةِ، فقد كانَ لا يكتفِي بإيرادِ الحادثِ علىٰ ما عرَفه وتناقلتْه الرواةُ، بل يرسلُ عليه وابلًا من فيضِ بلاغتِه، وزاخرِ بيانِه، فإذا القصةُ ذاتُ وقائعَ وأشخاصٍ وأبطالٍ، تروعُ إذا مُثِّلَت، وتروقُ إذا قُرِأَت، وتملكُ المشاعرَ والقلوبَ إذا سُمِعت.

إلَّا أنَّه أغمَض أسلوبَه في هذا الكتابِ تعرضُه كثيرًا لمسائلَ فلسفيةٍ عميقةٍ، قد عزَّت علىٰ البيانِ، ودَقَّت عن الإيضاحِ، حتىٰ ضُرِب بينَ الكِتابِ وبينَ جمهرةِ الشبابِ المتأدبينَ بسورٍ له بابٌ، ظاهرُه صحراءُ قاحلةٌ ملأىٰ بأشواكِ المماحكاتِ الفلسفيةِ، وباطنُه بستانٌ في زمانِ الخريفِ، لكلِّ عينٍ فيه منظرٌ،

ولكلٍّ يدٍ منه مقتطفٌ، ولكلٍّ فمٍ منه مذاقٌ، وحتىٰ إن مَن يحاولُ قراءةَ الكتابِ من أولِه إلىٰ منتَهاه - علىٰ صغرِ حجمِه - يصدُّه عن ذلك ما يجدُه من الغموضِ و الاستطرادِ اللذانِ أشبَهُ ما يكونانِ بالدوَّاماتِ التي تدورُ برأسِ القارئ، وتستنفدُ جهدَه، وتكدُّ ذهنَه، وتجلبُ السآمةَ له، ثم تقعدُ به عن متابعةِ قراءةِ الكتابِ في نشاطٍ فارهٍ، ومداومةٍ فتيةٍ، فلا يقرأُ إلا أجزاءً متناثرةً كالرياضِ في صميمِ الفلاةِ.

فإذا ما خرَج أبو حيانَ عن هذه الموضوعاتِ الدقيقةِ إلىٰ موضوعاتٍ أدبيةٍ: كوصفِ الفقرِ والبؤسِ أو وصفِ الكرمِ وفوائدِه أو وصفِ اللسانِ والبيانِ، جرَىٰ قلمُه وسالَ سيلُه وأجادَ وأبدَع، ووجَدت له رنَّةً، ووجدتَ له رَوعةً، ووجَدت له طعمًا هو غيرُ تلك الطعومِ التي نتذوقُها في كتاباتِ غيرِه من البلغاءِ.

ثم إنَّه ليس الغموضُ والاستطرادُ وحدَهما هما عيوبُ الكتَّابِ، بل فيه أيضًا من النوادرِ نابيةُ الذوقِ ورديئةُ المعنَىٰ، ممَّا يستثيرُ الحفيظةَ ويخدشُ الحياءَ، ويجعلُك في حذرٍ من انتشارِ هذا الكتابِ في بيوتِ الناسِ، وبينَ جمهرةِ الشبابِ الأدباءِ والشداةِ الذين يريدونَ أن يُقوِّموا أسلوبَهم الكتابيَّ، ويكونونَ من أصحابِ البلاغةِ والإنشاءِ، والذين لابدَّ لهم من القراءةِ المستمرةِ في مثلِ هذه الكتبِ؛ التي مَن قرَأها ووعَاها ولحَظها بعينِ التأمُّلِ، وأعطَاها حقَّها من العنايةِ، وسلَك علىٰ دربِها في الأسلوبِ والمحاكاةِ، فقد رُزِقَ حظًّا وافرًا من صنعةِ الأدباءِ، وخطَا خطواتٍ واثقةً نحوَ الإبانةِ العربيةِ الأصيلةِ.

طِرازُ المجالسةِ المنتقَىٰ من كتابِ الإمتاعِ والمؤانسةِ:

من أجلِ ذلك كلِّه؛ انتقيتُ بضع عشرةَ ليلةً، تجمعُ خصائصَ نثرِ أبي حيَّانَ الأدبيةَ، ولا تُخِلُّ بشخصيةِ الكتابِ الأساسيةِ، تساوي ثلثَ الأصلِ، وفي هذا الثلثِ إن شاءَ اللهُ خيرٌ كثيرٌ، هي الدُّرُّ النَّثيرُ، والنورُ المطيرُ، وفيها من المعانِي المحبرةِ، والمواعظِ الحسنةِ، والفِقَرِ المكنونةِ، والدلالةِ علىٰ معالِي الأمورِ، وصوابِ التدبيرِ، وحسنِ التقديرِ، ما حامَ حولَه المتأدِّبونَ ورفرَفوا عليه، ولكنَّهم لم يصِلوا إليه، وقمتُ بتهذيبِها وترتيبِها، مع شرحِ ما خفِيَ من مبانِيها، ونفيِ ما نَبَا من معانِيها، ليكونَ طوعَ يمينِ الفتَىٰ الأديبِ والفتاةِ الأديبةِ، معتمدًا في ذلك علىٰ طبعة أحمد أمين وأحمد الزين، والتي تعتبرُ عمدةَ جميعِ الطبعاتِ بعدَها وذلك لجلالةِ محققَيْها، وسميتُ هذا المُنتقَىٰ «**طِرَازُ المجالسةِ من ليالِي الإمتاعِ والمؤانسةِ**»، ليكونَ هذا المنتقَىٰ إن شاءَ اللهُ ضربًا من التيسيرِ لمَن لم تُتَحْ له قراءةُ الأصلِ، ووصلةً صالحةً بينَ شبابِ اليومِ وتراثِهم القديمِ.

وأرجو أن يكونَ عملِي في هذا الكتابِ عملَ مَن طَبَّ لمَن حَبَّ، وأن يكونَ محلَّ قبولٍ ورضًا عندَ جمهرةِ الشبابِ المتأدبينَ، أمَّا أهلُ العلمِ ورجالاتُ الأدبِ فإنَّهم سيرونَ في هذا الكتابِ ضربًا من العبثِ بالتراثِ ومسخِ الكتبِ وتنتيفِها، فإنِّي أقولُ لهم أولًا: إنِّي لم أقدمْه لهم - ولست أهلًا لذلك - وهم وإن كانوا مستغنينَ عنه باطلاعِهم وسعةِ علمِهم وصبرِهم وجلَدِهم، فإنَّ غيرَهم ممَّن تجشَّمْنا له هذا العملَ، وتكلَّفْنا له هذه الكلفةَ -

وهم المبتدِئون في صنعةِ الأدبِ والإنشاءِ - محتاجونَ إليه، بل أرجو أن يكونُوا متطلعينَ متشوِّقينَ إلىٰ مثلِه.

وبعدُ.. فإن كنتُ أصبتُ فالخيرَ أردتُ، وإن تكنْ الأخرَىٰ ففي نقداتِ القرَّاءِ ما يقيمُ كلَّ عوجٍ، ويصلحُ كلَّ منآدٍ، والحمدُ للهِ أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا.

أحمدُ بنُ موسَىٰ الحازميُّ

الرياض ١٤٢٩ هـ

ahmad.alhazmi1@gmail.com

ترجمةٌ موجزةٌ لأبي حيَّانَ التوحيديِّ[١]:

هو عليُّ بنُ محمدِ بنِ العباسِ التوحيديُّ، نسبةً إلىٰ تمرِ التوحيدِ الذي كان يبيعُه أبوه ببغدادَ، وعليه حمَل بعضُ الأدباءِ قولَ المتنبِّي:

يَتَرَشَّفْنَ مِنْ فَمِي رَشَفَاتٍ هُنَّ فِيهِ أَحْلَىٰ مِنَ التَوْحِيدِ

ولِد ببغدادَ بعدَ سنةِ ٣١٠ هـ علىٰ وجهِ التقريبِ، ونشَأ نشأةً عاديةً يحفظُ القرآنَ الكريمَ والشعرَ، ويتعلمُ الخطَّ والحسابَ، ولمَّا لاحَظ أبوه فيه مخايلَ الذكاءِ دفَعه إلىٰ حلقاتِ العلماءِ في المساجدِ التي كانت مهيئةً مفتوحةً لكلِّ مَن أراد لونًا من ألوانِ المعرفةِ.

احترَف أبو حيانَ الوراقةَ ونسخَ الكتبِ بالأجرةِ للناسِ وذلك لرقةِ حالِه، وقرَأ وكتَب بيدِه كثيرًا من الكتبِ في كلِّ فنٍّ وفي كلِّ علمٍ، وانطبَع كثيرٌ ممَّا كتَبه في ذهنِه وحافظتِه سواءًا كان نثرًا أو شعرًا، وقد أكسَبتْه هذه الحرفةُ ثقافةً

(١) المراجع التي استفيدت منها الترجمة والمقدمة: تاريخ الأدب العربي لشوقي ضيف، وأمراء البيان لمحمد كرد علي، ورسائل أبي حيان التوحيدي لعزة السيد، ومعجم الأدباء لياقوت، وطبقات الشافعية للسبكي تحقيق الحلو والطناحي، ومقدمة شرح المقابسات لحسن السندوبي، والنهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين لرجب البيومي، وأبو حيان التوحيدي وأثره في الأدب والنقد لمحمد عبد الغني الشيخ، وسلسلة مقالات عن أبي حيان بمجلة الأزهر للدكتور حامد الخطيب في مجلد السنة الثامنة والخمسين.

واسعةً ومعرفةً زاخرةً، كما مكَّنته أيضًا من مخالطةِ طائفةٍ من كبارِ علماءِ عصرِه، منهم:

في النحوِ واللغةِ أبو سعيدٍ الحسنُ بنُ عبدِاللهِ المرزبانيُّ السيرافيُّ المتوفَّىٰ سنةَ ٣٦٨هـ، وهو أجلُّ شيوخِ أبي حيانَ.

وفي البلاغةِ والبيانِ أبو الحسنِ عليُّ بنُ عيسىٰ الرمانيُّ المتوفَّىٰ ٣٨٦هـ.

وفي الفقهِ أبو حامدٍ أحمدُ بنُ عامرٍ المروروذيُّ المتوفَّىٰ سنةَ ٣٦٢هـ.

وفي الحديثِ أبو بكرٍ محمدُ بنُ عبدِ اللهِ البغداديُّ الشافعيُّ المتوفَّىٰ سنة ٣٥٤هـ.

وفي الفلسفةِ وعلومِ الأوائلِ أبو سليمانَ محمدُ بنُ طاهرِ بنِ بهرامٍ السجستانيُّ المنطقيُّ المتوفى سنة ٣٩١هـ.

واشتهَر أبو حيانَ بشغفَه بكتبِ الجاحظِ وتأثرِه بها وتوفرِه علىٰ تصحيحِها وخاصةً كتابَ الحيوانِ فكانَ ما يكتبُه يعدُّ نسخًا نفيسةً في عصرِه، حتىٰ سمَّوْه بالجاحظِ الثانِي حيثُ كانَ يحتذِي حذوَ الجاحظِ في الإطنابِ والإطالةِ في تصويرِ الفكرةِ وتوليدِ المعانِي منها، حتىٰ لا يدعَ لقائلٍ بعدَه قولًا.

وأبو حيانَ من أولئِك الأدباءِ الذينَ أُصيبُوا في حياتِهم بالبؤسِ والشقاءِ، حيثُ كان محدودًا محارفًا يشتكي صرفَ زمانِه، ويبكِي في تصانيفِه علىٰ حرمانِه، كلَّما التفتَ يمنةً جاءتْ الصدمةُ يسرةً، وكلَّما قال يسرًا قالت الأيامُ عسرًا، فكان المَوْتورَ المفلوكَ، الموجعَ القلبِ، المعذبَ الفؤادِ، وظلَّ حياتَه يكافحُ ويجاهدُ في التأليفِ واحترافِ الوراقةِ والنسْخِ وجَوْبِ الأقطارِ، يقصدُ

الأمراءَ والوزراءَ - كالوزيرِ المهلَّبيِّ، وابنِ العميدِ، وابنِه أبي الفتحِ ذي الكِفايَتَيْنِ، والصاحبِ ابنِ عبَّادٍ[1] - لعلَّهم يكافئُون علمَه وأدبَه فلم يَحْظَ بطائلٍ، فعاشَ في شَظَفٍ من الحالِ، وعَجْفٍ من المالِ، وتكدُّرٍ من البالِ، ثم نسيانٍ وتجاهلْ في المآلِ؛ عبَّرَ عنه ياقوتٌ بقولِه: «لم يُذكرْ في كتابٍ، أو يُدبَّجْ في خطابٍ، إنَّ هذا لمن العجَبِ العُجابِ».

مؤلفاتُه:

يُعدُّ أبو حيانَ التوحيديُّ في طليعةِ المؤلِّفينَ والكُتَّابِ الذينَ آثروا ملازمةَ القلمِ والدَّواةِ والقرطاسِ طوالَ حياتِه، حتىٰ عُرِف بغزارةِ التأليفِ، ونكتفِي هنا بذكرِ بعضَ مؤلفاتِه المطبوعةِ، فمنها:

---

(١) **المهلبي** هو الحسن بن محمد بن هارون، ولد عام ٢٩١ هـ، وتوفي عام ٣٥٢هـ، وزر لركن الدولة، وهو أول وزير اتصل به أبو حيان ثم طرده بعد ذلك، أما **ابن العميد** فهو أبو الفضل محمد بن الحسين، كان كاتبا مترسلا بليغا حتىٰ قيل فيه: بدأت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد، وزر لركن الدولة أيضًا بعد وفاة المهلبي، واتصل به أبوحيان ثلاث سنين بلا فائدة. وأما **أبو الفتح** فهو علي بن أبي الفضل محمد ابن العميد، وزر لركن الدولة بعد وفاة أبيه ابن العميد، ثم لما تولىٰ عضد الدولة نكبه وقتله سنة ٣٦٦هـ، وكان أبو الفتح قد قدم بغداد وأجزل للبلغاء والشعراء العطاء، وحاول أبو حيان أن ينال شيئًا من ذلك فكتب إليه رسالة في الشحاذة الأدبية، ولكنه باء بالحرمان. **وأبو القاسم إسماعيل بن عباد**، ولد سنة ٣٢٦هـ وتوفي سنة ٣٨٥ هـ بالري كان وزيرا لمؤيد الدولة، ثم وزر لأخيه عضد الدولة - بعد وفاة مؤيد الدولة -، وظل وزيرًا له مقدمًا عنده إلىٰ أن توفي، ولقب بالصاحب لأنه صحب مؤيد الدولة منذ الصبا، وكان أبو حيان قد عمل عنده وراقا ولكن ساءت العلاقة بينهما فطرده وحرمه أجرة الوراقة والنسخ.

١- **«البصائرُ والذخائرُ»**: وهو كتابٌ ممتعٌ يعتبرُ من كتبِ الأخبارِ والمحاضراتِ، أتَىٰ فيه علىٰ فنونٍ مختلفةٍ من الأدبِ واللغةِ والتاريخِ وغيرِها، استقَاه من كتاباتِ الجاحظِ وابنِ قتيبةَ والمبرِّدِ وغيرِه من أعلامِ الأدبِ في القرنِ الثالثِ الهجري، لكنه ملأه بكثير من الألفاظ النابية والعبارات الخليعة والقصص المجافية للذوق. طبع ببيروتَ عامَ ١٩٨٧ بتحقيقِ الدكتورةِ ودادِ القاضِي في عشرةِ أجزاءٍ، وكان قد طبع جزءٌ منه بعنايةِ أحمد أمين والسيد صقر رحِمهما اللهُ عامَ ١٩٥٣ لكنَّهما لم يُكمِلاه.

٢- **«أخلاقُ الوزيرَينِ»**: وهي صحفُ هجاءٍ لاذعةٍ لأبي الفضلِ ابنِ العميدِ وزيرِ ركنِ الدولةِ، والصاحبِ ابنِ عبادٍ وزيرِ مؤيِّدِ الدولةِ، وقد طبِعت بتحقيقِ محمد تاويت الطنجي.

٣- **«الإشاراتُ الإلهيةِ والأنفاسُ الروحانيةِ»**: طبع في القاهرةِ عامَ ١٩٥٠ بتحقيقِ عبد الرحمن بدوي، وقد كان تحقيقًا سيئًا للغايةِ، مملوءًا بالتصحيفِ والتحريفِ، مزَّق إهابَها بالنقدِ الأستاذُ العلامَّةُ المحققُ السيد صقر في أربعةِ أعدادٍ من مجلةِ الثقافةِ، ثم حُقِّق الكتابُ بعدَ ذلك من قِبَلِ الدكتورة وداد القاضي في مجلدٍ واحدٍ عامَ ١٩٧٣م.

٤- **«المقابَساتُ»**: وهو عبارةٌ عن ندواتٍ علميةٍ في المنطقِ والفلسفةِ دارَت بينَ علماءِ بغدادَ في منزلِ شيخِ أبي حيانَ؛ أبي سليمانَ المنطقيِّ، فقام بتسجيلِها أبو حيانَ، والكتابُ طبع مشروحًا من قِبَلِ الأديبِ حسن السندوبي.

٥- **«الصداقةُ والصديقُ»**: ومحتواه موافقٌ لعنوانِه، طبع غيرَ مرةٍ، وآخرُ طبعةٍ صدَرت في دمشقَ سنةَ ١٩٦٤ بتحقيقِ الدكتورِ إبراهيم الكيلاني في مجلدٍّ واحدٍ.

٦- **«الهوامل والشوامل»**[١]: وهي أسئلةٌ من أبي حيانَ التوحيديِّ سمَّاها «الهوامل»، وأجوبتُها لمسكويْه سمَّاها «الشوامل»، ويدورُ الكتابُ حولَ قضَايا تعالجُ مشاكلَ النفسِ والأخلاقَ والاجتماعَ، وقد نهَض بعبءِ تحقيقِ هذا الكتابِ السيد أحمد صقر، وراجَعه الأستاذُ أحمد أمين.

توفِّي أبو حيانَ بشيرازَ بعدَ الأربعمائةِ، بعدَ حياةٍ حافلةٍ بالإخفاقاتِ المتواصلةِ، انتهتْ به إلىٰ غايةٍ من اليأسِ فأحرَق كتبَه بعدَ أن تجاوزَ التسعينَ من العمرِ، وبعضُهم يرَىٰ أنَّ هذا الإحراقَ ما هو إلَّا رمزٌ ودلالةٌ علىٰ حالةِ الحرقةِ واللهبِ التي وصَل إليها قلبُه، وأنَّه لم يحرقْ كتبَه حقيقةً؛ لاعتباراتٍ عدةٍ تجدُها أخي القارئُ في الدراساتِ المتعددةِ التي أحلْتُك عليها في أولِ الترجمةِ.

والآنَ أكبَح اليدَ عن الاسترسالِ في التعريفِ بهذا الأديبِ الفذِّ، وكما قيل قديمًا: يكفيكَ من القِلادةِ ما أحاطَ بالعنُقِ[٢].

---

(١) الهوامل هي الإبل السائمة يهملها صاحبها ويتركها ترعىٰ، والشوامل وهي الحيوانات التي تضبط الإبل السائمة.

(٢) لم أشأ الكلام علىٰ عقيدة أبي حيان لأمرين؛ أولهما: أن هذا الكتاب خلو - إن شاء الله - من كل ما أخذ علىٰ أبي حيان سواء من الناحية الفلسفية أو العقدية أو الفقهية، بل مما هو أقل من ذلك كبعض النوادر نابية الذوق والمعنىٰ. وثانيهما: أن ما يعنينا بالدرجة الأولى في هذا الكتاب هو براعتهِ في الأسلوبِ وعلوّهِ في البيانِ، وأما العقائد فليس مجالها كتب الأخبار والمحاضرات. فلك أخي القارئ غنم أدبه وأسلوبه، وعليه هو غرم زيغه وهواه، والله الموعد، وبه المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا به.

مقدمةُ الليالي

قال أبو حيانَ التوحيديُّ:

نَجَا من آفاتِ الدنيَا مَن كان من العارفينَ، ووصَل إلىٰ خيراتِ الآخرةِ مَن كان من الزاهدينَ، وظفِر بالفوزِ والنعيمِ مَن قطَع طمعَه من الخلقِ أجمعينَ، والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، وصلَّىٰ اللهُ علىٰ نبيِّه وعلىٰ آلِه الطاهرينَ.

أمَّا بعدُ:

فإنِّي أقولُ منبِّهًا لنفسِي، ولمَن كان من أبناءِ جنسي: مَن لم يُطِعْ ناصحَه بقبولِ ما يسمعُ منه، ولم يُمَلِّكْ صديقَه كلَّه[1] فيما يمثلُه له، ولم يَنْقَدْ لبيانِه فيما يُرِيغُه[2] إليه ويُطلِعُه عليه؛ ولم يرَ أنَّ عقلَ العالمِ الرشيدِ، فوقَ عقلِ المتعلمِ البليدِ، وأنَّ رأيَ المجرِّبِ البصيرِ مُقَدَّمٌ علىٰ رأيِ الغَمْرِ[3] الغريرِ، فقد خسِر حظَّه في العاجلِ، ولعلَّه أيضًا يخسرُ حظَّه في الآجلِ؛ فإنَّ مصالحَ الدنيا معقودةٌ بمراشدِ الآخرةِ، وأنا أعوذُ باللهِ المَلكِ الحقِّ الجبارِ العزيزِ الكريمِ الماجدِ أنْ أجهلَ حظِّي، وأعمَىٰ عن رشدِي، وألقِي بيدي إلىٰ

---

(١) أي نفسه.

(٢) أي يقصده.

(٣) الجاهل قليل الخبرة والتجارب.

التَّهلُكةِ، وأتجانفَ[١] إلىٰ ما يسوءُني أولًا ولا يسرُّني آخرًا؛ هذا وأنَا في ذيلِ الكهولةِ وبادئةِ الشيخوخةِ، وفي حالِ مَن إنْ لم تَهْدِه التجاربُ فيما سلَف من أيامِه، في حالَيْ سفرِه ومُقامِه؛ وفقرِه وغنائِه، وشدتِه ورخائِه، وسرَّائِه وضرَّائِه، و خيفتِه ورجائِه؛ فقد انقطَع الطمعُ من فلاحِه، ووقَع اليأسُ من تداركِه واستصلاحِه؛ فإلىٰ اللهِ أفزعُ من كلِّ رَيْثٍ[٢] وعَجَلٍ، وعليه أتوكلُ في كل سُؤْلٍ وأملٍ، وإيَّاه أستعينُ في كلِّ قولٍ وعملٍ.

قد فهمتُ أيُّها الشيخُ[٣] حفِظ اللهُ روحَك، ووكَل السلامةَ بك، وأفرَغ الكرامةَ عليك، وعصَب كلَّ خيرٍ بحالِك، وحشَد كلَّ نعمةٍ في رحابِك، ورحِم هذه الجماعةَ الهائلةَ من أبناءِ الرجاءِ والأملِ بعنايتِك، ولا قطَعك مِن عادةِ الإحسانِ إليهم، ولا ثَنَىٰ طَرْفَك عن الرِّقةِ لهم، ولا زهَّدك في اصطناعِ حالِيهم وعاطلِهم، ولا رَغِبَ بك عن قبولِ حقِّهم لبعضِ باطلِهم، ولا ثَقَّل عليك إدناءَ قريبِهم وبعيدِهم، وإنالةَ مستحقِّهم وغيرِ مستحَقِّهم، أكثَر ممَّا في نفوسِهم وأقصَىٰ ما تقدرُ عليه من مواساتِهم، من بِشْرٍ تبدِيه، وجاهٍ تبذلُه، ووَعْدٍ تقدمُه، وضمانٍ تؤكدُه، وهشاشةٍ تمزجُها ببشاشةٍ، وتَبَسُّمٍ تخلطُه بفكاهةٍ، فإنَّ هذه كلَّها زكاةُ المروءةِ، ورباطُ النعمةِ، وشهادةٌ بالمُحْتَدِّ الزكيِّ، والعِرْقِ الطيبِ، والمنشأِ المحمودِ، والعادةِ المرضيَّةِ، وهي مؤذنةٌ بأنَّ المنحةَ راهنةٌ، والموهبةَ قاطنةٌ، والشكرَ مكسوبٌ، والأجرَ مذخورٌ،

---

(١) أي أميل.

(٢) الرَّيْث هو البطء، ومنه المثل المعروف: رب عجلة وهبت ريثًا.

(٣) هو أبو الوفاء المهندس، انظر المقدمة.

ورضوانَ اللهِ واقعٌ، وأسألُ اللهَ بعدَ هذا كلِّه ألَّا يُسْهِمَ[١] وجهِي عندَك، ولا يُزِلَّ قدمي في خدمتِك، ولا يُزيغُني إلىٰ ما يقطعُ مادةَ إحسانِك، وعائدةَ رأيِك، ونافعَ نيتِك، وجميلَ معتقدِك، بمنِّه ولطفِه.

فهمتُ جميعَ ما قلتَه لي بالأمسِ فهمًا بليغًا، ووعيتُه وعيًا تامًّا؛ وبانَ لي الرُّشْدُ في جملتِه وتفصيلِه، والصلاحُ في طرفَيْه ووسطِه، والغنيمةُ في ظاهرِه وباطنِه، والشفقةُ من أولِه إلىٰ آخرِه، وأنا أعيدُه هاهنا بالقلمِ، وأرسمُه بالخطِّ، وأقيِّدُه باللفظِ، حتىٰ يكونَ اعترافي به أرسَىٰ وأثبتَ، وشهادتي علىٰ نفسِي أقوَىٰ وأوكدَ، ونُكولي عنه أبعدَ وأصعبَ، وحكمُك به لي وعليَّ أمضَىٰ وأنفذَ.

قلتَ لي -أدامِ اللهُ تعالىٰ توفيقَك في كلِّ قولٍ وفعلٍ، وفي كلِّ رأيٍ ونظرٍ-: إنَّك تعلمُ يا أبا حيانَ أنَّك انكفأتَ من الرَّيِّ[٢] إلىٰ بغدادَ في آخرِ سنةَ سبعينَ وثلاثمائةٍ بعدَ فوتِ مأمولِك من ذي الكِفايتَينِ - نضَّر اللهُ وجهَه - عاتبًا علىٰ ابنِ عبَّادٍ مغيظًا منه، مقروحَ الكبدِ، لما نالَك به مِن الحرمانِ المرِّ، والصدِّ القبيحِ، واللقاءِ الكريهِ، والجفاءِ الفاحشِ، والقَدْعِ المؤلمِ، والمعاملةِ السيئةِ، والتغافلِ عن الثوابِ علىٰ الخدمةِ، وحبسِ الأجرةِ علىٰ النسخِ والوراقةِ، والتهجمِ المتوالي عندَ كلِّ لحظةٍ ولفظةٍ.

وذكرتَ في الجملةِ شقاءً اتصَل بك في سفرِك ذلك، وعناءً نالَ منك في عَرْضِ أحوالِك؛ ولَعَمري إنَّ السفرَ فعولٌ لهذا كلِّه ولأكثرَ منه؛ فأرعيتُك

---

(١) أي يتغير الوجه من كثرة الهموم.

(٢) وهي الآن أطلال علىٰ بعد خمسة كيلومترات من طهران عاصمة إيران.

بصري، وأعرْتُك سمعي، وساهمتُك في جميعِ ما وقرتَه في أذني بالجزعِ والتوجُّعِ، والاستفظاعِ والتفجُّعِ، وضمِنتُ لك تلافيَ ذلك كلَّه بحَاقِّ الشفقةِ، وخالصِ الضميرِ، ووعدتُك صلاحَ الحالِ عن ثباتِ النيةِ وصحةِ العقيدةِ، وقلتُ: أنا أرعَىٰ حقَّك القديمَ؛ وأوصِلُك إلىٰ الأستاذِ أبي عبدِ اللهِ العارضِ - أدامَ اللهُ تأييدَه - وأخطبُ لك قبولًا منه، وتخفيفَ الإذنِ عليك، وامتلاءَ الطرفِ بك، ونيلَ الحظوةِ بخدمتِك وملازمتِك له، وفعلتُ ذلك كلَّه حتىٰ استكتبَكَ كتابَ الحيوانِ لأبي عثمانَ الجاحظِ، لعنايتِك به، وتوفرِك علىٰ تصحيحِه، ثم حضنتُ لك هذه الحالَ إلىٰ يومِنا هذا، وهو الوزيرُ العظيمُ الذي افتقرَتْ الدولةُ إلىٰ نظرِه وأمرِه ونهيِه، وإلىٰ أن يكونَ هو المبرِمَ والناقضَ، والرافعَ والواضعَ، والكافِيَ والوافِيَ، والمقرِّبَ لخدَمِها ونُصحائِها، والمُزحزِحَ لحسدتِها وأعدائِها، والرَّاعِيَ لرعيَّتِها ودُهمائِها، والناهضَ بأثقالِها وأعبائِها، أعانَه اللهُ علىٰ ما تولَّاه، وكفَاه المهمَّ في دنياه وأُخرَاه، بمنِّه وقدرتِه.

نعم ورتبتُ ذلك كلَّه، ولم أقطعْ عنك عادتي معَك في الاسترسالِ والانبساطِ، والبرِّ والمواساةِ، والمساعدةِ والمواتاةِ، والتعصُّبِ والمحاماةِ.

أفكانَ من حقِّي عليك في هذه الأسبابِ التي ذكرتُها، وفي أخواتِها التي تركتُها كراهةَ الإطالةِ بها، أنَّك تخلو بالوزيرِ - أدامَ اللهُ أيامَه - ليالي متتابعةً ومختلفةً، فتحدثُه بما تحبُّ وتريدُ، وتلقِي إليه ما تشاءُ وتختارُ، وتكتبُ إليه الرقعةَ بعدَ الرقعةِ، ولعلَّك في عَرْضِ ذلك تعدُو طَوْرَك بالتشدُّقِ، وتجوزُ حدَّك بالاستحقارِ، وتتطاولُ إلىٰ ما ليس لك، وتغلطُ في نفسِك، وتنسَىٰ زلَّةَ

العالمِ، وسَقْطةَ المتحرِّي، وخجلةَ الواثقِ.

هذا وأنت غِرٌّ لا هيئةَ لك في لقاءِ الكبراءِ، ومحاورةِ الوزراءِ. وهذه حالٌ تحتاجُ فيها إلىٰ عادةٍ غيرِ عادتِك، وإلىٰ مِرانٍ سوىٰ مرانِك، ولِبسَةٍ لا تشبهُ لِبْستَك، وقَلَّ مَن قُرِّب من وزيرٍ خدَم فأجادَ، وتكلَّم فأفادَ، وبسَط فزادَ، وإلَّا سَكِرَ، وقلَّ مَن سكِر إلَّا عثَر، وقلَّ مَن عثَر فانتَعشَ، وما زهَد في هذه الحالِ كثيرٌ من الحكماءِ الأوَّلينَ، والعُبَّادِ الربَّانيِّينَ؛ إلَّا لغلظِها وصعوبتِها، ومكروهِ عاقبتِها، وشدةِ الصبرِ علىٰ عوارضِها ورواتبِها، وتفسُّخِ المتنِ[1] بينَ حوادثِها ونوائبِها.

والعجبُ أنَّك مع هذه الخلةِ تظنُّ أنَّها مطويةٌ عنِّي، وخافيةٌ دونِي، وأنَّك قد بلغتَ الغايةَ وادِعَ القلبِ، وملَكتَ المكانةَ ثانيَ العِنَانِ[2]، وقد انقطَعتْ حاجتُك عنِّي وعمَّن هو دونِي، ووقَع الغِنَىٰ عن جاهي وكلامي ولطفي وتوصيلي؛ وجهِلتَ أنَّ مَن قدَر علىٰ وصولِك، يقدِرُ علىٰ فصولِك، وأنَّ مَن صعِدَ بك حينَ أرادَ، ينزِلُ بك إذا شاءَ، وأنَّ مَن يحسِنُ فلا يُشكرُ، يجتهدُ في الاقتصادِ حتىٰ يُعذرَ.

وبعدُ.. فما أطيلُ، ولعلَّ لهبَ المَوْجِدَةِ يزدادُ، ولسانَ الغيظِ يغلُو، وطباعَ الإنسانِ تحتدُّ، والندمَ علىٰ ما أسلفتُ من الجميلِ يتضاعفُ، ولستَ أنتَ

---

(١) التَّفَسُّخ: العجز والضعف عن النهوض، والمتن: هو الظهر.

(٢) ثانيَ العِنان تقال للفارس إذا ثَنَىٰ عنق دابته عند شدَّة حُضْرِه، والفرس إذا أعيا مد عنقه، وإذا لم يُجْهَد وجاء سيرُه عَفْوًا بغير مجهود ثَنىٰ عنقه كأنه عاد ظافرًا.

أولَ مَن بَرَّ فَعَقَّ، ولا أنَا أولُ مَن جُفِيَ فَنَقَّ[١]. وهذا فراقُ بيني وبينك، وآخرُ كلامِي معَك، وفاتحةُ يأسِي منكَ، قد غسَلتُ يديَّ من عهدِك بالأُشْنانِ[٢] البارقيِّ، وسلَوتُ عن قربِك بقلبٍ مُعرضٍ وعزمٍ حيٍّ؛ إلَّا أن تُطلِعَني طلعَ جميعِ ما تحاورتُما وتجاذبتُما هَذْبَ الحديثِ عليه، وتصرفتُما في هزلِه وجِدِّه، وخيرِه وشرِّه، وطيبِه وخبيثِه، وباديِه ومكتومِه، حتىٰ كأنِّي كنتُ شاهدًا معَكما، ورقيبًا عليكما، أو متوسطًا بينكما، ومتىٰ لم تفعلْ هذا، فانتظرْ عُقْبَىٰ استيحاشِي منك، وتوقَّعْ قلةَ غُفولِي عنك، وكأنِّي بك وقد أصبحتَ حرَّانَ حيرانَ يا أبا حيانَ، تأكلُ أصبعَك أسفًا، وتَزْدَرِدُ[٣] ريقَك لهفًا، علىٰ ما فاتَك من الحوطةِ لنفسِك، والنظرِ في يومِك لغدِك، والأخذِ بالوثيقةِ في أمرِك، أتظنُّ بغرارتِك وغَمارَتِك أنَّك تقدرُ علىٰ مثلِ هذه الحالِ، وأنامُ منكَ علىٰ حسنِ الظنِّ بكَ، والثقةِ بصدرِك ووردِك، وأطمئنُّ إلىٰ حَكِّك وجَردِك، وأتعامَىٰ عن حَرِّك وبَردِك، هيهاتَ، رقدتَ فحلمتَ، فخيرًا رأيتَ وخيرًا يكونُ.

علىٰ هذا الحدِّ[٤] كانَ مقطعَ كلامِك في مَوْجِدَتِك، وإلىٰ هاهنا بلَغ فيضُ عتبِك ولائمتِك، وفي دونِ ذلك تنبيهٌ للنائمِ، وإيقاظٌ للساهي، وتقويمٌ لمَن يقبلُ التقويمَ، وقد قال الأولُ:

---

(١) النَّق من النقيق وهو صوت الضفدع، والمقصود أنه ليس أول من جفي فاشتكىٰ من سوء الجفاء.

(٢) الأشنان: نبات لا ورق تغسل به الأيدي والثياب.

(٣) من (زرد) أي بلع، وتطلق عادة لمن يخرج لسانه عند البلع.

(٤) الكلام الآن لأبي حيان.

أَلَا إِنَّمَا يَكْفِي الفَتَىٰ عِنْدَ زَيْغِهِ مِنَ الأَوَدِ البَادِي ثِقَافُ المُقَوِّمِ[١]

فقلتُ لك: أنا سامعٌ مطيعٌ، وخادمٌ شكورٌ، لا أشتري سخطَك بكلِّ صفراءَ وبيضاءَ في الدنيا، ولا أنفِرُ من التزامِ الذنبِ والاعترافِ بالتقصيرِ، ومثلي يهفُو ويَجمَحُ، ومثلُك يعفُو ويصفحُ، وأنت مولىٰ وأنا عبدٌ، وأنت آمرٌ وأنا مؤتمِرٌ، وأنت ممتَثَلٌ وأنا ممتثِلٌ، وأنت مُصطَنِعٌ وأنا صنيعةٌ، وأنت مُنشِئٌ وأنا منشَأٌ، وأنت أولٌ وأنا آخرٌ، وأنت مأمولٌ وأنا آملٌ، ومتىٰ لم تغفرْ لي الذنبَ البِكرَ، والجنايةَ العذراءَ، والبادرةَ النادرةَ، فقد أعنْتَني علىٰ ما كان منِّي، ودللتَ علىٰ ملكِك لي، وأنك كنتُ مترصدًا لهذه الهفوةِ، ومعتقدًا في مقابلتِها هذه الجفوةَ، وكرمُك يأبَىٰ عليك هذا، ومُثُولي بينَ يديك خدمةً لك يحظرُه عليك.

هذا وأنا أفعلُ ما طالبْتَني به من سردِ جميعِ ذلك، إلَّا أنْ أغوصَ فيه علىٰ البديهةِ - في هذه الساعةِ - يشقُّ ويصعبُ بعقبِ ما جرَىٰ من التفاوضِ، فإنْ أذِنتَ جمعتُه كلَّه في رسالةٍ تشتملُ علىٰ الدقيقِ والجليلِ، والحلوِ والمرِّ، والطريِّ والعَاسِي[٢]، والمحبوبِ والمكروهِ.

فكان من جوابِك لي[٣]: افعلْ؛ وهو أحبُّ إليَّ وأقربُ إلىٰ إرادتِي، وأحضَرُ لِمَا أريغَ منه، وأَدخَلُ في الحجةِ عليك ولك، وأغسَلُ للوسخِ الذي بيني وبينك، وأزهَرُ للسراجِ الذي طفئَ عنِّي وعنك، وأجذبُ لعنانِ الحجةِ إن

---

(١) الأَوَد: العِوَج، وثِقَافُ المقوم: ما يسوىٰ به المقوم الرماح المعوجة.

(٢) اليابس.

(٣) الكلام الآن لأبي الوفاء المهندس.

كانت لك، وأنطقُ عن العذرِ إن اتضحَ بقولِك، وإذا عزمتَ فتوكَّلْ علىٰ اللهِ، وليكنْ الحديثُ علىٰ تباعدِ أطرافِه، واختلافِ فنونِه مشروحًا، والإسنادُ عاليًا متصلًا، والمتنُ تامًّا بيِّنًا، واللفظُ خفيفًا لطيفًا، والتصريحُ غالبًا متصدرًا، والتعريضُ قليلًا يسيرًا، وتَوَخَّ الحقَّ في تضاعيفِه وأثنائِه، والصدقَ في إيضاحِه وإثباتِه، واتَّقِ الحذْفَ المُخِلَّ بالمعنَىٰ، وإلحاقَ المتصلِ بالهذرِ، واحذرْ تزيينَه بما يشينُه، وتكثيرَه بما يقلِّلُه، وتقليلَه عمَّا لا يُستغنَىٰ عنه، واعمدْ إلىٰ الحسَنِ فزدْ في حسنِه، وإلىٰ القبيحِ فانقصْ من قبحِه، واقصدْ إمتاعِي بجمعِ نظمِه ونثرِه، وإفادتِي من أوَّلِه إلىٰ آخرِه؛ فلعلَّ هذه المثاقفةَ تبقَىٰ وتروَىٰ، ويكونُ في ذلك حسنُ الذكرَىٰ، ولا تومئْ إلىٰ ما يكونُ الإفصاحُ عنه أحلَىٰ في السمعِ، وأعذبَ في النفسِ، وأعلقَ بالأدبِ، ولا تفصحْ عمَّا تكونُ الكنايةُ عنه أسترَ للعيبِ، وأنفَىٰ للريبِ؛ فإنَّ الكلامَ صَلِفٌ تيَّاهٌ لا يستجيبُ لكلِّ إنسانٍ، ولا يَصحَبْ كلَّ لسانٍ؛ وخطرُه كثيرٌ، ومتعاطِيه مغرورٌ، وله أَرَنٌ كأَرَنِ المُهْرِ، وإباءٌ كإباءِ الحَرُونِ[1]، وزَهْوٌ كزَهْوِ المَلِكِ، وخَفْقٌ كخَفْقِ البرقِ؛ وهو يتسهَّلُ مرةً ويتعسَّرُ مرارًا، ويَذِلُّ طورًا ويَعِزُّ أطوارًا، ولا تعشقْ اللفظَ دونَ المعنَىٰ، ولا تهوَ المعنىٰ دونَ اللفظِ، وكنْ من أصحابِ البلاغةِ والإنشاءِ في جانبٍ، فإنَّ صناعتَهم يُغتَفرُ فيها أشياءُ يؤاخَذُ بها غيرُهم، ولستَ منهم، فلا تتشبهْ بهم، ولا تجرِ علىٰ مثالِهم، ولا تنسجْ علىٰ منوالِهم، ولا تدخلْ في غمارِهم، ولا تكثِّرْ ببياضِك سوادَهم، ولا

(١) الأَرَن: النشاط والمرح، والحَرُون: الدابة الثابتة في مكانها لا تبرح، وتطلق أحيانا علىٰ الرجل.

تقابِلْ بفهاهتِك[١] براعتَهم، ولا تجذبْ بيدِك رِشاءَهم[٢]، ولا تحاولْ بباعِك مطاولتَهم واعرِفْ قدرَك تسلَمْ، والزمْ حدَّك تأمنْ، فليس الكَوْدَنُ[٣] من العتيقِ في شيءٍ، ولا الفقيرُ من الغنيِّ علىٰ شيءٍ، فإنْ طال فلا تبل، وإن تشعبَ فلا تكترِثْ، فإنَّ الإشباعَ في الروايةِ أشفَىٰ للغليلِ، والشرحَ للحالِ أبلغُ إلىٰ الغايةِ، وأظفرُ بالمرادِ، وأجرَىٰ علىٰ العادةِ.

فكتبتُ:

بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ، أقولُ أيُّها الشيخُ - عطَف اللهُ قلبَك عليَّ، وألهَمَك الإحسانَ إليَّ - في جوابِ جميعِ ما قلتَه واجدًا عليَّ وعاتبًا، وقابضًا وباسطًا، ومرشدًا وناصحًا ما يعرفُ الحقُ فيه، ويستبينُ الصوابُ منه، غيرُ خائنٍ لك، ولا جانحٍ إلىٰ مخالفتِك، ولا مريغٍ للباطلِ معك، ولا جاحدٍ لأياديك القديمةِ والحديثةِ، ولا منكرٍ لنعمتِك الكافيةِ الشافيةِ، ولا غاظٍ علىٰ فواضلِك المجتمعةِ والمتفرقةِ، ولا تاركٍ لشيءٍ هو عليَّ من أجْلِ شيءٍ هو لي، ولا مُعرِضٍ عن شيءٍ هو لي بسببِ شيءٍ هو عليَّ، بل أجهزُ دِقَّه وجِلَّه إليك حتىٰ ترَاه بسُدِّهِ[٤] وغبارِه، وأجلُوه عليك حتىٰ تلحظَه بردائِه وإزارِه، كأنِّي لم أسمعْ قولَ الأوَّلِ:

---

(١) الفَهَاهة: الغفلة والجهل.

(٢) الرِّشَاء: الحبل الذي يعلق به الدلو ليستخرج به الماء من البئر.

(٣) الكَوْدَن: الفرس الهجين، والعتيق: الأصيل.

(٤) السُّد: الجبل الضخم الحاجز، ويكون بضم السين إذا كان من فعل الله ﷻ، وبفتحها إذا كان من فعل الناس.

وَالكُفْرُ مَخْبَثَةٌ لِنَفْسِ المُنْعِمِ وَالشُّكْرُ مَبْعَثَةٌ لِنَفْسِ المُفْضِلِ[١]

أأنا أدعُك واجدًا عليَّ، وأرقدُ وأنت ماقتٌ لي، وأجحدُ حسَّ نعمةٍ أنت وهبتَها إليَّ؟! وألذُّ عيشًا أنت أذقتني حلاوتَه، أأنسَىٰ أياديك وهي طوقَ رقبتي، وتجاهَ عينيَّ، وحشوُ نفسي، وراحةُ حلمِي، وزادُ حياتِي، ومادةُ روحي؟! هيهاتَ، هذا بعيدٌ من القياسِ، وغيرُ معهودٍ بينَ أحرارِ الناسِ الذين لهم اهتمامٌ بصونِ أعراضِهم، وحرصٌ علىٰ إكرامِ أنفسِهم، قد عَبَقُوا بفوائِحِ الفتوَّةِ، وعَلِقُوا بحبائلِ المروءةِ، وشدَوْا من الحكمةِ أشرفَ الأبوابِ، واعتزُّوا من الأدبِ إلىٰ أعزِّ حرمٍ، وحازوا شرفًا بعدَ شرفٍ، وانحازوا عن نَطَفٍ بعد نَطَفٍ[٢]، ونظروا إلىٰ الدنيا بعينٍ بصيرةٍ، وعزفوا أنفسَهم عن زهرتِها بتجربةٍ صادقةٍ.

فأولُ ما أبدؤُك به أنَّني ظننتُ ظنًّا لا كيقينٍ أنَّ شيئًا ممَّا كنتُ فيه مع الوزيرِ - أدامَ اللهُ أيَّامَه، وقصَم أعداءَه - ليس ممَّا يهمُّك، ولا هو ممَّا يقرعُ سمعَك سماعُك له، وحسبتُ أيضًا أنَّني إن بدأتُ بشيءٍ منه، رَذَلْتَني عليه وتنقَّصْتَني به، وزريتَ عليَّ فيه، وأنَّك ربَّما قلتَ: لم بدأتَ بما لم أسئلْكَ عنه، ولم أرخِّصْ لك فيه، هلا كظمتَ علىٰ جِرَّتِك، وطويتَ ما بينَ جنبيْك، وما عَلَيَّ ممَّا يدورُ بينَ الصاحبِ وخادمِه، والرؤساءِ والناظرينَ في أمورِ الدَّهماءِ، والمتصفحينَ لأحوالِ العامَّةِ والخاصَّةِ، ولهم أسرارٌ وغيوبٌ لا يقفُ عليها أقربُ الناسِ إليهم، وأعزُّ الناسِ عليهم.

---

(١) الشطر الأول هو عجز بيت لعنترة أوله: نُبِّئْتُ عَمْرًا غيرَ شاكِرِ نِعْمَتي والكُفْرُ...، والشطر الثاني لم أقف عليه؛ ولعله من إنشاء التوحيدي.

(٢) العيب، وتطلق علىٰ الرجل المريب.

وأنتَ أيضًا فلم تسألْني عنه، فكان في تقديري أنَّك قد عرفتَ وصولِي في وقتٍ دونَ وقتٍ، وأنَّك قد حملتَ أمري علىٰ الخدمةِ التي ليس للعلمِ بها فائدةٌ، ولا في الإعراضِ عنها فائتةٌ.

وإذ جرَىٰ الأمرُ علىٰ غيرِ ما كانَ في حسابي وتلبَّس بظنِّي، فإنِّي أُهدِي ذلك كلَّه بغثاثتِه وسمانتِه، وحلاوتِه ومرارتِه، ورقَّتِه وخثارتِه في هذا المكانِ. ثم أنت أبصرُ بعدَ ذلك في كتمانِه وإفشائِه، وحفظِه وإضاعتِه وسترِه وإشاعتِه، ووالله ما أرَىٰ هذا أمرًا صعبًا إذا وصَل إلىٰ مرادِك، ولا كُلْفةً شاقةً إذا أكسبَني مرضاتِك، وإن كانَ ذلك يمرُّ بأشياءَ كثيرةٍ ومختلفةٍ، متعصيَّةٍ غريبةٍ، منها ما يشيطُ به الدمُ المحقونُ، وينزعُ من أجلِه الروحُ العزيزُ، ويستصغرُ معه الصَّلْبُ، ولا يقنعُ فيه بالعذابِ الأدنَىٰ دونَ العذابِ الأكبرِ، وإن كانَ فيها أيضًا غيرُ ذلك ممَّا يُضحِكُ السنَّ، ويُفْكِه النفسَ، ويدعو إلىٰ الرشادِ، ويدلُّ علىٰ النصحِ، ويؤكدُ الحرمةَ، ويعقدُ الذِّمامَ، وينشرُ الحكمةَ، ويشرفُ الهمةَ، ويلقحُ العقلَ، ويزيدُ في الفهمِ والأدبِ، ويفتحُ بابَ اليُمْنِ والبركةِ، وينفقُ بضاعةَ أهلِ العلمِ في السوقِ الكاسدةِ، ويوقظُ العيونَ الناعسةَ، ويَبُلُّ الشَّنَّ المُتَغَضِّفَ[1]، ويُندِي الطِّينَ المُتَرَشِّفَ، ويكونُ سببًا قويًّا علىٰ حسنِ الحالِ، وطيبِ العيشِ، فإنَّ هذا العاجلةَ محبوبةٌ، والرفاهيةَ مطلوبةٌ، والمكانةَ عندَ الوزراءِ بكلِّ حولٍ وقوةٍ مخطوبةٌ، والدنيا حلوةٌ خضرةٌ وعذبةٌ نضرةٌ، ومَن

(١) أي القربة المتكسرة بسبب يبوستها.

شَفَّ[1] أملُه شَقَّ عملُه، ومَن اشتدَّ إلحاحُه، توالَىٰ غُدُوُّه ورواحُه، ومَن أسرَّه رجاؤُه، طالَ عناؤُه وعظُمَ بلاؤُه، ومَن التهَب طمعُه وحرصُه، ظهَر عجزُه ونقصُه.

ولابدَّ من فتًى يعينُ علىٰ الدهرِ، ويغني عن كرامِ الناسِ فضلًا عن لئامِهم، ويذلِّلُ قَعُودَ الصبرِ، ويجمُّ راحلةَ الأملِ، ويحَلِّي مُرَّ اليأسِ.

والعزلةُ محمودةٌ إلَّا أنَّها محتاجةٌ إلىٰ الكفايةِ، والقناعةُ مَزَّةٌ فكهةٌ ولكنَّها فقيرةٌ إلىٰ البُلْغَةِ، وصيانةُ النفسِ حسنةٌ إلَّا أنَّها كُلْفَةٌ محرجةٌ، إن لم تكنْ لها أداةٌ تجدُها، وفاشيةٌ تمدُّها، وتركُ خدمةِ السلطانِ غيرُ الممكنِ ولا يُستطاعُ إلَّا بدينٍ متينٍ، ورغبةٍ في الآخرةِ شديدةٍ، وفطامٍ عن دارِ الدنيا صعبٌ، ولسانٍ بالحلوِ والحامضِ يلغُ.

وليس كلُّ أحدٍ له هذه القوةُ، ولا فيه هذه المُنَّةُ، والإنسانُ بشرٌ، وبنيتُه متهافتةٌ، وطينتُه منتشرةٌ، وله عادةٌ طالبةٌ، وحاجةٌ هاتكةٌ، ونفسٌ جموحٌ، وعينٌ طموحٌ، وعقلٌ طفيفٌ، ورأيٌ ضعيفٌ، يهفُو لأوَّلِ ريحٍ، ويستخيلُ لأوَّلِ بارقٍ، هذا إذا تخلَّص من قرناءِ السوءِ، وسلِم من سوارقِ العقلِ، وكان له سلطانٌ علىٰ نفسِه، وقهرٌ لشهواتِه، وقمعٌ لهوائجِه، وقبولٌ من ناصحِه، وتهيؤٌ في سعيِه، وتبوءٌ في معانِ حظِه، وائتمامٌ بسعادتِه، واستبصارٌ في طلبِ ما عندَ ربِّه، واستنصافٌ من هوَاه المضلِّ لعقلِه المرشدِ، هذا قليلٌ وصعبٌ، ولو قلت: معدومٌ أو محالٌ في هذا الزمنِ العسيرِ والدهرِ الفاسدِ، لَمَا خفتُ عائقًا

---

(١) زاد.

يعوقُني، ولا حسودًا يردُّ قولي، واللهُ المستعانُ علىٰ ألسنٍ تصفُ، وقلوبٍ تعترفُ، وأعمالٍ تختلفُ.

ونعوذُ باللهِ من الفقرِ خاصةً إذا لم يكنْ لصاحبِه عِياذٌ من التقوَىٰ، ولا عِمادٌ من الصبرِ، ولا دعامةٌ من الأنفةِ، ولا اصطبارٌ علىٰ المرارةِ.

وأرجعُ عن هذه الشكيةِ الطويلةِ اللاذعةِ، والبليَّةِ العامَّةِ الشاملةِ إلىٰ عينِ ما رسمتَ لي ذكرَه، وكلَّفتني إعادتَه، عائذًا باللهِ في صرفِ الأذَىٰ عنِّي وسوقِ الخيرِ إليَّ، ولائذًا بكرمِك الذي رشتَني[1] به إلىٰ الساعةِ، وكفيتَني به مؤنَة الخدمةِ لغيرِك من هذه الجماعةِ، والأعمالُ بخواتيمِها، والصدورُ بأعجازِها، وأنت أولَىٰ الناسِ بالصفحِ والتجاوزِ عنِّي إذا عرفتَ براءَتي في كلِّ ما يتعلَّقُ بي من ذمامِك، ويجبُ عليَّ من الحقِّ في مودتِك، والاعتصامِ بحبلِك والانتجاعِ[2] من عشبِك، والارتغاءِ من لبنِك.

❁ ❁ ❁

(١) جعلت لي بمعروفك ريشًا يقيني من الفقر كما يقي ريش الطائر من البرد.
(٢) الانتجاع في الأصل طلب الكلأ والمرعىٰ، والمقصود به هنا طلب المعروف.

الليلةُ الأولَى

وصلتُ أوَّلَ ليلةٍ إلىٰ مجلسِ الوزيرِ - أعزَّ اللهُ نصرَه، وشدَّ بالعصمةِ والتوفيقِ أزرَه - فأمَرني بالجلوسِ، وبسَط لي وجهَه الذي ما اعترَاه منذُ خلِق العبوسُ؛ ولطَّف كلامَه الذي ما تبدَّل منذُ كان لا في الهزلِ ولا في الجدِّ، ولا في الغضبِ ولا في الرضَا، ثم قال بلسانِه الذَّليقِ[١]، ولفظِه الأنيقِ: قد سألتُ عنك مراتٍ شيخَنا أبا الوفاءِ، فذكَر أنَّك مُراعٍ لأمرِ البَيْمَارِسْتَانِ[٢] من جهتِه، وأنا أربأُ بك عن ذلك، ولعلِّي أُعَرِّضُك لشيءٍ أنبَه من هذا وأجدَىٰ، ولذلك فقد تاقَتْ نفسي إلىٰ حضورِك للمحادثةِ والتأنيسِ، ولأتعرَّفَ منك أشياءَ كثيرةً مختلفةً، تَرَدَّدُ في نفسي علىٰ مرِّ الزمانِ، لا أحصيها لك في هذا الوقتِ، لكنِّي أَنْثُرُها في المجلسِ بعدَ المجلسِ علىٰ قدرِ ما يَسْنَحُ ويَعرِضُ، فأجِبْني عن ذلك كلِّه باسترسالٍ وسكونِ بالٍ؛ بملءِ فيك، وجمِ خاطرِك، وحاضرِ علمِك؛ ودعْ عنك تفننَ البغداديينَ[٣] مع عفوِ لفظِك، وزائدِ رأيِك،

---

(١) أي اللسان الحاد البليغ.

(٢) أي دار المرضىٰ أو المستشفيات بالمعنىٰ المعاصر، وهي لفظة فارسية الأصل مُركّبة من كلمة «بيمار» وتعني مريض، و«ستان» وتعني دار، وكان أبو الوفاء قد جعل أبا حيان حارسًا عليها.

(٣) أي استطراد البغداديين وخروجهم في الكلام من فن إلىٰ فن.

وربحِ ذهنِك؛ ولا تجبُنْ جبنَ الضعفاءِ، ولا تتأطرْ[١] تأطّرَ الأغبياءِ؛ واجزِمْ إذا قلتَ، وبالغْ إذا وصفتَ؛ واصدقْ إذا أسندتَ، وافصلْ إذا حكمتَ، إلّا إذا عرَض لك ما يوجبُ توقفًا أو تهاديًا[٢]؛ وما أحسنَ ما قال الأوَّلُ:

لَا تَقْدَحُ الظِّنَّةُ فِي حُكْمِهِ شِيمَتُهُ عَدْلٌ وَإِنْصَافُ
يَمْضِي إِذَا لَمْ تَلْقَهُ شُبْهَةٌ وَفِي اعْتِرَاضُ الشَّكِ وَقَّافُ

وقد قال الأوَّلُ:

أُبَالِي البَلَاءَ وَإِنَّنِي امْرُؤٌ إِذَا مَا تَبَيَّنْتُ لَمْ أَرْتَبِ

وكنْ علىٰ بصيرةٍ أني سأستدلُّ ممَّا أسمعُه منك في جوابِك عمَّا أسألُك عنه، علىٰ صدقِك وخلافِه، وعلىٰ تحريفِك وقرافِه.

فقلتُ: قبلَ كلِّ شيءٍ أريدُ أن أُجابَ إلىٰ ما يكونُ ناصري علىٰ ما يُراد منِّي فإنِّي إن مُنِعتُه نُكِلْتُ، وإن نُكِلتُ قَلَّ إفصاحي عمَّا أُطالبُ به وخِفْتُ الكسادَ، وقد طمِعتُ بالنَّفَاقِ[٣]، وانقلبتُ بالخيبةِ، وقد عقدتُ خِنصَري علىٰ المسألةِ.

فقال - حرَس اللهُ روحَه -: قل - عافاك اللهُ - ما بدَا لك، فأنت مجابٌ إليه ما دمتَ ضامنًا لبلوغِ إرادتِنا منك، وإصابةِ غرضِنا بك.

قلتُ: يؤذَنُ لي في كافِ المخاطَبةِ، وتاءِ المواجَهةِ، حتىٰ أتخلَّصَ من مزاحمةِ الكنايةِ ومضايقةِ التعريضِ، وأركبَ جَدَدَ[٤] القولِ من غيرِ تَقِيَّةٍ ولا

---

(١) التأطر: الانحباس، ويقصد لا تنحبس وتتردد في الجواب مثل الأغبياء عندما يُسألون.
(٢) التهادي: المشي الرفيق في تمايل.
(٣) من الإنفاق، وهو ضد الكساد
(٤) الجَدَد: الأرض المستوية.

تحاشٍ ولا مُحَاوتةٍ ولا انحياشٍ[١].

قال: لك ذلك، وأنت المأذونُ فيه، وكذلك غيرُك، وما في كافِ المخاطبةِ وتاء المواجهةِ؟!

إنَّ اللهَ تعالىٰ - علىٰ علوِّ شأنِه، وبسطةِ ملكِه، وقدرتِه علىٰ جميعِ خلقِه، يواجِهُ بالتاءِ والكافِ، ولو كان في الكنايةِ بالهاءِ رفعةٌ وجلالةٌ وقدرٌ ورتبةٌ وتقديسٌ وتمجيدٌ؛ لكان اللهُ أحقَّ بذلك ومقدَّمًا فيه، وكذلك رسولُه ﷺ والأنبياءُ قبلَه عليهم السلام وأصحابُه رضي الله عنهم والتابعونَ لهم بإحسانٍ -رحمةُ اللهِ عليهم- وهكذا الخلفاءُ، فقد كان يقال للخليفةِ: يا أميرَ المؤمنينَ أعزَّك اللهُ، ويا عمرَ أصلحكَ اللهُ؛ وما عاب هذا أحدٌ، وما أَنِفَ منه حسيبٌ ولا نسيبٌ، ولا أبَاه كبيرٌ ولا شريفٌ؛ وإنِّي لأعجبُ من قومٍ يرغبونَ عن هذا وشبهِه، ويحسَبونَ أنَّ في ذلك ضعةً أو نقيصةً أو حطًا أو زِرايةً، وأظنُّ أنَّ ذلك لعجزِهم وفسولتِهم[٢]، وانخزالِهم وقلتِهم وضئولتِهم، وما يجدونَه من الغضاضةِ في أنفسِهم، وأنَّ هذا التكلفَ والتجبُّرَ يمحوانِ عنهم ذلك النقصَ، وذلك النقصُ ينتفِي بهذا الصَّلَفِ؛ هيهاتَ، لا تكونُ الرياسةُ حتىٰ تصفوَ من شوائبِ الخيلاءِ ومن مقابحِ الزَّهْوِ والكبرياءِ.

فقلتُ: أيُّها الوزيرُ، قد خالطتُ العلماءَ، وخدمتُ الكبراءَ، وتصفحتُ أحوالَ الناسِ في أقوالِهم وأعمالِهم وأخلاقِهم، فما سمعتُ هذا المعنَىٰ من أحدٍ علىٰ هذه السياقةِ الحسنةِ والحجةِ الشافيةِ والبلاغِ المبينِ؛ وقد قال بعضُ

---

(١) المحاوتة: المخادعة والمرواغة، أما الانحياش: فهو الانقباض.

(٢) الفسولة: الخسة والضعف.

السلفِ الصالحِ: «ما تعاظَم أحدٌ علىٰ مَن دونَه إلَّا بقدرِ ما تصاغَر لمَن فوقَه». والتصاغرُ دواءُ النفسِ، وسجيةُ أهلِ البصيرةِ في الدنيا والدينِ؛ ولذلك قال ابنُ السمَّاكِ للرشيدِ - وقد عجِب من رقتِه، وحسنِ إصاختِه لموعظتِه، وبليغِ قبولِه لقولِه، وسرعةِ دمعتِه علىٰ وجنتِه -: يا أميرَ المؤمنينَ، لَتواضعُك في شرفِك أشرفُ من شرفِك، وإنِّي أظنُّ أنَّ دمعتَك هذه قد أطفأتْ أوديةً من النارِ، وجعلتْها بردًا وسلامًا.

قال الوزيرُ: هذا بابٌ مفترقٌ فيه، ورجِّعْنا إلىٰ الحديثِ فإنَّه شهيٌّ، سيَّما إذا كان من خطراتِ العقلِ قد خدم بالصوابِ في نغمةٍ ناغمةٍ، وحروفٍ متقاومةٍ؛ ولفظٍ عذبٍ، ومأخذٍ سهلٍ؛ ومعرفةٍ بالوصلِ والقطعِ، ووفاءٍ بالنثرِ والسجعِ؛ وتباعدٍ من التكلفِ الجافي، وتقاربٍ في التلطفِ الخافي، قاتَل اللهُ ذا الرمةِ[1] حيثُ يقولُ:

لَهَا بَشَرٌ مِثْلُ الحَرِيرِ وَمَنْطِقٌ رَخِيمُ الحَوَاشِي لَا هُرَاءٌ وَلَا نَزْرُ[2]

وكنتُ أنشدُ أيامَ الصِّبا هذا بالذالِ[3]، وكان ذلك من سوءِ تلقينِ المعلِّمِ؛ وبالعراقِ رُدَّ عليَّ وقيل: هو بالزاي، وقد أجاد القطامي[4] أيضًا وتغزَّل في قولِه:

فَهُنَّ يَنْبِذْنَ مِنْ قَوْلٍ يُصِبْنَ بِهِ مَوَاقِعَ المَاءِ مِنْ ذِي الغَلَّةِ الصَّادِي

---

(١) هو غيلان بن عقبة بن نهيس، من فحول الشعراء الأمويين، توفي عام مائة وسبعة عشر عن أربعين سنة.

(٢) رخيم الحواشي: أي ناعمها، والهراء: الكلام الكثير، والنزر: القليل.

(٣) أي الكلمة الأخيرة بالبيت السابق «نزر».

(٤) هو عمير بن شييم التغلبي من جشم بن بكر، شاعر نصراني مقل.

قلتُ: ولفوائدِ الحديثِ ما صنَّف أبو زيدٍ[١] رسالةً لطيفةَ الحجمِ في المنظرِ، شريفةَ الفوائدِ في المخبَرِ، تجمعَ أصنافَ ما يقتبَسُ من العلمِ والحكمةِ والتجربةِ في الأخبارِ والأحاديثِ، وقد أحصاها واستقصاها وأفاد بها، وهي حاضرةٌ.

فقال الوزيرُ: احملْها واكتبْها، ولا تَمِلْ إلىٰ البخلْ بها علىٰ عادةِ أصحابِنا الغثاث.

قلتُ: السمعُ والطاعةُ، ثمَّ روَيتُ أنَّ عبدَ الملكِ بنَ مروانَ قال لبعضِ جلسائِه: قد قضيتُ الوطرَ من كلِّ شيءٍ إلَّا من محادثةِ الإخوانِ في الليالي الزُّهْرِ، علىٰ التلالِ العُفْرِ.

وأحسنُ من هذا ما قال عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ: واللهِ إنِّي لأشتري الليلةَ من ليالي عبيدِ اللهِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ عتبةَ بنِ مسعودٍ[٢] بألفِ دينارٍ من بيتِ مالِ المسلمينَ، فقيل: يا أميرَ المؤمنينَ، أتقولُ هذا مع تحريِّكَ وشدةِ تحفظِك

---

(١) هو أحمد بن سهل البلخي، أحد الفلاسفة الأدباء، كان يسمىٰ جاحظ خراسان، أعجب به أبو حيان كثيرًا حتىٰ أنه قال فيه: لم يتقدم له شبيه في العصر الأول، ولن يوجد له نظير فيما يستأنف من الدهر، توفي سنة ثلاثمائة واثنين وعشرين عن ثمان وثمانين سنة.

(٢) مفتي المدينة وعالمها، وأحد الفقهاء السبعة، وجده عتبة أخو عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما، ولد في خلافة عمر، كان ثقة، عالما، فقيها، كثير الحديث والعلم بالشعر، جامعًا للعلم، وهو معلم عمر بن عبد العزيز، قال الزهري: ما جالست أحدًا من العلماء إلا وأرىٰ أني قد أتَيْتُ علىٰ ما عنده، وقد كنتُ أختلف إلىٰ عروة بن الزبير حتىٰ ما كنت أسمع منه إلا مُعادًا ما خلا عبيد الله؛ فإنه لم آته إلا وجدتُ عنده علمًا طريفًا، مات سنة تسع وتسعين.

وتنزهك؟ فقال: أين يذهَبُ بكم؟ واللهِ إنِّي لأعودُ برأيِه ونصحِه وهدايتِه علىٰ بيتِ مالِ المسلمينَ بألوفِ ألوفِ دنانيرَ، إنَّ في المحادثةِ تلقيحًا للعقولِ، وترويحًا للقلبِ، وتسريحًا للهمِّ، وتنقيحًا للأدبِ.

قال الوزيرُ: صدَق هذا الإمامُ في هذا الوصفِ، إنَّ فيه هذا كلَّه.

وقال سليمانُ بنُ عبدِ الملكِ: قد ركبْنا الفارِهَ، وتبطَّنَّا الحسناءَ، ولبسنَا اللينَ، وأكلْنا الطيبَ حتىٰ أجمناه[١]، وما أنا اليومَ إلىٰ شيءٍ أحوجَ منِّي إلىٰ جليسٍ يضعُ عنِّي مؤنةَ التحفظِ، ويحدثُني بما لا يمجُّه السمعُ، ويطربُ إليه القلبُ.

فقال الوزيرُ: أحسنتَ في هذه الرواياتِ علىٰ هذه التوشيحاتِ، وأعجبني ترحمُك علىٰ شيخِك أبي سعيدٍ[٢]، فما كلُّ أحد يسمحُ بهذا في مثلِ هذا المقامِ، وما كلُّ أحدٍ يأبَهُ لهذا الفعلِ؛ هاتِ ملحةَ الوداعِ حتىٰ نفترقَ عنها، ثم نأخذُ ليلةً أخرىٰ في شجونِ الحديثِ.

قلتُ: حدَّثنا ابنُ سيفٍ الكاتبُ الراويةُ، قال: رأيتُ جحظةَ[٣] قد دعا بنَّاءً ليبنيَ له حائطًا فحضَر، فلمَّا أمسىٰ اقتضَىٰ البناءُ الأجرةَ، فتماكَسا وذلك أنَّ الرجلَ طلَب عشرينَ درهمًا.

---

(١) مللناه.

(٢) كنت حذفت العبارة التي ترحم فيها أبو حيان علىٰ شيخه، وأبقيت هذا الجواب للطف معناه!

(٣) هو أبو الحسن أحمد بن جعفر بن موسىٰ بن يحي بن خالد بن برمك، كان شاعرًا وصاحب فنون ونوادر توفي عام ستة وعشرين وثلاثمائة ببغداد.

فقال جحظةُ: إنما عمِلتَ يا هذا نصفَ يومٍ وتطلبُ عشرينَ درهمًا؟

قال: أنت لا تدري، إنِّي قد بنيتُ لك حائطًا يبقَىٰ مائةَ سنةٍ.

فبينما هما كذلك وجَب الحائطُ وسقَط؛ فقال جحظةُ: هذا عملُك الحسنُ؟

فردَّ البنَّاءُ: فأردتَ أن يبقَىٰ ألفَ سنةٍ؟ قال: لا، ولكنْ كان يبقَىٰ إلىٰ أن تستوفيَ أجرتَك.

فضحِك الوزيرُ -أضحكَ اللهُ سِنَّه.

الليلةُ السادسةُ

قال الوزيرُ: أتفضلُ العربَ علىٰ العجمِ أم العجمَ علىٰ العربِ؟

قلتُ: الأممُ عندَ العلماءِ أربعٌ: الرومُ، والعربُ، وفارسُ، والهندُ؛ وثلاثٌ من هؤلاءِ عجمٌ، وصعبٌ أن يقالَ: العربُ وحدَها أفضلُ من هؤلاءِ الثلاثةِ، مع جوامعِ ما لها، وتفاريقِ ما عندَها.

قال: إنَّما أريدُ بهذا الفرسَ.

فقلتُ: قبلَ أن أحكمَ بشيءٍ من تلقاءِ نفسي، أروي كلامًا لابنِ المقفَّعِ[1]، وهو أصيلٌ في الفرسِ عريقٌ في العجمِ، مفضَّلٌ بينَ أهلِ الفضلِ؛ وهو صاحبُ اليتيمةِ القائلُ: تركتُ أصحابَ الرسائلِ بعدَ هذا الكتابِ في ضحضاحٍ من الكلامِ.

قال: هاتِ علىٰ بركةِ اللهِ وعونِه.

---

(١) أبو عمرو زوزبه ابن داذويه، أحد البلغاء الفصحاء، ورأس الكتاب، أسلم علىٰ يد الأمير عيسىٰ بن علي والي الأهواز، حيث كان كاتبًا عنده، وشهد بزندقته كثير من معاصريه وأنه علىٰ دينه القديم، وكان - مع زندقته - وقورًا سخيًا يترفع عن الدنايا ويتحلىٰ بخصال المروءة، قتله المنصور سنة ١٤٥هـ لأنه أغرىٰ به عمه عبد الله بن علي. وكتابه اليتيمة من الكتب التي سقطت من يد الزمن، ويتضمن حكم منقولة من العديد من الثقافات العربية والإسلامية والهندية والفارسية واليونانية.

قلتُ: قال شبيبُ بنُ شبةَ: إنَّا لوقوفٌ في عرصةِ المربدِ - وهو موقفُ الأشرافِ ومجتمعُ الناسِ وقد حضَر أعيانُ المصرِ - إذ طلَع ابنُ المقفعِ، فما فينا أحدٌ إلَّا هشَّ له، وارتاح إلىٰ مساءلتِه، وسُررنا بطلعتِه؛ فقال: ما يقفُكم علىٰ متونِ دوابِّكم في هذا الموضعِ؟ فواللهِ لو بعِث الخليفةُ إلىٰ أهلِ الأرضِ يبتغي مثلَكم ما أصاب أحدًا سواكم، فهل لكم في دارِ ابنِ برثن في ظلٍّ ممدودٍ، وواقيةٍ من الشمسِ، واستقبالٍ من الشمالِ، وترويحٍ للدوابِّ والغلمانِ، ونتمهدُ الأرضَ فإنَّها خيرُ بساطٍ وأوطؤُه، ويسمعُ بعضُنا من بعضٍ فهو أمدُّ للمجلسِ، وأدرُّ للحديثِ.

فسارعْنا إلىٰ ذلك، ونزلْنا عن دوابِّنا في دارِ ابنِ برثن نتنسمُ الشمالُ، إذ أقبَل علينا ابنُ المقفعِ، فقال: أيُّ الأممِ أعقلُ؟ فظننَّا أنه يريدُ الفرسَ، فقلنا: فارسَ أعقلُ الأممِ، نقصدُ مقاربتَه، ونتوخَّىٰ مصانعتَه، فقال: كلَّا، ليس ذلك لها ولا فيها، هم قومٌ علِموا فتعلَّموا، ومُثِّلَ لهم فامتَثلوا واقتدَوا، وبُدِئُوا بأمرٍ فصاروا إلىٰ اتباعِه، ليس لهم استنباطٌ ولا استخراجٌ.

فقلنا له: الرومُ، فقال: ليس ذلك عندَها، بل لهم أبدانٌ وثيقةٌ وهم أصحابُ بناءٍ وهندسةٍ، لا يعرفونَ سواهما، ولا يحسِنون غيرَهما.

قلنا: فالصينُ، قال: أصحابُ أثاثٍ وصنعةٍ، لا فكرَ لها ولا رويةَ.

قلنا: فالتركُ، قال: سباعٌ للهراشِ.

قلنا: فالهندُ، قال: أصحابُ وَهْمٍ ومخرقةٍ وشعوذةٍ وحيلةٍ.

قلنا: فالزنجُ، قال: بهائمُ هاملةٌ.

فردْدنا الأمرَ إليه، فقال: العربُ.

فتلاحظْنا وهمَس بعضُنا إلىٰ بعضٍ، فغاظَه ذلك منَّا، وامتقعَ لونُه، ثم قال: كأنَّكم تظنُّونَ فيَّ مقاربتَكم، فواللهِ لوددتُ أنَّ الأمرَ ليس لكم ولا فيكم، ولكن كرهتُ إن فاتني الأمرُ أن يفوتَني الصوابُ، ولكن لا أدعُكم حتىٰ أبيِّنَ لكم لم قلتُ ذلك، لأخرجَ من ظِنَّةِ المداراةِ، وتوهمِ المصانعةِ.

إنَّ العربَ ليس لها أولٌ تؤمُّه ولا كتابٌ يدلُّها، أهلُ بلدٍ قفرٍ، ووحشةٍ من الإنسِ، احتاجَ كلُّ واحدٍ منهم في وحدتِه إلىٰ فكرِه ونظرِه وعقلِه؛ وعلموا أن معاشَهم من نباتِ الأرضِ فوسَموا كلَّ شيءٍ بسمتِه، ونسبوه إلىٰ جنسِه، وعرفوا مصلحةَ ذلك في رطبِه ويابسِه، وأوقاتِه وأزمنتِه، وما يصلحُ منه في الشاةِ والبعيرِ؛ ثم نظروا إلىٰ الزمانِ واختلافِه فجعلوه ربيعيًّا وصيفيًّا، وقيظيًّا وشتويًّا، ثم علموا أن شربَهم من السماءِ، فوضعوا لذلك الأنواءَ؛ وعرفوا تغيرَ الزمانَ فجعلوا له منازلَه من السنةِ؛ واحتاجوا إلىٰ الانتشارِ في الأرضِ، فجعلوا نجومَ السماءِ أدلةً علىٰ أطرافِ الأرضِ وأقطارِها، فسلكوا بها البلادَ؛ وجعلوا بينَهم شيئًا ينتهون به عن المنكرِ، ويرغبُهم في الجميلِ، ويتجنبون به الدناءةَ ويحضُّهم علىٰ المكارمِ؛ حتىٰ إنَّ الرجلَ منهم وهو في فجٍّ من الأرضِ يصفُ المكارمَ فما يُبقِي من نعتِها شيئًا، ويسرفُ في ذمِّ المساوئَ فلا يُقَصِّرُ، ليس لهم كلامٌ إلَّا وهم يتحاضونَ به علىٰ اصطناعِ المعروفِ ثم حفظِ الجارِ وبذلِ المالِ وابتناءِ المحامدِ، كلُّ واحدٍ منهم يصيبُ ذلك بعقلِه، ويستخرجُه بفطنتِه وفكرتِه فلا يتعلمون ولا يتأدبون، بل نحائزُ[1] مؤدِّبَةٌ، وعقولٌ عارفةٌ.

---

(١) جمع نحيزة، وهي العادات والطبائع.

فلذلك قلتُ لكم: إنَّهم أعقلُ الأممِ، لصحةِ الفطرةِ، واعتدالِ البنيةِ، وصوابِ الفكرِ، وذكاءِ الفهمِ. هذا آخرُ الحديثِ.

قال الوزيرُ: ما أحسنَ ما قال ابنُ المقفعِ! وما أحسنَ ما قصصتَه وما أتيتَ به! هاتِ الآنَ ما عندَك من مسموعٍ ومستنبَطٍ.

فقلتُ: إن كان ما قال هذا الرجلُ البارعُ في أدبِه المقدَّمُ بعقلِه كافيًا فالزيادةُ عليه فضلٌ مستغنًىٰ عنه، وإعقابُه بما هو له لا فائدةَ فيه.

فقال: هذه مسألةٌ - أعني تفضيلَ أمةٍ علىٰ أمةٍ - من أمهاتِ ما تدارأَ الناسُ عليه، وتدافعوا فيه؛ ولم يرجِعوا منذُ تناقلوا الكلامَ في هذا البابِ إلىٰ صلحٍ متينٍ واتفاقٍ ظاهرٍ.

فقلتُ: بالواجبِ ما وقَع هذا، فإن الفارسيَّ ليس في فطرتِه ولا عادتِه ولا منشئِه أن يعترِفَ بفضلِ العربيِّ، ولا في جبلَّةِ العربيِّ وديدنِه أن يقرَّ فضلَ الفارسيِّ، وكذلك الهنديُّ والروميُّ والتركيُّ والديلميُّ.

وبعدُ، فلكلِّ أمةٍ فضائلُ ورذائلُ، ولكلِّ قومٍ محاسنُ ومساوٍ، ولكلِّ طائفةٍ من الناسِ في صناعتِها وحَلِّهَا وعقدِها كمالٌ وتقصيرٌ؛ وهذا يقضي بأن الخيراتِ والفضائلَ والشرورَ والنقائصَ مفاضةٌ علىٰ جميعِ الخلقِ، مفضوضةٌ بينَ كلِّهم.

فللفُرسِ السياسةُ والآدابُ والحدودُ والرسومُ، وللرومِ الحكمةُ، وللهندِ الفكرُ والرؤيةُ والخفةُ والسحرُ والأناةُ، وللتركِ الشجاعةُ والإقدامُ، وللزنجِ الصبرُ والكدُّ والفرحُ، وللعربِ النجدةُ والقِرَىٰ والوفاءُ والبلاءُ والجودُ

والذِّمَامُ والخطابةُ والبيانُ. ثم إنَّ هذه الفضائلَ المذكورةَ، في هذه الأممِ المشهورةِ، ليست لكلِّ واحدٍ من أفرادِها، بل هي الشائعةُ بينَها؛ ثم في جملتِها من هو عارٍ من جميعِها، وموسومٌ بأضدادِها، يعني أنَّه لا تخلو الفرسُ من جاهلٍ بالسياسةِ، خالٍ من الأدبِ، داخلٍ في الرعاعِ والهمجِ، وكذلك العربُ لا تخلو من جبانٍ جاهلٍ طياشٍ بخيلٍ عييٍّ، وكذلك الهندُ والرومُ وغيرُهم.

فقد بانَ بهذا الكشفِ أنَّ الأممَ كلَّها تقاسَمت الفضائلَ والنقائصَ باضطرارِ الفطرةِ، واختيارِ الفكرةِ، ولم يكنْ بعدَ ذلك إلَّا ما يتنازعُه الناسُ بينَهم بالنسبةِ الترابيةِ، والعادة المنشئيةِ، والهوىٰ الغالبِ من النفسِ الغضبيةِ، والنزاعِ الهائجِ من القوةِ الشهويةِ.

وها هنا شيءٌ آخرُ، وهو أصلٌ كبيرٌ لا يجوزُ أن يخلوَ كلامُنا من الدلالةِ عليه والإيماءِ إليه، وهو أنَّ كلَّ أمةٍ لها زمانٌ علىٰ ضدِّها، وهذا بيِّنٌ مكشوفٌ إذا أرسلتَ وهمَك في دولةِ يونانَ والإسكندرَ، لمَّا غلَب وساسَ وملَك ورأَس وفتَق ورتَق ورسَم ودَبَّر وأمَر، وحثَّ وزجَر، ومحا وسطَّر، وفعَل وأخبَر؛ وكذلك إذا عطفتَ إلىٰ حديثِ كِسرَىٰ أنوشُروانَ وجدتَ هذه الأحوالَ بأعيانِها، وإن كانت في غُلْفٍ غيرِ غُلْفِ الأولِ، ومعارضَ غيرِ معارضَ المتقدِّمِ؛ ولهذا قال أبو مسلمٍ[1] - صاحبُ الدولةِ - حينَ قيل له: أيُّ الناسِ

(١) الخراساني: عبد الرحمن بن مسلم، الأمير صاحب الدولة العباسية والقائم بإنشائها، وهازم جيوش الدولة الأموية، ولد في سنة مائة، وأول ظهوره كان بمرو سنة تسع وعشرين ومائة، كان فصيحا بالعربية وبالفارسية، حلو المنطق، وكان راوية للشعر، عارفا بالأمور، قتله أبو جعفر المنصور سنة ١٣٧هـ وعمره سبعة وثلاثون عامًا.

وجدتَهم أشجعَ؟ فقال: كلُّ قومٍ في إقبالِ دولتِهم شجعانٌ. وقد صدَق؛ وعلىٰ هذا كلُّ أمةٍ في مبدأِ سعادتِها أفضلُ وأنجدُ وأشجعُ وأمجدُ وأسخَىٰ وأجودُ وأخطبُ وأنطقُ وأرأَىٰ وأصدقُ؛ وهذا الاعتبارُ ينساقُ من شيءٍ عامٍّ لجميعِ الأممِ، إلىٰ شيءٍ شاملٍ لأمةٍ أمةٍ إلىٰ شيءٍ حاوٍ لطائفةٍ طائفةٍ، إلىٰ شيءٍ غالبٍ علىٰ قبيلةٍ قبيلةٍ، إلىٰ شيءٍ معتادٍ في بيتٍ بيتٍ، إلىٰ شيءٍ خاصٍّ بشخصٍ شخصٍ وإنسانٍ إنسانٍ؛ وهذا التحولُ من أمةٍ إلىٰ أمةٍ، يشيرُ إلىٰ فيضِ جودِ اللهِ تعالىٰ علىٰ جميعِ بريتِه وخليقتِه بحسبِ استجابتِهم لقبولِه، واستعدادِهم علىٰ تطاولِ الدهرِ في نيلِ ذلك من فضلِه، ومن رقَىٰ إلىٰ هذه الربوةِ بعينٍ لا قذَىٰ بها، أبصَر الحقَّ عيانًا بلا مِريةٍ، وأخبَر عنه بلا فِريةٍ.

ومتىٰ صدَق نظرُك في مبادئِ الأحوالِ وأوائلِ الأمورِ، وضَح لك هذا كلُّه كالنهارِ إذا متَع، واستنار كالقمرِ إذا طلَع؛ ولم يبقَ حينئذٍ ريبٌ في عرفانِ الحقِّ وحصولِ الصوابِ، إلَّا ما يلتاثُ[1] بالهوَىٰ، ويسمجُ بالتعصبِ، ويَجْلِبُ اللجاجَ، ويخرجُ إلىٰ المَحَكِّ[2]؛ فهناكَ يطيحُ المعنىٰ ويضلُّ المرادُ، فإذا آثرتَ أن تعرفَ صحةَ هذا الحكمِ وصوابَ هذا الرأيِ، فاسمعْ ما أرويه: قال إسحاقُ بنُ إبراهيمَ الموصليُّ: انصرَف العباسُ بنُ مرداسٍ السلميُّ[3] من

---

(١) أي يلتف بعضه علىٰ بعض.

(٢) المحك: المنازعة في الكلام، والتمادي في اللجاج.

(٣) العباس بن مرداس بن أبي عامر السلمي، شاعر فارس، من سادات قومه، أمه الخنساء الشاعرة، أدرك الجاهلية والإسلام، وأسلم قبيل فتح مكة، وكان ممن ذم الخمر وحرمها في الجاهية، وكان من المؤلفة قلوبهم، وعندما قسم رسول الله ﷺ غنائم حنين فأعطىٰ أبا سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية، وعيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، كل إنسان منهم مئة من الإبل، وأعطىٰ عباس بن مرادس دون ذلك، قال عباس بن مرداس: =

مكةَ فقال: «يا بني سليم، إنِّي رأيتُ أمرًا، وسيكونُ خيرًا، رأيتُ بني عبدِ المطلبِ كأنَّ قدودَهم الرماحُ الرُّدَيْنِيَّةُ[١]، وكأنَّ وجوهَهم بدورُ الدِّجنَّةِ[٢]، وكأنَّ عمائمَهم فوقَ الرجالِ ألويةٌ، وكأنَّ منطقَهم مطرُ الوَبَلِ[٣] علىٰ المَحَلِّ؛ وإنَّ اللهَ إذا أرادَ ثمرًا غرَس له غرسًا، وإنَّ أولئِك غرْسُ اللهِ؛ فترقَّبوا ثمرتَه، وتوكَّفوا غيثَه، وتفيَّئوا ظلالَه، واستبشِروا بنعمةِ اللهِ عليكم به».

ولقد قرَع العباسُ بهذا الكلامِ بابَ الغيبِ، وشعَر بالمستورِ، وأحسَّ بالخافي، واطلَع عقلُه علىٰ المستترِ، واهتدَىٰ بلطفِ هاجسِه إلىٰ الأمرِ المزمعِ، والحادثِ المتوقَّعِ؛ وهذا شيءٌ فاشٍ في العربِ، لطولِ وحدتِها، وصفاءِ فكرتِها، وجودةِ بنيتِها، واعتدالِ هيئتِها، وصحةِ فطرتِها، وخلاءِ ذرعِها، واتقادِ طبعِها، وسعةِ لغتِها، وتصاريفِ كلامِها في أسمائِها وأفعالِها وحروفِها، وجولانِها في اشتقاقاتِها، ومآخذِها البديعةِ في استعاراتِها، وغرائبِ تصرفِها في اختصاراتِها، ولطفِ كناياتِها في مقابلةِ تصريحاتِها، وفنونِ تبحبحِها في أكنافِ مقاصدِها، وعجيبِ مقاربتِها في حركاتِ لفظِها؛ وهذا وأضعافُه مسلَّمٌ لهم، وموفَّرٌ عليهم، ومعروفٌ فيهم ومنسوبٌ إليهم، مع

=أتجعل نهبي ونهب العُبَيْد بين عيينة والأقرع
فما كان بدر ولا حابس يفوقان مرداس في المجمع
وما كنت دون امرىء منهما ومن تَخْفِضِ اليومَ لا يُرفع

فأتم له رسول الله ﷺ مئة. مات في خلافة عمر رضي الله عنه.

(١) نسبة لإمرأة من العرب تدعىٰ ردينة، كانت تقوم الرماح.

(٢) الدِجنَّة: هي الليالي شديدة الظلام والتي يكون البدر فيها أكثر إنارة.

(٣) الوَبَل: المطر الشديد الضخم القطر، و(تَوَكَّفُوا): انتظروا.

الشجاعةِ والنجدةِ والذمامِ والضيافةِ والفطنةِ والخطابةِ والحميَّةِ والأَنَفةِ والحفاظِ والوفاءِ، والبذلِ والسخاءِ، والتهالكِ في حبِّ الثناءِ، والنُكْلِ الشديدِ عن الذمِّ والهجاءِ؛ إلىٰ غيرِ ذلك ممَّا خُصَّتْ به في جاهليتِها قبلَ الإسلامِ، ممَّا لا سبيلَ إلىٰ دفعِه وجحودِه، والبُهتِ فيه، والمكابرةِ عليه؛ وقد سمِعنا لغاتٍ كثيرةً - وإن لم نستوعبْها - من جميعِ الأممِ، كلغةِ أصحابِنا العجمِ والرومِ والهندِ والتركِ وخوارزمَ وصقلابٍ وأندلسٍ والزنجِ، فما وجدْنا لشيءٍ من هذه اللغاتِ نصوعَ العربيةِ، أعني الفُرَجَ التي في كلماتِها، والفضاءَ الذي نجدُه بينَ حروفِها، والمسافةَ التي بينَ مخارجِها، والمعادلةَ التي نذوقُها في أمثلتِها، والمساواةَ التي لا تجحدُ في أبنيتِها؛ وإذا شئتَ أن تعرفَ حقيقةَ هذا القولِ، وصحةَ هذا الحكمِ، فالْحَظْ عرضَ اللغاتِ الذي هو بينَ أشدِّها تلابسًا وتداخلًا، وترادفًا وتعاظلًا[1] وتعسرًا وتعوصًا، وإلىٰ ما بعدَها ممَّا هو أسلسُ حروفًا، وأرقُ لفظًا، وأخفُّ اسمًا؛ وألطفُ أوزانًا، وأحضرُ عيانًا؛ وأحلَىٰ مخرجًا، وأجلَىٰ منهجًا، وأعلَىٰ مدرجًا؛ وأعدلُ عدلًا، وأوضحُ فضلًا، وأصحُّ وصلًا، إلىٰ أن تنزلَ إلىٰ لغةٍ بعد لغةٍ، ثم تنتهي إلىٰ العربيةِ، فإنَّك تحكمُ بأنَّ المبدأَ الذي أشرْنا إليه في العوائصِ والإغماضِ، سرَىٰ قليلًا قليلًا حتىٰ وقَف علىٰ العربيةِ في الإفصاحِ والإيماضِ[2].

وهذا شيءٌ يجدُه كلُّ مَن كان صحيحَ البنيةِ، بريئًا من الآفةِ، متنزهًا عن الهوَىٰ والعصبيةِ، محبًّا للإنصافِ في الخصومةِ، متحريًا للحقِّ في الحكومةِ، غيرَ مسترقٍ بالتقليدِ، ولا مخدوعٍ بالإلفِ، ولا مسخَّرٍ بالعادةِ، وإنِّي لأعجبُ

---

(١) التَّعاظُل: هو دخولُ الشيء بعضِه في بعض.

(٢) الإفصاح: الواضح، والإيماض: اللامع، والعوائص: الصعبة.

كثيرًا ممَّن يرجعُ إلىٰ فضلٍ واسعٍ، وعلمٍ جامعٍ؛ وعقلٍ سديدٍ، وأدبٍ كثيرٍ، إذا أَبَىٰ هذا الذي وصفتُه، وأنكَر ما ذكرتُه؛ وأعجبُ أيضًا فضلَ عجبٍ من الجيهانيِّ[١] في كتابِه وهو يسبُّ العربَ، ويتناولُ أعراضَها ويحطُّ من أقدارِها، ويقولُ: «يأكلونَ اليرابيعَ والضبابَ والجرذانَ والحياتِ، ويتغاورونَ ويتساورونَ[٢]، ويتهاجوْنَ ويتفاحشونَ، وكأنَّهم قد سُلِخوا من فضائلِ البشرِ، ولبِسوا أُهُبَ الخنازيرِ، ولهذا كان كسرىٰ يسمِّي مَلِكَ العربِ: سكان شاه، أي ملكُ الكلابِ، قال: وهذا لشدةِ شبهِهم بالكلابِ وجِرَائِها، والذئابِ وأَطْلائِها[٣]». وكلامًا كثيرًا من هذا الصوبِ، أرفعُ قدرَه عن مثلِه، وإن كان يضعُ من نفسِه بفضلِ قولِه، أتُراه لا يعلمُ لو نزَل ذلك القفرَ وتلك الجزيرةَ وذلك المكانَ الخاويَ، وتلك الفيافيَ كلُّ كسرىٰ كان في الفرسِ، وكلُّ قيصرَ كان في الرومِ، وكلُّ بَلْهَوَرٍ كان بالهندِ، وكلُّ بَغْفُورٍ كان بخراسانَ، وكلُّ خاقانٍ كان بالتركِ، وكلُّ أخشادٍ كان بفرغانةَ[٤] ما كانوا يَعْدُون هذه الأحوالَ، لأنَّ مَن جاع أكلَ ما وجَد، وطعِم ما لحَق، وشرِب ما قدَر عليه، حبًّا للحياةِ، وطلبًا للبقاءِ، وجزعًا من الموتِ، وهربًا من الفناءِ.

أترىٰ أنوشروانَ إذا وقَع إلىٰ فيافي بني أسدٍ، وبَرِّ وَبَارٍ، وسفوحِ طيبةَ،

---

(١) هو محمد بن أحمد، كان وزيرًا للسامانيين، كان أديبًا فاضلًا، قال عنه ابن النديم: إنه من رؤساء المتكلمين الذي يظهرون الإسلام ويبطنون الزندقة.

(٢) يتغاورون: أي يغير بعضهم علىٰ بعض، ويتساورون: يبطش بعضهم ببعض.

(٣) الجراء: جمع جرو وهو ولد الكلب، والطلاء: جمع طَلَيٍ وهو ولد الذئب.

(٤) مدينة واسعة تقع وراء النهر متاخمة لتكستان، وبها لقب صاحب مصر والشام الإخشيدي لأن أصله من هناك.

ورملِ يَبْرِينَ، وساحةِ هَبِير[١]، وجاع وعطِش وعري، أما كان يأكلُ اليربوعَ والجرذانَ؛ وما كان يشربُ بولَ الجملِ وماءَ البئرِ، وما أَسَنَ في تلك الوَهْدَاتِ[٢]؟ أو ما كان يلبسُ البرجدَ والخميصةَ والسملَ من الثيابِ وما هو دونَه وأخشنَ؟ بلىٰ واللهِ، ويأكلُ حشراتِ الأرضِ ونباتَ الجبالِ، وكلَّ ما حمضَ ومرَّ وخبثَ وضرَّ.

هذا جهلٌ من قائلِه، وحيفٌ من منتحلِه. علىٰ أنَّ العربَ - رحمِك اللهُ - أحسنُ الناسِ حالًا وعيشًا إذا جادتْهم السماءُ، وصدقتْهم الأنواءُ؛ وازدانَتْ الأرضُ، فهدلت الثمارُ، واطَّردت الأوديةُ، وكثُر اللبنُ والأقطُ والجبنُ واللحمُ والرطبُ والتمرُ والقمحُ، وقامت لهم الأسواقُ، وطابت المرابعُ، وفشا الخصبُ، وتوالىٰ النِّتَاجُ، واتصلت المِيرَةُ، وصدَق المصابُ، وأرفَغ[٣] المنتجعُ، وتلاقت القبائلُ علىٰ المحاضرِ، وتقاولوا وتضايفوا، وتعاقدوا وتعاهدوا، وتزاوروا وتناشدوا؛ وعقدوا الذمَمَ، ونطقوا بالحِكَمِ؛ وقَرُوا الطُرَّاقَ، ووصلوا العفاةَ، وزودوا السابلةَ، وأرشدوا الضلالَ، وقاموا بالحمالاتِ، وفكُّوا الأسرَىٰ، وتداعَوا الجَفَلَىٰ، وتعافَوا النَقْرَىٰ[٤]، وتنافسوا في أفعالِ المعروفِ؛ هذا وهم في مساقطِ رءوسِهم، بينَ جبالِهم

---

(١) أسماء لمواضع صحراوية قاحلة بنجد واليمن والحجاز.

(٢) الوهدات: جمع وهدة، وهي الأرض المنخفضة.

(٣) أرفغ أي توسع.

(٤) النَقْرَىٰ: الطعام الذي يحضره الخاصة، والجَفَلَىٰ: الطعام الذي يحضره العامة، ومثل هذه العبارة قول الشاعر:

نَحْنُ فِي المَشْتَاةِ نَدْعُوا الجَفَلَىٰ لَا تَرَىٰ الآدِبَ فِينَا يَنْتَقِر

ورمالِهم، ومناشئِ آبائِهم وأجدادِهم، ومواليدِ أهلِهم وأولادِهم، علىٰ جاهليتِهم الأولَىٰ والثانيةِ.

وقد رأيتَ حينَ هبَّت ريحُهم، وأشرَقت دولتُهم بالدعوةِ، وانتشَرت دعوتُهم بالملَّةِ، وعزَّت ملتُهم بالنبوةِ، وغلَبت نبوتُهم بالشريعةِ، ورسَخت شريعتُهم بالخلافةِ، ونضَرت خلافتُهم بالسياسةِ الدينيةِ والدنيويةِ، كيف تحوَّلت جميعُ محاسنِ الأممِ إليهم، وكيف وقَعت فضائلُ الأجيالِ عليهم، من غيرِ أن طلَبوها وكدَحوا في حيازتِها أو تعِبوا في نيلِها، بل جاءتْهم هذه المناقبُ والمفاخرُ وهذه النوادرُ من المآثرِ عفوًا، وقطَنت بينَ أطنابِ بيوتِهم سَهْوًا رَهْوًا؛ وهكذا يكونُ كلُّ شيءٍ تولَّاه اللهُ بتوفيقِه، وساقَه إلىٰ أهلِه بتأييدِه، وحُلِّيَ مستحقِّيه باختيارِه؛ ولا غالبَ لأمرِ اللهِ، ولا مبدلَ لحكمِ اللهِ، ولذلك قال اللهُ تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾. وللهِ في خلقِه أسرارٌ، تتصرفُ بها دوائرُ الليلِ والنهارِ، وتذللُها مجاري الأقدارِ، حتىٰ ينتهِي بمحبوبِها ومكروهِها إلىٰ القرارِ، عزَّ إلهًا معبودًا، وجلَّ ربًّا محمودًا مقصودًا.

والذي لاشكَّ فيه من وصفِ العربِ، ولا جاحدُ له من حالِها، أنَّه ليس علىٰ وجهِ الأرضِ جيلٌ من الناسِ ينزِلون القفرَ، وينتجِعون السحابَ والقطرَ؛ ويعالِجون الإبلَ والخيلَ والغنمَ وغيرَها، ويستبدُّون في مصالِحهم بكلِّ ما عزَّ وهانَ، وبكلِّ ما قلَّ وكثُر، وبكلِّ ما سهُل وعسُر؛ ويرجون الخيرَ من السماءِ في صوبِها، ومن الأرضِ في نباتِها؛ مع مراعاةِ الأوانِ بعدَ الأوانِ، وثقةٍ

بالحالِ بعد الحالِ، وتبصرةٍ فيما يُفعلُ ويُجتنبُ؛ ما للعربِ فيما قدَّمنا وصفَه، وكرَّرنا شرحَه، من علمِهم بالخصبِ والجدبِ، واللينِ والقسوةِ، والحَرِّ والبردِ، والرياحِ المختلفةِ والسحائبِ الكاذبةِ، والمخايلِ الصادقةِ، والأنواءِ المحمودةِ والمذمومِ، والأسبابِ الغريبةِ العجيبةِ، وهذا لأنَّهم معَ توحشِهم مستأنِسون، وفي بواديهم حاضرون، فقد اجتمَع لهم من عاداتِ الحاضرةِ أحسنُ العاداتِ، ومن أخلاقِ البادية أطهرُ الأخلاقِ.

وهذا المعنَىٰ علىٰ هذا النظمِ قد عدمَه أصحابُ المدنِ وأربابُ الحضرِ، لأنَّ الدناءةَ والرقةَ والكيسَ والهينَ والخلابةَ والخداعَ والحيلةَ والمكرَ والخبَّ: تغلبُ علىٰ هؤلاءِ وتملكُهم، لأنَّ مدارَ أمرِهم علىٰ المعاملاتِ السيئةِ، والكذبِ في الحسِّ، والخُلفِ في الوعدِ، والعربُ قد قدَّسها اللهُ عن هذا البابِ بأسرِه، وجبَلها علىٰ أشرفِ الأخلاقِ بقدرتِه؛ ولهذا تجدُ أحدَهم وهو في بيتٍ حافيًا حاسرًا يذكرُ الكرمَ، ويفتخرُ بالمحمدةِ، وينتحلُ النجدةَ، ويحتملُ الكَلَّ، ويضحكُ في وجهِ الضيفِ، ويستقبلُه بالبِشرِ، ويقولُ: (أُحَدِّثُهُ إِنَّ الحَدِيثَ مِنَ القِرَىٰ[1])، ثم لا يقنعُ ببثِّ العرفِ وفعلِ الخيرِ والصبرِ علىٰ النوائبِ، حتىٰ يحضَّ الصغيرَ والكبيرَ علىٰ ذلك ويدعو إليه، ويستنهضَه نحوَه، ويكلِّفَه مجهودَه وعفوَه. وقد قيل لرجلٍ منهم في يومٍ شاتٍ وهو يمشي في سملٍ[2]: أما تجدُ البردَ يا أخا العربِ؟ فقال: أمشي الخَيْزَلَىٰ[3] ويُدفِئُني حَسَبي.

---

(١) هذا المقطع صدر بيت لمسكين الدارمي، وعجزه: . . . وتعرفُ نفسي أنّه سوف يَهجعُ

(٢) ثياب خلِقَة بالية.

(٣) مشية فيها تثاقل وانفكاك

والفارسيُّ لا يحسنُ هذا النمطَ، ولا يذوقُ هذا المعنَىٰ، ولا يحلمُ بهذه اللطيفةِ؛ وكذلك الروميُّ والهنديُّ وغيرُهما من جميعِ العجمِ.

هذا حديثُهم، وهم هملٌ لا عزَّ لهم إلَّا بالسؤددِ، ولا معقلَ لهم إلَّا السيفُ، ولا حصونَ إلَّا الخيلَ، ولا فخرَ إلَّا بالبلاغةِ، ثم لمَّا ملَكوا الدورَ والقصورَ والجنانَ والأوديةَ والأنهارَ والمعادنَ والقلاعَ والمدنَ والبلدانَ والسهلَ والجبلَ والبرَّ والبحرَ، لم يقعدوا عن شأوِ مَن تقدَّم بآلافِ سنينَ، ولم يعجَزوا عن شيءٍ كان لهم؛ بل أبرُّوا عليهم وزادوا، وأغربوا وأفادوا؛ وهذا الحكمُ ظاهرٌ معروفٌ، وحاضرٌ مكشوفٌ؛ ليس إلىٰ مردِّه سبيلٌ، ولا لجاحدِه ومنكرِه دليلٌ.

فليستحي الجيهانيُّ بعدَ هذا البيانِ والكشفِ والإيضاحِ، بالإنصافِ من القذعِ والسفهِ اللذينِ حشا بهما كتابَه، وليرفعْ نفسَه عمَّا يَشينُ العقلَ، ولا تقبلُه حُكَّامُ العدلِ، وصاحبُ العلمِ الرصينِ والأدبِ المكينِ لا يسلطُ خصمَه علىٰ عِرضِه بلسانِه، ولا يستدعي مُرَّ الجوابِ بتعرضِه، ويرضَىٰ بالميسورِ في غالبِ أمرِه؛ فإنَّ العصبيةَ في الحقِّ ربَّما خذَلت صاحبَها وأسلمتْه؛ وأبدَت عورتَه، واجتلَبت مساءتَه؛ فكيف إذا كانت في الباطلِ، ونعوذُ باللهِ أن نكونَ لفضلِ أمةٍ من الأممِ جاحدينَ، كما نعوذُ به أن نكونَ بنقصِ أمةٍ من الأممِ جاهلينَ، فإنَّ جاحدَ الحقِّ يدلُّ من نفسِه علىٰ مهانةٍ، وجاهلُ النقصِ يدلُّ من نفسِه علىٰ قصورٍ، فهذا هذا.

وفي الجملةِ المسلَّمةِ، والدعوةِ المرسَلةِ، أنَّ أهلَ البرِّ وأصحابَ الصحارىٰ الذين وطاؤُهم الأرضُ، وغطاؤُهم السماءُ، هم في العددِ أكثرُ،

وعلىٰ بسيطِ الأرضِ أجولُ، ومن الترفُّهِ والرفاهيةِ أبعدُ، وبالحولِ والقوةِ أعلقُ، وإلىٰ الفكرةِ والفطنةِ أفزعُ، وعلىٰ المصالحِ والمنافعِ أوقعُ، ومن المخازي آنفُ، وللقبائحِ أعيفُ؛ وهذا للدواعي الظاهرةِ، والحاجاتِ الضروريةِ، والعلائقِ الحاضَّةِ علىٰ الأُلفةِ والمودةِ، والشدائدِ المؤدِّبَةِ، والعوارضِ اللازبةِ؛ ولهذا يقالُ: عيبُ الغِنَىٰ أنَّه يورثُ البلادةَ، وفضيلةُ الفقرِ أنَّه يبعثُ الحيلةَ. وهذا معنًىٰ كريمٌ، لا يقرُّ به إلَّا كلُّ نَقَّابٍ عليمٍ.

وقال الجيهانيُّ أيضًا: «ممَّا يدلُّ علىٰ شرفِنا وتقدمِنا وعزِّنا وعلوِّ مكانِنا، أنَّ اللهَ أفاضَ علينا النعمَ ووسَّع لدينا القِسَمَ، وبوَّأنا الجِنانَ والأريافَ، ونعَّمَنا وأترفَنا، ولم يفعلْ هذا بالعربِ، بل أشقاهم وعذَّبَهم، وضيَّقَ عليهم وحرَمهم، وجمَعهم في جزيرةٍ حرجةٍ، ورقعةٍ صغيرةٍ، وسقاهم بأرنقٍ[1] ضاحٍ؛ وبهذا يُعْلمُ أنَّ المخصوصَ بالنعمةِ والمقصودَ بالكرامةِ فوقَ المقصودِ بالإهانةِ». فأطال هذا البابَ بما ظنَّ أنَّه قد ظفِر بشيءٍ لا جوابَ عنه، ولا مقابلَ له؛ ولو كان الأمرُ كما قال لمَا خفيَ علىٰ غيرِه وتجلَّىٰ له، بل قد خُصَّت العربُ بعدَ هذا بأشياءَ تطولُ حسرةُ من فاتَته عليها، ولا يفيدُ التفاتُه بالغيظِ إليها؛ وقد دلَّ كلامُه علىٰ أنَّه جاهلٌ بالنعمةِ، غافلٌ عمَّا هو سرُّ الحكمةِ، وعندَه أنَّ الجاهلَ إذا لبِس الثوبَ الناعمَ، وأكَل الخبزَ الحُوَارِيَّ[2]، وركِب الجوادَ، وتقلَّب علىٰ الحَشِيَّةِ، وشرِب الرحيقَ، وباشرَ الحسناءَ، هو أشرفُ من العالمِ إذا لبِس الأطمارَ، وطعِم العشبَ،

---

(١) الرَّنَق: الكدر، و(ضاح): المتعرض للشمس.

(٢) لباب الدقيق وخالصه.

وشرِب الماءَ القَرَاحَ، وتوسَد الأرضَ، وقنَع باليسيرِ من رَخِيِّ العيشِ، وسلا عن الفضولِ؛ هذا خطأٌ من الرأيِ، ومردودٌ من الحكمِ، عند اللهِ تعالىٰ أولًا، ثم عندَ جميعِ أهلِ الفضلِ والحِجَا، وأصحابِ التُّقىٰ والنُّهىٰ؛ وعلىٰ طريقتِه أيضًا أنَّ البصيرَ أشرفُ من الأعمىٰ، والغنيَّ أفضلُ من الفقيرِ.

ألا يعلمُ أنَّ المدارَ علىٰ العقلِ الذي مَن حُرِمه فقد أنقصَ من كلِّ فقيرٍ، وعلىٰ الدِّينِ الذي مَن عريَ منه فهو أسوأُ حالًا من كلِّ مُوسرٍ، ونعمةُ اللهِ علىٰ ضربينِ: أحدُ الضربينِ عَمَّ به عبادَه، وغمَر بفضلِه خليقتَه، بدءًا بلا استحقاقٍ، وذلك أنَّه خلَق ورزَق وكفَل وحفِظ ونعَش وكلأَ وحرَس وأمهَل وأفضَل ووهَب وأجزَل؛ وهذا هو العدلُ المخلوطُ بالإحسانِ، والتسويةُ المعمومةُ بالتفضلِ، والقدرةُ المشتملةُ علىٰ الحكمةِ.

والضربُ الثاني هو الذي يُستحَقُّ بالعملِ والاجتهادِ والسعيِ والارتيادِ، والاختبارِ والاعتقادِ؛ ليكونَ جزاءً وثوابًا، ولهذا حرَم العاصيَ المخالفَ، وأنالَ الطائعَ الموافقَ. فقد بانَ الآنَ أنَّ المدارَ ليس بالجنانِ والترفُّهِ، ولا بالذهبِ والفضةِ، ولا الوبرِ والمَدَرِ.

وقد مرَّ هذا الكلامُ كلُّه فليسكنْ من الجيهانيِّ جأشُه، وليفارقْه طيشُه؛ وليعلمْ أن مَن أنصَف أعطَىٰ بيدِه، وسلَّم الفضلَ لأهلِه؛ فإنَّ التواضعَ للحقِّ رفعةٌ، والترفعَ بالباطلِ ضَعةٌ.

وهاهنا بقيةٌ ينبغِي أن يُتبصرَ فيها؛ من عرَف النقصَ البحتَ، والنقصَ المشوبَ بالزيادةِ؛ والفضلَ الصِّرْفَ، والفضلَ الممزوجَ بالنقيصةِ، لم يجحدْ المُغْوِي فضلًا، ولم يدعْ للعصبيةِ المُرديةِ شرفًا، ولم ينكر الحسدُ مزيةً؛

والخلقُ كلُّهم في نعمِ اللهِ تعالىٰ مشتركونَ، وفي أياديهِ مغموسونَ، وبمواهبِه متفاضِلون، وعلىٰ قدرتِه متصرِّفونَ؛ وإلىٰ مشيئتِه صائرونَ، وعن حكمتِه مخبِرونَ، ولآلائِه ذاكرونَ، ولنعمائِه شاكرونَ، ولأياديهِ ناشرونَ، وعلىٰ اختلافِ قضائِه صابرونَ، ولثوابِه بالحسناتِ مستحقُّونَ، ولعقابِه بالسيئاتِ مستوجِبونَ، ولعفوِه برحمتِه منتظرونَ، واللهُ خبيرٌ بما يعملونَ، وبصيرٌ بما يسِرُّونَ وما يعلِنونَ.

والعربُ أذهبُ مع صفوِ العقلِ؛ ولذلك هم بذكرِ المحاسنِ أبدَه، وعن أضدادِها أنزهُ، ولو كانت رويَّتُهم في وزنِ بديهتِهم، كان الكمالَ؛ ولكنْ لمَّا عزَّ الكمالُ فيهم، عزَّ أيضًا في غيرِهم من الأممِ، فالأممُ كلُّها شرعٌ واحدٌ في عدمِ الكمالِ إلَّا أنَّهم متفاضِلون بعدَ هذا فيما نالُوه بالخِلقةِ الأولَىٰ، وبالاختيارِ الثاني؛ واختلَفت أبصارُهم في هذا الموضعِ، فأمَّا ما مُنِعه الإنسانُ في الأولِ فلا عتَبَ عليه فيه، لأنَّه لا يقالُ للأعمَىٰ: لِمَ لا تكونُ بصيرًا، ولا يقالُ للطويلِ: لِمَ لا تكونُ قصيرًا، وقد يقالُ للقصيرِ: سدِّدْ طرفَك، وأكحلْ عينَك، ومدَّ ناظرَك؛ كما يقالُ للطويلِ: تطامنْ في هذا الزقاقِ حتىٰ تدخلَ، وتقاصرْ حتىٰ تصلَ؛ وأمَّا ما لم يُمنَعْه الإنسانُ في الأولِ، بل أُعطيَه ووُهِب له، فهو فيه مطَّلَبٌ بما عليه وله كما أنه مطالَبٌ بما له وعليه.

وقال الجيهانيُّ أيضًا: «ليس للعربِ كتابُ إقليدس ولا المِجِسْطِيّ[1] ولا

(١) إقليدس (٣٢٥ - ٢٦٥ ق. م) هو رياضي يوناني عاش في مدينة الاسكندرية، ويعتبر أبو الهندسة، وقد كانت أعماله تشكل أهمية كبيرة في تاريخ الرياضيات، وبقيت هندسة=

الموسيقَىٰ ولا كتابُ الفلاحةِ، ولا الطبِّ ولا العلاجِ، ولا ما يجري في مصالحِ الأبدانِ، ويدخلُ في خواصِّ الأنفسِ». فليعلم الجيهانيُّ أنَّ هذا كلَّه للعربِ بنوعٍ إلهيٍّ لا بنوعٍ بشريٍّ، كما أنَّ هذا كلَّه لغيرِهم بنوعٍ بَشَرِيٍّ لا بنوعٍ إلهيٍّ، وأعني بالإلهيِّ والبشريِّ: الطباعيَّ والصناعيَّ؛ علىٰ أنَّ إلهيَّ هؤلاءِ قد مازجَه بشريُّ هؤلاءِ، وبشريَّ هؤلاءِ قد شابَه إلهيُّ هؤلاءِ؛ ولو علِم هذا الزاريُّ لعلِم أن المجسطي وما ذكَره ليس للفرسِ أيضًا، وما عندي أنَّه مكابِرٌ فيدعِي هذا لهم، فإن قال: «هو لليونانِ، ويونانُ من العجمِ، والفرسُ من العجمِ، وأنا أخرِجُ هذه الفضيلةَ من العجمِ إلىٰ العجمِ»، فهذا منه حيفٌ علىٰ نفسِه، وشهادةٌ علىٰ نقصِه؛ لأنَّه لو فاخَر يونانَ لم يستطعْ أن يدعيَ هذا الفرسُ، ولا يمكنُه أن يقولَ: نحنُ أيضًا عجمٌ، وفضيلتُكم في هذه الكتبِ والصناعةِ متصلةٌ بنا، وراجعةٌ إلينا، ومتىٰ قال جُبِهَ بالمكروه، وقوبل بالقَذْعِ، وقيل له صِهْ -كما يقالُ للجاهلِ- إن لم تقلْ له اخسأْ؛ ومَن حابَىٰ خصمَه غلِب.

قال القاضي أبو حامدٍ المروروذيُّ: لو كانت الفضائلُ كلُّها بعِقْدِها

= إقليدس تدرس كما هي حتىٰ القرن التاسع عشر حيث اكتشفت الهندسة اللا إقليديسية.
أما المِجِسْطِي: فهو كتاب في الفلك والرياضيات، ألفه العالم الإغريقي بطليموس عام ١٤٨م في الإسكندرية، ويعتقد أنه أقدم كتاب معروف في الفلك ، تُرجم للعربية في عهد الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، ومن الترجمة العربية نُقل إلىٰ اللغة اللاتينية ثم إلىٰ بقية اللغات الأوربية، لذا فإن اسم الكتاب العربي هو المستخدم في التراجم حيث يسمىٰ الكتاب (ALMAGEST) من كلمة المجسطي العربية والذي يبدو أنه حرف من الاسم اليوناني (EMEGAL MATHEMATIKE) وتعني الكتاب الأعظم في الحساب، والكتاب عبارة عن دائرة معارف في علم الفلك والرياضيات، وقد أفاد منه علماء المسلمين وصححوا بعض معلوماته وأضافوا إليه.

وَسِمْطِهَا[١]، ونظمِها ونثرِها، مجموعةً للفرسِ، ومصبوبةً على أرؤسِهم، ومعلقةً بآذانِهم، وطالعةً من جباهِهم؛ لكان لا ينبغي أن يذكروا شأنَها، وأن يخرسوا عن دِقِّها وجِلِّها، مع نكحِهم الأمهاتِ والأخواتِ والبناتِ، فإنَّ هذا شرٌّ كريهٌ بالطباعِ، وضعيفٌ بالسماعِ، ومردودٌ عندَ كلِّ ذي فطرةٍ سليمةٍ، ومستبشعٌ في نفسِ كلِّ مَن له جبلةٌ معتدلةٌ.

ومن تمامِ طغيانِهم، وشدةِ بهتانِهم، أنَّهم زعموا أنَّ هذا بإذنٍ من اللهِ تعالىٰ، وبشريعةٍ أتت من عندِ اللهِ، واللهُ تعالىٰ حرَّم الخبائثَ من المطعوماتِ، فكيف حلَّل الخبائثَ من المنكوحاتِ؟ وكذَب القومُ، لم يكن زَرَادِشْت[٢] نبيًّا، ولو كان نبيًّا لذكَره اللهُ تعالىٰ في عرضِ الأنبياءِ الذين نوَّه بأسمائِهم وردَّد ذكرَهم في كتابِه، ولذلك قال النبيُّ ﷺ: «**سنُّوا بهم سنةَ أهلِ الكتابِ**». لأنَّه لا كتابَ لهم من عندِ اللهِ منزلٌ علىٰ مبلِّغٍ عنه، وإنَّما هو خرافةٌ خدَعهم بها زَرَادشْتُ بقوةِ المُلكِ الذي قَبِلَ ذلك منه وحمَل الناسَ عليه طوعًا وكرهًا، وترغيبًا وترهيبًا؛ وكيف يبعثُ اللهُ نبيًّا يدعو إلىٰ إلهينِ اثنينِ؟ وهذا مستحيلٌ بالعقلِ، وما خلَق اللهُ العقلَ إلَّا ليشهدَ بالحقِّ للمُحِقِّ والباطلِ للمبطلِ؛ ولو كان شرعًا لكان ذلك شائعًا عندَ أهلِ الكتابينِ، أعني اليهودَ والنصارَىٰ؛ وكذلك عندَ الصابئينَ، وهم كانوا أكثرَ الناسِ عنايةً بالأديانِ والبحثِ عنها، والتوصلِ إلىٰ معرفةِ حقائقِها، ليكونوا من دينِهم علىٰ ثقةٍ؛

---

(١) السِمْط: هوالخيط الواحد المنْظومُ.

(٢) زرادشت بن يورشب، فارسي الأصل، ولد في القرن السابع قبل الميلاد، كان طبيبًا وفيلسوفًا، ثم لما مرض حصان الملك وعالجه، كافأه الملك بأن أذاع نبوته - التي ادعاها - ونشر عقيدته، وتتضمن عقيدته أن للعالم إلهين، إله النور خالق كل خير، وإله الظلمة خالق كل شر، وأن النار مقدسة، وأباح الزواج بالبنات والأخوات.

فكيف صارت النصارَىٰ تعرفُ عيسىٰ، واليهودُ تعرفُ موسىٰ؛ ومحمدٌ ﷺ يذكرُهما ويذكرُ غيرَهما، كداودَ وسليمانَ ويحيىٰ وزكريَّا وغيرِ هؤلاءِ، ولا يُذكرُ زَرَادشْتَ بالنبوةِ وأنَّه جاء من عندِ اللهِ تعالىٰ بالصدقِ والحقِّ كما جاء موسىٰ وعيسىٰ، وهذا بيانٌ نافعٌ في كذبِهم؛ وإنَّما جاءوا إلىٰ وَهْيٍ فرقَّعوه، وإلىٰ حرامٍ بالعقلِ فأباحوه، وإلىٰ خبيثٍ بالطبعِ فارتكبوه، وإلىٰ قبيحٍ في العادةِ فاستحسَنوه، وقد وجدْنا في البهائمِ ما إذا أُنزِيَ الفحلُ منها علىٰ أمهِ لم يطاوِعْ، وإذا أُكرِه وخُدِع وعرَف، غضِب علىٰ أهلِه ونَدَّ عنهم، وشرَد عليهم؛ فما تقولُ في خُلِقٍ لا ترضاه البهيمةُ، ولا تطاوعُه فيه الطبيعةُ، بل يأباهُ حسُّه مع كلولِه، وتبرُّدِ شهوتِه مع اشتعالِها، ويرضاه هؤلاءِ القومُ مع عجبِهم بعقولِهم، وكبرِهم في أنفسِهم.

ولو كان زَرَادشتُ أقام لهم علىٰ هذه الخصلةِ اللئيمةِ والفعلةِ الذميمةِ كلَّ آيةٍ وكلَّ برهانٍ، ونثَر عليهم نجومَ السماءِ، وأطلَع لهم الشمسَ من المغربِ، وفتَّت لهم الجبالَ، وغيَّض لهم البحارَ، وأراهم الثريَّا تمشي علىٰ الأرضِ تخترقُ السككَ وتشهدُ له بالصدقِ، لكان من الواجبِ بالعقلِ وبالغَيْرَةِ وبالحميةِ وبالأنفةِ وبالتقززِ وبالتعززِ ألَّا يجيبوه إلىٰ ذلك، ويَشُكُّوا في كلِّ آيةٍ يرونَ منه، ويقتلوه، وينكِّلوا به، ولكن بمثلِ هذا العقلِ قبِلوا من مَزْدَك[1] ما

---

(١) ظهر في أواخر القرن الخامس للميلاد، في عهد الملك قباذ بن فيروز، وزاد علىٰ تعاليم زرادشت أن جعل الناس شركاء في النساء وأموال، وانتشرت دعوته حتىٰ عم بلاها وطم أكثر المدن والبلدان آنذاك، إلا أن ابن الملك أنوشروان بن قباذ لم يدخل في دينه ورفضه وحاربه، ولما آل الملك إليه؛ أمر بمزدك فقتل وصلب، ثم أمر بقتل جميع الزنادقة ممن هم علىٰ دينه وقوله ، فقتل ما بين بغداد والنهروان في ليلة واحدة مئة الف زنديق، وسمي ذلك اليوم الذي تطهرت به الأرض منهم (يوم أنوشروان).

قبِلوه مرةً، ولو عامَلوا زَرَادشْتَ بما عاملوا به مزدكَ ما كان الأمرُ إلَّا واحدًا، ولا كان الحقُّ إلَّا منصورًا، ولا كان الباطلُ إلَّا مقهورًا، ولكن اتُّفِقَ علىٰ مزدكٍ ملكٌ عاقلٌ فوضَع باطلَه، واتفَق لزَرَادشْت ملكٌ ركيكٌ فرفَع باطلَه؛ وما نزَع اللهُ عنهم الملكَ إلَّا بالحقِّ، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾، فكلُّ شيءٍ خارجٍ من الحكمةِ الإلهيةِ والعقليةِ والطبيعيةِ فهو ساقطٌ بَهْرَجٌ، ومردودٌ مرذولٌ، إذا فعَله جاهلٌ عُذِر بالجهلِ، وإذا أتَاه عالمٌ عُذِل للعلمِ.

وكانت العربُ بهذا الخلقِ الذميمِ، وهذا الفعلِ اللئيمِ، لو فعَلته أعذرَ، لأنَّهم أشدُّ غِلْمَةً من غيرِهم وأكثرُ تهيجًا، وأقوَىٰ علىٰ البِضاعِ، وأوثبُ علىٰ النساءِ، يدلُّك علىٰ هذا غزلُهم وعشقُهم ونظمُهم ونثرُهم وفراغُهم وشهوتُهم، وتراهم مع هذه الدواعي والبواعثِ لم يستحسِنوا هذا ولم يفعَلوه، ولو أكرَههم علىٰ هذا مُكرِهٌ ودعاهم إليه داعٍ لما أطاعوه، ولذلك لم يَنجُمْ منهم ناجمٌ بالحيلةِ فدعا إلىٰ هذا، ولو كان؛ لكان أولَ مَن دُقَّ رأسُهُ بالعُمُدِ، وبُعِج بطنُه بالخنجرِ، وما منَعهم من هذا إلَّا الأنفسُ الكريمةُ، والطباعُ المعتدلةُ، والشكائمُ الشديدةُ، والأرواحُ العيفة، والعاداتُ الرضيةُ، والضرائبُ الطيبةُ؛ وكان وأدُ البناتِ عندَهم أنفَىٰ للمعايرِ، وأطردَ للقبائحِ من هذا الذي استحسَنه زَرَادشْتُ وقبِل منه الفرسُ، وهم يدَّعون الحِكَمَ والعلمَ والحزمَ والعزمَ، ولفرطِ جهلِهم وغلبةِ شهوتِهم غفَلوا عمَّا يجوزُ أن يكونَ اللهُ سبحانَه مبيحًا له أو حاظرًا، أو مطلقًا أو مانعًا، أو محللًا أو محرمًا؛ هيهاتَ ما كلَّف اللهُ أهلَ العقلِ القيامَ بالدينِ والتصفحِ للحقِّ من الباطلِ إلَّا لمَّا شرَّفهم به في

العاجلِ، وعرضَهم له في الآجلِ؛ والعاقبةُ للمتقينَ.

وانظرْ إلىٰ جهلِ زَرَادشْت في هذا الحكمِ وإلىٰ ضعفِ عقولِ الفرسِ في قبولِهم منه هذا الفعلَ، وخَيِّرْ بينَها وبينَ عقولِ العربِ، فإنَّهم قالوا: اغتربوا لا تَضْوُوا، واستفاضَ هذا منهم حتىٰ سُمِع من صاحبِ الشريعةِ ﷺ، وذلك أن الضَّوَىٰ[1] مكروهٌ؛ والعربُ قالت هذا بالإلهامِ، لقرائحِهم الصافيةِ، وأذهانِهم الواقدةِ، وطينتِهم الحرةِ، وأعراقِهم الكريمةِ، وعاداتِهم السليمةِ، وإنَّما شعَروا بهذا لأنَّ الضَّوَىٰ الواصلَ إلىٰ الأبدانِ هو سارٍ في العقولِ، ولكنَّ الفرسَ عن هذا السرِّ غافلون، ولا يفطِنُ لهذا وأمثالِه إلَّا الألمعيُّون الأحوذيُّون، وأنشَد الأصمعيُّ عن العربِ قولَ قائلِهم في مدحِ صاحبٍ له:

فَتَىٰ لَمْ تَلِدْهُ بِنْتُ عَمٍ قَرِيبَةٍ فَيَضْوَىٰ وَقَدْ يَضْوَىٰ رَدِيدُ الأَقَارِبِ

وقالت العربُ: أضوَاه حقَّه؛ إذا نقَصه، وقال آخرُ لولدِه: واللهِ لقد كفيتُك الضئولةَ، واخترتُ لك الخئولةَ، والعربُ تقولُ: ليس أضوَىٰ من القرائبِ، ولا أنجبَ من الغرائبِ.

وقال الشاعر:

أَنْذَرْتُ مَنْ كَانَ بَعِيدَ الهَمِّ تَزْوِيجَ أَوْلَادِ بَنَاتَ العَمِّ
لَيْسَ بِنَاجٍ مِنْ ضَوَىٰ أَوْ سُقْمِ وَأَنْتَ إِنْ أَطْعَمْتَهُ لَا يَنْمِي

وعلىٰ هذا طباعُ الأرضِ، ولذلك يقال: إذا كثُرت المؤتفكاتُ[2] زَكَتْ الأرضُ، لأنَّ الرياحَ إذا اختلَفت حوَّلت ترابَ أرضٍ إلىٰ أرضٍ، وإذا كان

---

(١) الضوىٰ: دقة العظم وهزال الجسم.

(٢) هي الرياح القوية التي تختلف جهة هبوبها، فتختلف الأتربة التي تحملها.

الاغترابُ يؤثرُ من الترابِ إلىٰ الترابِ، فبالحريِّ أن يؤثرَ الإنسانُ في الإنسانِ بالاغترابِ، لأنَّ الإنسانَ أيضًا من الترابِ.

فما ظنُّك بقومٍ يجهَلون آثارَ الطبيعةِ، وأسرارَ الشريعةِ، ما أذلَّهم اللهُ باطلًا، ولا سلَبهم ملكَهم ظالمًا، ولا ضرَبهم بالخزيِ والمهانةِ إلَّا جزاءً علىٰ سيرتِهم القبيحةِ، وكذبِهم علىٰ اللهِ بالجرأةِ والمكابرةِ، وما اللهُ بظلَّامٍ للعبيدِ.

فلمَّا بلَغ القولُ مدَاه قال الوزيرُ: للهِ درُّ هذا النَفَسِ الطويلِ والنَفْثِ الغزيرِ! لقد كنتُ قَرِمًا إلىٰ هذا النوعِ من الكلامِ، ففرِّغْ نفسَك لرسمِه في جزءٍ لأنظرَ فيه، وأُشْرِب النفسَ حلاوتَه، وأستنتجْ العقيمَ منه؛ فإنَّ الكلامَ إذا مرَّ بالسمعِ حَلَّقَ، وإذا شارفَه البصرُ بالقراءةِ من كتابٍ أَسَّفَ[1]؛ والمُحلِّقُ بعيدُ المنالِ، والمُسِفُّ حاضرُ العينِ، والمسموعُ إذا لم يملِكْه الحفظُ، تذكَّر منه الشيءَ بعدَ الشيءِ بالوهمِ الذي لا انعقادَ له، والخيالِ الذي لا معرِّجَ عليه.

فقلتُ: أفعلُ سامعًا مطيعًا -إن شاءَ اللهُ.

❁ ❁ ❁

(١) أي دنا قريبًا من الأرض، ومنه الإسفاف أي فعل الدنايا من الأمور.

الليلةُ السابعةُ

قال الوزيرُ: سمِعْت صياحَك اليومَ في الدارِ مع ابنِ عبيدٍ، ففيمَ كنتما؟

قلتُ: كان يذكرُ أنَّ كتابةَ الحسابِ أنفعُ وأفضلُ وأعلقُ بالملكِ، والسلطانُ إليه أحوجُ، وهو بها أغنَىٰ من كتابةِ البلاغةِ والإنشاءِ والتحريرِ، فإذا الأُولىٰ جِدُّ، والأخرىٰ هزلٌ؛ ألا ترَىٰ أنَّ التشادقَ والتفيهقَ والكذبَ والخداعَ فيها أكثرُ؛ وليس كذلك الحسابُ والتحصيلُ والاستدراكُ والتفصيلُ. وقال: وتلك صناعةٌ معروفةٌ بالمبدأِ، موصولةٌ بالغايةِ، حاضرةُ الجدوَىٰ، سريعةُ المنفعةِ؛ والبلاغةُ زخرفةٌ وحيلةٌ، وهي شبيهةٌ بالسرابِ، كما أن الأخرىٰ شبيهةٌ بالماءِ، ومن خساسةِ البلاغةِ أنَّ أصحابَها يُسترقَعُون ويُستَحْمَقُون؛ وكان الكُتَّابُ قديمًا في دورِ الخلفاءِ ومجالسِ الوزراءِ يقولونَ: اللَّهم إنَّا نعوذُ بك من رَقَاعَةِ المنشئينَ، وحماقةِ المعلِّمينَ، وركاكةِ النحويينَ، والمنشئُ والمعلِّمُ والنحويُّ إخوةٌ وإن كانوا لعِلاتٍ؛ والآفةُ تشملُهم والعادةُ تجمعُهم، والنقصُ يغمرُهم، وإن اختلفتْ منازلُهم، وتباينتْ أحوالُهم، ولو لم يكنْ من صنعةِ الإنشاءِ إلَّا أنَّ المملكةَ العريضة الواسعةَ يُكْتَفَىٰ فيها بمنشئٍ واحدٍ، ولا يُكْتَفَىٰ فيها بمائةِ كاتبِ حسابٍ، وإذا كانت الحاجةُ إلىٰ هذه أمسَّ، كانت الأخرىٰ في نفسِها أخسَّ، وبعدُ فمصالحُ أحوالِ العامةِ والخاصةِ معلقةٌ بالحسابِ؛ علىٰ هذه الجديلةِ والوتيرةِ يجري الصغارُ والكبارُ والعِلْيةُ

والسِّفلةُ، وما زال أهلُ الحزمِ والتجاربِ يحثونَ أولادَهم ومَن لهم به عنايةٌ علىٰ تعلمِ الحسابِ، ويقولون لهم: هو سلةُ الخبزِ، وهذا كلامٌ مستفيضٌ؛ ومَن عبَّر عمَّا في نفسِه بلفظٍ ملحونٍ أو محرَّفٍ أو موضوعٍ في غيرِ موضعِه وأفهَم غيرَه، وبلَغ به إرادتَه، وأبلَغ غيرَه، فقد كفَىٰ؛ والزائدُ علىٰ الكفايةِ فضلٌ، والفضلُ يُستغنَىٰ عنه كثيرًا، والأصلُ يفتقر إليه شديدًا.

قال الوزيرُ: هذه ملحمةٌ منكَرةٌ؛ فما كان من الجوابِ؟

قلتُ: ما قامَ من مجلسِه إلَّا بعدَ الذُّلِّ والقَمَاءَةِ، وهكذا يكونُ حالُ مَن عابَ القمرَ بالخسوفِ، والشمسَ بالكسوفِ، وانتحَل الباطلَ ونصَر المبطِلَ، وأبطَل الحقَّ وزرَىٰ علىٰ المحِقِّ.

فقلتُ له: أيُّها الرجلُ، قولُك هذا كان يَسلمُ لو كان الإنشاءُ والتحريرُ والبلاغةُ بائنةً من صناعةِ الحسابِ والتحصيلِ والاستدراكِ وعملِ الجماعةِ وعقدِ المؤامرةِ، فأمَّا وهي متصلةٌ بها وداخلةٌ في جملتِها ومشتملةٌ عليها وحاويةٌ لها، فكيف يَطَّرِدُ حكمُك وتسلمُ دعوَاك؟ ألا تعلمُ أنَّ أعمالَ الدواوينِ التي ينفردُ أصحابُها فيها بعملِ الحسابِ فقيرةٌ إلىٰ إنشاءِ الكتبِ في فنونِ ما يصفونَه ويتعاطونَه؛ بل لا سبيلَ لهم إلىٰ العملِ إلَّا بعدَ تقدمةِ هذه الكتبِ التي مدارُها علىٰ الإفهامِ البليغِ والبيانِ المكشوفِ والاحتجاجِ الواضحِ، وذلك يوجدُ من الكاتبِ المنشئِ الذي عبتَه وعضضتَه، وهذه الدواوينُ معروفةٌ، والأعمالُ فيها موصوفةٌ؛ مثل ديوانِ الجيشِ، وديوانِ بيتِ المالِ، وديوانِ المظالمِ، وديوانِ الشرطةِ والأحداثِ، هذا إلىٰ توابعِ هذه الدواوينِ، كما يلزمُ كاتبُ الحسابِ أن يعرفَ وجوهَ الأموالِ حتىٰ إذا جبَاها

وحَصَّلَها عمِل الحاسبُ أعمالَه فيها، فلا يمكنُه أن يجبيَ إلَّا بالكتبِ البليغةِ، والحججِ اللازمةِ، واللطائفِ المستعملةِ، ومن تلك الوجوهِ الفيءُ - وهو أرضُ العنوةِ -، وأرضُ الصلحِ، وإحياءُ الأرضِ، وجزيةُ أهلِ الذمةِ، وصدقاتُ الإبلِ والبقرِ والغنمِ، وأخماسُ الغنائمِ، والمعادنِ والركازِ والمالِ المدفونِ، وما يخرجُ من البحرِ، وما يؤخَذُ من التجارِ إذا مرُّوا بالعاشرِ، واللُّقَطةِ، والضالَّةِ، وميراثُ مَن لا وارثَ له، ومالُ الصدقةِ؛ إلىٰ غيرِ ذلك من الأمورِ المحتاجةِ إلىٰ المكاتباتِ البالغةِ علىٰ الرسومِ المعتادةِ، والعاداتِ الجاريةِ، كعهدٍ ينشأُ في إصلاحِ البريدِ، وفي قبضِ فرائضِ الصدقاتِ، وفي افتتاحِ الخراجاتِ، إلىٰ غيرِ ذلك من كتبِ المحاسبينَ.

فإن قلتَ: هذا كلُّه مستغنًىٰ عنه، كابرتَ وبَهَتَّ، لأنَّ مدارَ المالِ ودرورُه، وزيادتُه ووفورُه علىٰ هذه الدواوينِ التي إمَّا أن يكونَ حظُّ البلاغةِ فيها أكثرَ، وإمَّا أن يكونَ أثرُ الحسابِ فيها أظهرَ، وإمَّا أن يتكافآ؛ فعلىٰ جميعِ الأحوالِ لا يكونُ الكاتبُ كاملًا، ولا لاسمِه مستحِقًّا، إلَّا بعدَ أن ينهضَ بهذه الأثقالِ، ويجمعَ إليها أصولًا من الفقهِ مخلوطةً بفروعِها، وآياتٍ من القرآنِ مضمومةً إلىٰ سعتِه فيها، وأخبارًا كثيرةً مختلفةً في فنونٍ شتَّىٰ لتكونَ عدةً عندَ الحاجةِ إليها، مع الأمثالِ السائرةِ والأبياتِ النادرةِ، والفِقَرِ البديعةِ، والتجاربِ المعهودةِ، والمجالسِ المشهودةِ، مع خطِّ كتبٍ مسبوكٍ، ولفظٍ كوشيٍ[1] محوكٍ؛ ولهذا عزَّ الكاملُ في هذه الصناعةِ، حتىٰ قال أصحابُنا: ما

---

(١) نوع من الثياب متداخل الألوان.

نظنُّ أنَّه اجتمَع هذا كلُّه إلَّا لجعفرِ بنِ يحيَىٰ[1] فإنَّ كتابتَه كانت سواديةً، وبلاغتَه سحبانيةً، وسياستَه يونانيةً، وآدابَه عربيةً، وشمائلَه عراقيةً.

أفلا يرَىٰ كيف غرِق الحسابُ في غِمارِ هذه الأبوابِ؟ ثم اعلمْ أنَّ البليغَ مُسْتَلٌّ بلاغتَه من العقلِ، ومأخذُه فيها من التمييزِ الصحيحِ، وليس كذلك الحسابُ في متناولِه، فلو ظنَّ ظانٌّ بأنَّ مدارَ المُلكِ علىٰ الحسابِ، فهو صحيحٌ؛ ولكنْ بعدَ بلاغةِ المنشئِ، لأنَّ السلطانَ يأمرُ وينهىٰ ويلاطفُ ويخاطبُ، ويحتجُّ ويعَنِّفُ، ويوعدُ ويعدُ، ويضمنُ ويُمَنِّي، ويعلقُ الأملَ ويؤكدُ الرجاءَ، ويحسمُ المادةَ الضارةَ، ويذيقُ الرعيةَ حلاوةَ العدلِ ويجنبُهم مرارةَ الجورِ، ثم يَجْبِي، فإذا جبَىٰ احتاج إلىٰ الحسابِ حتىٰ يكونَ بالحاصلِ عالمًا، ثم يتقدمُ بتوزيعِ ذلك علىٰ الحسابِ حتىٰ يكونَ من الغلطِ آمنًا، فانظرْ إلىٰ المنزلتينِ كيف اختلَفتا؟ وكيف حصَلت المزيةُ لإحداهما. ولو أنصفتَ لعلمتَ أنَّ الصناعةَ جامعةٌ بينَ الأمرينِ، أعني الحسابَ والبلاغةَ، والإنسانُ لا يأتِي إلىٰ صناعةٍ فيشقُّها نصفينِ ويشرفُ أحدَ النصفينِ علىٰ الآخرِ.

وأما قولُك: (إحدَىٰ الصناعتينِ هزلٌ، والأخرَىٰ جِدٌّ)، فبئس ما سوَّلتْ لك نفسُك علىٰ البلاغةِ، هي الجِدُّ وهي الجامعةُ لثمراتِ العقلِ، لأنَّها تحقُّ

---

(١) جعفر بن يحي البرمكي الوزير ابن الوزير يحي ابن الوزير خالد بن برمك الفارسي، كان أديبا، عذب العبارة، من ذوي اللسن والبلاغة، حاتمي السخاء، وجوده أشهر من أن يذكر، يقال: إنه وقع ليلة بحضرة الرشيد زيادة علىٰ ألف توقيع، ونظر في جميعها، فلم يخرج شيئا منها عن موجب الفقه، وكان أبوه قد ضمه إلىٰ القاضي أبي يوسف حتىٰ فقه، كان عند الرشيد بحالة لم يشاركه فيها أحد، إلا أنه كان لعابا غارقا في لذات دنياه، قتله الرشيد في نكبة البرامكة سنة ١٨٧هـ.

الحقَّ وتبطلُ الباطلَ علىٰ ما يجبُ أن يكونَ الأمرُ عليه؛ ثم تحقيقُ الباطلِ وإبطالُ الحقِّ لأغراضٍ تختلفُ، وأغراضٍ تأتلفُ، وأمورٍ لا تخلو أحوالُ هذه الدنيا منها من خيرٍ وشرٍّ، وإباءٍ وإذعانٍ، وطاعةٍ وعصيانٍ، وعدلٍ وعدولٍ، وكفرٍ وإيمانٍ، والحاجةُ تدعو إلىٰ صانعِ البلاغةِ وواضعِ الحكمةِ وصاحبِ البيانِ والخطابةِ.

وأمَّا قولُك: (الإنشاءُ صناعةٌ مجهولةُ المبدأِ، والحسابُ معروفُ المبدأِ)، فقد خَرِقْتَ، لأنَّ مبدأَها من العقلِ، وممرَّها علىٰ اللفظِ، وقرارَها في الخطِّ؛ وأنت إذا قلتَ هذا دلَّلتَ من نفسِك علىٰ أنَّه ليس لك ما تبصرُ به هذا المبدأَ الشريفَ وهذا الأولُ اللطيفُ.

وأمَّا قولُك: (والبلاغةُ زخرفةٌ وهي شبيهةٌ بالسرابِ) فقد أوضحنا لك فيه ما كفَىٰ، فإن لم يكفِ فأنت محتاجٌ إلىٰ بينةٍ أخرَىٰ.

وأمَّا قولُك: (إنَّ أصحابَها يسترقِعون)، فهذا شَنَعٌ من القولِ، ولو عرفتَ الصدقَ فيه لم تَنبِسْ به، ولم تنطقْ بحرفٍ منه، فإنَّ فيه زِرايةً علىٰ السلفِ الصالحِ والصدرِ الأولِ، ولو وجَب أن يسترقِعَ البليغُ إذا كان عاقلًا، لوجَب أن يستعقلَ العييُّ إذا كان أحمقًا؛ وهذا خلف.

وأمَّا قولُك: (المنشئُ والمعلمُ والنَّحْويُّ إخوةٌ في الركاكةِ)، فما يتعلمُ الناسُ إلَّا من المعلمِ والعالمِ والنحويِّ وإن ندَر منهم واحدٌ قليلُ البضاعةِ من الحقِّ.

وأمَّا قولُك: (إنَّ المملكةَ تكتفِي بمنشئٍ واحدٍ)، فقد صدَقت، وذلك أنَّ هذا الواحدَ في قوتِه يفِي بآحادٍ كثيرةٍ، وهؤلاءِ الآحادُ ليس في جميعِهم وفاءٌ

بهذا الواحدِ، وهذا عليك لا لك. لكنْ بقيَ أن تفهمَ أنَّك محتاجٌ إلىٰ الأساكفةِ[1] أكثرَ ممَّا تحتاجُ إلىٰ العطارينَ، ولا يدلُّ هذا علىٰ أنَّ الإسكافَ أشرفُ من العطارِ، والعطارُ دونَ الإسكافِ؛ والأطباءُ أقلُّ من الخياطينَ، ونحنُ إليهم أحوجُ، ولا يدلُّ علىٰ أنَّ الطبيبَ دونَ الخياطِ.

وأمَّا قولُك: (ما زالَ الناسَ يحثونَ أولادَهم علىٰ تعلمِ الحسابِ ويقولون: هو سلةُ الخبزِ)، فهو كما قلتَ، لأنَّ الحاجةَ إليه عامةٌ للكبارِ والصغارِ؛ وأشرفُ الصناعاتِ يحتاجُ إليها أشرفُ الناسِ، وأشرفُ الناسِ الملكُ، فهو محتاجٌ إلىٰ البليغِ والمنشئِ والمحررِ، لأنَّه لسانُه الذي به ينطقُ، وعينُه التي بها يبصرُ، وعَيْبَتُه التي منها يستخرجُ الرأيَ ويستبصرُ في الأمرِ، ولأنَّه بهذه الخاصةِ لا يجوزُ أن يكونَ له شريكٌ، لأنَّه حاملُ الأسرارِ، والمحدثُ بالمكنوناتِ، والمفضِي إليه ببناتِ الصدورِ.

وأمَّا قولُك: (مَن عبَّر عمَّا في نفسِه بلفظٍ ملحونٍ أو محرَّفٍ وأفهَم غيرَه فقد كفَىٰ)، فكيف يصحُّ هذا الحكمُ، ويُقبَلُ هذا الرأيُ؟ والكلامُ يتغيرُ المرادُ فيه باختلافِ الإعرابِ، كما يتغيرُ الحكمُ فيه باختلافِ الأسماءِ، وكما يتغيرُ المفهومُ باختلافِ الأفعالِ؛ وكما ينقلبُ المعنَىٰ باختلافِ الحروفِ؛ ولقد قال رجلٌ بالرَّيِّ كان نبيلًا في حالِه جليلًا في مرتبتِه عظيمًا عندَ نفسِه: اقعدْ حتىٰ تتغدَّىٰ بنَا، وهو يريدُ: حتىٰ تتغدَّىٰ معنَا، فانظرْ إلىٰ هذا المحالِ الذي ركبه بلفظِه، وإلىٰ المرادِ الذي جانَبه بجهلِه؛ ولهذا نظائرُ غيرُ خافيةٍ عليك ولا ساقطةٍ دونَك، وكفَىٰ بالبلاغةِ شرفًا أنَّك لم تستطعْ تهجينَها إلَّا بالبلاغةِ، ولم

---

(١) الأساكفة: الذين يصلحون الأحذية.

تهتدِ إلىٰ الكلامِ عليها إلَّا بقوتِها؛ فانظرْ كيف وجدتَ في استقلالِها بنفسِها ما يُقِلُّها ويُقِلُّ غيرَها؛ وهذا أمرٌ بديعٌ وشأنٌ عجيبٌ.

فقال الوزيرُ: هذه جملةٌ قامعةٌ لمَن ادَّعَىٰ دعوَاه أو نحَا منحَاه؛ وأنَّىٰ لك هذا؟ لِمَ لا تداخلْ صاحبَ ديوانٍ ولِمَ ترضَىٰ لنفسِك بهذا اللبوسِ؟

فقلتُ: أنا رجلٌ حبُّ السلامةِ غالبٌ عليَّ، والقناعةُ بالطفيفِ محبوبةٌ عندِي.

فردَّ الوزيرُ: كنَّيتَ عن الكسلِ بحبِّ السلامةِ، وعن الفسولةِ بالرضَا باليسيرِ.

قلتُ: إذا كنتُ لا أصلُ إلىٰ السلامةِ إلَّا بالفسولةِ، ولا أتطعمُ الراحةَ إلَّا بالكسلِ، فمرحبًا بهما.

فقال الوزيرُ: لكلِّ إنسانٍ رأيٌ واختيارٌ، وعادةٌ ومنشأٌ، ومألوفٌ وقرناءُ، متىٰ زَحزِحَ عنها قلِق، ومتىٰ أريغَ علىٰ سوَاها فرَق؛ أظنُّ أنَّه قد نصَف الليلُ.

قلتُ: لعلَّه، وانصرَفتُ.

الليلةُ العاشرةُ

عدتُ إليه في الليلةِ الأخرَىٰ - ونَعِمتُ بهذه الفضيلةِ -، وقرأتُ عليه نوادرَ الحيوانِ، وغرائبَ ما كنتُ سمعتُه ووجدتُه، فزادَ عجبًا. وأنا أرويهِ في هذا المكانِ حتىٰ يكونَ تذكرةً وفائدةً إن شاءَ اللهُ تعالىٰ:

يقالُ: إنَّ أسنانَ الرجلِ اثنتانِ وثلاثونَ سنًّا، وأسنانَ المرأةِ ثلاثونَ سنًّا، وأسنانَ البقرِ أربعٌ وعشرونَ سنًّا، وأسنانَ الشاةِ إحدَىٰ وعشرونَ سنًّا، وأسنانَ التيسِ ثلاثٌ وعشرونَ، وأسنانَ العنزِ تسعَ عشرةَ سنًّا، ويحكَىٰ أنَّ الحيوانَ الذي أسنانُه قليلةٌ عمرُه قصيرٌ، والذي أسنانُه كثيرةٌ عمرُه طويلٌ، والفيلُ إذا ولِد نبَتت أسنانُه في الحالِ، فأمَّا أنيابُه الكبارُ فتظهرُ إذا شبَّ وكبُر، والقنفذُ في فيهِ خمسُ أسنانٍ في عمقِه.

قلبُ كلِّ حيوانٍ طرفُه حادٌّ، وهو أصلبُ من سائرِ جسدِه، وهو موضوعٌ في وسطِ الصدرِ سوَىٰ الإنسانِ، فإنَّه مائلٌ فيه إلىٰ الناحيةِ اليسرَىٰ، لأنَّه يكونُ بإزاءِ الجانبِ الأيسرِ فيعادلُ الناحيةَ اليمنَىٰ، فإنَّ اليسرَىٰ من الإنسانِ أكثرُ بردًا، وليس في قلوبِ جميعِ الحيوانِ عظمٌ إلَّا في الخيلِ، وفي جنسٍ من البقرِ، فإنَّ في قلبِ هذينِ عظمًا دونَ غيرِهما من الحيوانِ، وكلُّ حيوانٍ له قلبٌ كبيرٌ يكونُ جزوعًا.

الشَّعرُ المولودُ مع الإنسانِ شعرُ الرأسِ والأشفارِ والحاجبينِ، وأولُ ما ينبتُ بعدَ ذلك شعرُ العانةِ وشعرُ الإبْطينِ وشعرُ اللحيةِ، وشعرُ الحاجبينِ ربَّما طال عندَ الكِبَرِ، وشعرُ الأشفارِ لا يطولُ، وللأرانبِ في داخلِ أشداقِها شعرٌ، وكذلك تحتَ أرجلِها.

العضوانَ الوحيدانِ في جسمِ الإنسانِ اللذانِ لا يتوقفانِ عن النموِّ طوالَ الحياةِ هما الأنفُ والأذنانِ.

ليس من السباعِ شيءٌ صلبُه عظمٌ واحدٌ بلا خرزٍ إلَّا الأسدُ والضبعُ.

جميعُ السباعِ والدوابِّ عندَ المشيِ تقدِّمُ اليدَ اليمنَىٰ والرجلَ اليسرَىٰ.

لا تكونُ الزرافةُ إلَّا في أرضٍ قليلةِ الماءِ.

الجاموسُ لا ينامُ أصلًا وإن أرخَىٰ عينيه إرخاءً يسيرًا، لكنَّه ساهرٌ الليلَ والنهارَ.

لا ينامُ البومُ إلَّا إغفاءةً.

من أصنافِ الحيوانِ الذي يكتسبُ معاشَه ليلًا: البومةُ والوَطْواطُ.

ومن الحيوانِ الوحشيِّ ما يستأنسُ سريعًا: الفيلُ.

السريعُ الحُضْرِ أربعةٌ: النمرُ والحَريشُ[1] وعنزُ الجبلِ وكباشُها.

عدوُّ الحيَّاتِ أربعٌ: القنفذُ والفيلُ والإيَّلُ والعقعقُ[2].

---

(١) دابة في جرم الجدي، لها في وسط رأسها قرن واحد مصمت مستقيم تناطح به.

(٢) طائر طويل الذنب، كبير الجناحين، قريب من حجم الغراب.

الجبانُ اثنانِ: الأرنبُ والإيَّلُ.

ذو الزهوِ ثلاثةٌ: الفرسُ والديكُ والطاوسُ.

ذو حدةِ السمعِ ثلاثةٌ: الذئبُ والحمارُ والخُلْدُ[١].

المتحارسُ بالليلِ اثنانِ: الكُرْكِيُّ والبطُّ.

نافِي فِراخَه ثلاثةٌ: النعامُ والغُدَافُ[٢] والعُقابُ.

محبُّ الظلمةِ ثلاثةٌ: البومُ والخفاشُ والخُلْدُ.

ذو حدةِ البصرِ ثلاثةٌ: العُقَابُ والظبيُ والباشَقُ[٣].

من الحيوانِ ما لا يشبهُ الولدُ الوالدَ كالدببةِ والنحلُ والدَّبْرُ.

الضفادعُ والغيالمُ[٤] والسرطاناتُ لا ضررَ عليها في ماءٍ ولا يبسٍ، لكنَّهما عندَها سيَّانِ لا تهلكُ في برٍّ ولا تخنقُ في بحرٍ.

كلُّ ما أكَل اللحمَ فهو ذو أسنانٍ قواطعِ صلابٍ، وأعناقٍ قصارٍ شدادٍ، ومخالبَ وأظفارٍ حدادٍ، ومناقيرَ معقفةٍ جذابةٍ.

جميعُ أجناسِ الحيوانِ إناثُها أقلُّ جرأةً وأجزعُ، ما خلا الذئبةَ، فإنَّها أصعبُ خلقًا وأجرأُ من الذكورِ.

---

(١) دويبة تحت الأرض، وهي ضرب من الجرذان.

(٢) الغراب.

(٣) نوع من الطيور البزاة، يستخدم للصيد.

(٤) جمع غَيلم وهو ذكر السلحفاة.

العُقابُ والتنِّينُ يتقاتلانِ، والعقابُ تأكلُ الحيَّاتِ حيثُما وجدَتها.

الغُدَافُ[١] يخطَف بيضَ البومةِ نصفَ النهارِ فيأكلُه، لأنَّ البومةَ لا تبصرُ بصرًا حادًّا في ذلك الوقتِ، فإذا كان الليلُ شدتْ البومةُ علىٰ بيضِ الغُدَافِ فأكَلتْه.

عصفورُ الشوكِ يقاتلُ الحمارَ، لأنَّ الحمارَ إذا مرَّ بالشوكِ أفسَد عشَّه، لأنَّه يرعَىٰ ذلك الشوكَ إذا كان رطبًا، فإذا نهَق بالقربِ منه وقَع بيضُه، وإن كان فيه فراخٌ خرجَت منه، فلهذِه العلةِ يطيرُ هذا العصفورُ حولَ الحمارِ وينقُرُه.

الغرابُ يعادِي الثورَ والحمارَ وينقُرُهما.

الأرنبُ من طباعِها الجبنُ والخوفُ، وهي كثيرةُ الولادةِ.

الثورُ دابةٌ عمولٌ كدودٌ مقدرٌ جسمُه بقدرِ قوتِه، وبينَه وبينَ الدبِّ عداوةٌ شديدةٌ.

والحيةُ تعادِي الخنزيرَ وابنَ عِرْسٍ، لأنَّهما يأكلانِ الحيةَ حيثُ وجداها.

الأسدُ تضعُ أولادَها غيرَ منفتحةِ العيونِ، وإنَّما تنفتحُ بعدَ ذلك، والأسدُ خاصةً ليس له من جنسِه قرينٌ، ولا يرَىٰ شيئًا من السباعِ كفؤًا له فيصحبه، ولا يقرَبُ شيئًا من بقايَا فريستِه بالأمسِ ولو جهَده الجوعُ، ويُهِرُّ[٢] زئيرُه كثيرًا من الحيوانِ الذي هو أعظمُ منه جسمًا وقوةً، ويمكنُ سماعُه من علىٰ مسافةِ ثمانيةِ كيلومتراتٍ، وللأسدِ ثلاثُ طبائعِ، الأولَىٰ: أنَّه إذا مشَىٰ فشمَّ ريحَ

---

(١) مر ذكره وهو الغراب الكبير الجناحين.

(٢) أي يجعل الحيوانات الأخرىٰ تصدر صوتًا يدل علىٰ فزعها وخوفها.

الصيادينَ عفَىٰ علىٰ آثارِه بذنَبِه لكي لا يتبعُه الصيادونَ ويقفوا عليه في عرينِه فيصيدوه، والثانيةُ: أنَّ اللبوةَ تلدُ شبلَها ميتًا، فلا تزال تحرسُه حتىٰ يأتيَ أبوه في اليومِ الثالثِ فينفخُ في منخرِه فيبعثُه، والثالثةُ: أنَّه يفتحُ عينيه إذا نامَ وهما يقظتانِ.

الكلبُ ذو فحصٍ واقتفاءٍ للأثرِ، وبشمِّه يسترشدُ ويهتدي ويستدلُّ، ومن طباعِه الترضِّي والبصبصةُ والهشاشةُ لمَن عرفَه، وليس في الحيوانِ أشدُّ حبًّا لصاحبِه منه، فإن أشارَ له علىٰ صيدٍ وثَب ناصبًا رأسَه، رافعًا ذنَبَه، مستعدًّا كالفارسِ البطلِ والشجاعِ النجدِ، مع نشاطِه في الطلبِ وهو يعلمُ أنَّ الصيدَ ليس بحاضرٍ، لكن ذلك منه حسنُ طاعةٍ، وأما حبُّ بعضِ جراءِ الكلابِ لبعضٍ إذا كان أخاه لأمٍّ ولأبٍ فممَّا قد عهِد وشوهِد، وذلك أنَّه حيثُ كان يطرحُ لها الطعامَ في الوسطِ، فلا يخطفُ واحدٌ منها ذلك، ولكنَّها تتعاطاه بينَها بسكونٍ وتمكينِ بعضِها لبعضٍ، غيرَ مستأثرةٍ به ولا محاربةٍ عليه، والكلبُ له ثلاثةُ أمراضٍ: الكلبُ، والذُّبَحَةُ - وهو القاتلُ لها -، والنِّقْرَسُ، والداءُ الذي يقال له الكلبُ يعرضُ للجِمالِ أيضًا؛ فإذا كَلِبَ الجملُ نُحِر ولم يؤكَلْ لحمُه، وذكورُ الكلابِ السلوقيةِ تعيشُ عشرَ سنينَ، وإناثُها اثنتَي عشرةَ سنةً، ومن أجناسِها ما تعيشُ عشرينَ سنةً، وإناثُها كلُّها أطولُ أعمارًا من الذكورِ، وإناثُ الكلابِ السلوقيةِ أسرعُ إلىٰ الأدبِ من الذكورِ.

الذئبُ إذا رأىٰ الإنسانَ مبطئًا خطوَه وهو ساكنٌ سكَت عنه، فإن رآه خاف وجبنَ اجترأَ وحمَل عليه، وليس كلُّ ذئبٍ يعدُو، ولكن هو الذي يكونُ ضاريًا؛ وفيه خَلَّتانِ: إحداهما أن يكونَ منفردًا يمشِي وحدَه والأخرَىٰ حدةُ

سمعِه، وإن خفيَ عليه مكانُ الغنمِ أتَىٰ مكانًا وعوَىٰ صوتينِ أو ثلاثةً، ثم سكَت منصتًا لأصواتِ الكلابِ التي مع الغنمِ ونباحِها حينِ سمِعت عواءَه، فإذا سمِع نباحَ الكلابِ شدَّ مسرعًا نحوَها، قاصدًا إليها؛ فإذا قرُب من الغنمِ مال إلىٰ ناحيةٍ أخرىٰ خاليةٍ من محرسِ الكلابِ فاختطَف ما أمكنَه خطفُه من الغنمِ.

الثعلبُ يهيئُ عشَّه ووَكْرَه ذا سبعةِ أحجرةٍ، فإذا طرَقته الكلابُ وغيرُها ممَّا يتخوفُ دخَل في جحرٍ وخرَج من غيرِه، وذكرُ الثعلبِ لا يقترنُ سوَىٰ بأنثَىٰ واحدةٍ فقط طوالَ حياتِه، وإذا ماتَت تلك الأنثَىٰ فانَّ الذكرَ يظلُّ عزبًا، وإذا قارَب الزرعُ أن يسنبلَ دخَل الثعلبُ فيه وتمعَّك فرحًا به، فيفسِد ذلك الزرع، ولذلك سُمِّي احتراقُ الشعرِ: داءُ الثعلبِ، لأنَّه يسقِطُه كما يذهبُ ورقُ السنبلةِ والشوكةُ، وإذا جاعَ الثعلبُ فلم يقدرْ علىٰ صيدٍ؛ عمَد إلىٰ أرضٍ شديدةِ الحرِّ وإلىٰ موضعِ الطيرِ إذا حميَ، فاستَلقىٰ علىٰ ظهرِه ونظَر إلىٰ فوقَ، ثم اختلَس نفسَه وأخَذ به داخلًا حتىٰ ينتفخَ انتفاخًا شديدًا فيحسبُه الطيرُ قد ماتَ، فيقعُ عليه ليأكلَ منه كما يأكلُ الجيفةَ، فإذا اجتمَع الطيرُ انتفَض سريعًا وقَبض علىٰ ما وجَد فأكَله، لأنَّه ذو خَبٍّ ومكَر، كذلك طبيعتُه إن أصابَه ضررٌ فأثَّر فيه آثارًا وكَلَّم فيه كُلومًا أخَذ من صمغِ شجرةٍ تُدعَىٰ قنطوريا فأبرَأها به.

الضَّبُعُ مخالفةٌ لجميعِ أجناسِ الحيوانِ، وذلك أنَّها تصيرُ مرةً ضبعًا ذكرًا ومرةً أنثَىٰ، تلقح أحيانًا كالذكرِ، وتقبلُ اللقاحَ أحيانًا كالأنثَىٰ.

القُنفذُ عدوُّ الحيَّاتِ، إذا قبَض علىٰ حيةٍ تركَها تضطربُ علىٰ شوكِه حتىٰ تموتَ، فإذا ماتت قطَّعها قطعًا، والقنفذُ تبيضُ خمسَ بيضاتٍ، وليس بيضًا

بالحقيقةِ، بل هو علىٰ صورةِ البيضِ، يشبهُ الشحمَ، والقنفذُ يعمِد إلىٰ الكَرْمَةِ فيحركُها فيقعُ منها العنبُ، فيتمرغُ فيه حتىٰ يملأَ شوكَه ويعودُ إلىٰ عشِّه، فإذا بصرَت به جراؤه أطافت به تلتقطُ ذلك الحبَّ من شوكِه وتأكلُه.

الفيلُ تلدُ قائمةً، لأنَّ أوصالَها ليست مواتيةً كأوصالِ التي تلدُ باركةً ورابضةً، لذلك فهي تلدُ في الماءِ حذرًا علىٰ دَغْفَلِها أن يموتَ إذا وقَع علىٰ الأرضِ، فتدخلُ ساحلَ البحرِ حتىٰ يبلغَ الماءُ بطنَها فتضعُ ولدَها علىٰ الماءِ كالفراشِ الوثيرِ، والذكرُ في ذلك يحرسُها وولدَها من الحيةِ، وإذا ماتَ الفيلُ وهو واقفٌ فإنَّه يظلُّ واقفًا لبضعِ ساعاتٍ قبلَ أن يسقطَ أرضًا، وما أشدَّ عداوةَ الفيلِ للحيةِ، حيثُما أصابَ الفيلُ الحيةَ وطئَها وقتَلها، وإن هو سقَط علىٰ جنبِه لم يستطعْ القيامَ، إنَّما نومُه إذا اتكَأَ علىٰ شجرةٍ، ومن هناك - لمَّا عرف الصيادونَ كيف نومَه - يأتونَ الشجرةَ فينشرونَها بالمنشارِ، فإذا أتاها الفيلُ واتَّكأَ عليها وقَعَا علىٰ الأرضِ معًا، وحينئذٍ يشتدُّ صياحُه بصوتٍ رفيعٍ، ويجتمعُ إليه لذلك فيلةٌ كثيرةٌ تحاولُ معاونتَه علىٰ النهوضِ والانبعاثِ، فلا تقدرُ علىٰ ذلك، فتصيحُ جماعتُها بصوتٍ واحدٍ جزعًا من ضعفِ حيلتِها وعجزِها حتىٰ يأتيَ الفيلُ الذي هو في الجسمِ أصغرُ، وفي الحيلةِ أكبرُ منها، فيدخِلُ مِشْفَرَهُ[1] تحتَ الفيلِ الساقطِ، وتفعلُ كفعلِه جميعًا في إدخالِ مشافيرِها تحتَه حتىٰ تدعمَه فينبعثَ، وإنَّما كونُ رأسِ الفيلِ في عنقٍ قصيرٍ، وكونُ له بدلٌ العنقِ الطويلِ المشفرِ الطويلِ ليكتفيَ به من الضيقِ، وبه يتناولُ طعامَه وشرابَه، وخلقَت قوائمُه غيرَ منفصلةٍ، لكنَّها كالأساطينِ المصمتةِ

(١) خرطومه.

والسواري الوثيقةِ لتحملَ الكثيرَ الثقيلَ؛ وربِطتْ بعراقيبَ صغارٍ غيرِ منحنيةٍ ولا منثنيةٍ علىٰ الأوصالِ، لكنَّ عظامَه مفرغةٌ إفراغًا، تطولُ أعمارُها إلىٰ ثلاثمائةِ سنةٍ؛ غيرَ أنَّ الدرذانَ والبقَّ تعلَقُ بالفيلةِ فتؤذيها.

الأيايلُ تلقِي قرونَها في أماكنَ عسرةٍ صعبةٍ، لا ترتقىٰ لئلَّا تؤخذَ؛ ولذلك قيل في المثلِ: حيثُ تلقِي الأيايلُ قرونَها، فإذا ألقتْها توقت أن تظهرَ إلىٰ أن تنبت، كأنَّه قد ألقتْ سلاحَها، وقيل: إنَّه لم يعاينْ أحدٌ القرنَ الأيسرَ من قرنيْها، لأنَّ فيه منفعةً عظيمةً، والأيلةُ تُصادُ بالصفيرِ والغناءِ، ويفعلُ ذلك رجلانِ أحدُهما يغنِّي ويصفرُ، والآخرُ يرشقُها بالسهامِ، فلإصغائِها إلىٰ الصفيرِ والغناءِ لا تحذرُ السهامَ، ويقالُ إنَّ الأيلَ إذا كانت أذنَاه قائمتينِ فهو يسمعُ كلَّ شيءٍ ولا يخفَىٰ عليه ما يرادُ به، وإن كانتا مسترخيتينِ خفيَ ذلك عليه، والأيلُ عدوُّ الحياتِ، إن قربَت منه حيةٌ وكان جائعًا أكَل ما أصَاب منها، وإن لم يكنْ به جوعٌ قتَلها وترَكها، فصارت الحياتُ ذواتُ السمِّ الزعافِ المميتِ لكلِّ مَن أصَابه أو خالَط بدنَه غذاءَ هذه الأيايلِ، ويكونُ ملائمًا لها لذيذًا عندَها، علىٰ أنَّ الأيلَ نفسَه جبانٌ شديدُ الرعبِ، إذا أكَل الحيةَ بدَأ بذنَبِها حتىٰ ينتهيَ إلىٰ رأسِها، ثم يقطعُه بأسنانِه.

الجملُ حقودٌ، يرتصدُ مَن ضاربَه الفرصةَ والخلوةَ لينتقمَ منه، فإذا أصابَ ذلك لم يستبقِ صاحبَه، فأمَّا ظهرُه فذو سنامٍ مقبَّبٍ يكونُ لكثرةِ الحملِ واحتمالِ الثقلِ، وأوصالُ ركبتِه وعراقيبِه كبارٌ صلابٌ، وأوتارُها وعروقُها متينةٌ شديدةٌ، وعصبُه وثيقٌ لم يشتدَّ بضغطِ التحامَ مفاصلِه واتصالِها، ولم يسترخِ مطويًّا، لكنَّها هيِّئَت علىٰ الاعتدالِ ليهونَ عليه بذلك البروكُ والنهوضُ

بحملِه، مع تسهيلِ الارتقاءِ عليه في ذلك، والجملُ الذَّكَرُ يكرهُ قربَ الفرسِ ويقاتلُه إذا تمكَّنَ منه، والجملُ إذا وقَع علىٰ الناقةِ وقعَ الضرابِ ستَر عن الرجالِ، فإن نظَر إليه رجلٌ غضِب.

البقرُ يكونُ في الجبالِ إذا ضلَّت بقرةٌ تبِعتها الأخرَىٰ، ولذلك الرعاةُ إذا لم يجدوا بقرةً واحدةً وعدِموها طلَبوا سائرَ البقرِ وفقدوها من ساعتِهم، والبقرُ تشتهِي شربَ الماءِ الصافي النقيِّ، والخيلُ علىٰ الضدِّ فإنَّها تشربُ مثلَ الجمالِ الماءَ الكدرَ الغليظَ.

الخيلُ إذا ضلَّت الأنثَىٰ منها أو هلَكت ولها ولدٌ فإنَّ إناثَ الخيلِ ترضعُه وتربيه، وذلك أنَّ جنسَ الخيلِ في طباعِها حبُّ أولادِها، ويعرضُ للخيلِ داءٌ شبيهٌ بالكلبِ، وعلامتُه استرخاءُ آذانِها إلىٰ ناحيةِ أعرافِها، وامتناعُها من العلفِ، وليس لهذا الداءِ علاجٌ إلَّا التسكينَ.

الحمارُ في طبيعتِه معرفةُ صوتِ الإنسانِ الذي اعتَاد استماعَه وإيناسَه، ولا يضلُّ عن طريقٍ سلَكه مرةً ولا يخطئُه، وإذا ضلَّ راكبُه الطريقَ هدَاه وحمَله علىٰ المحجَّةِ، ووضعيةُ عينَي الحمارِ في رأسِه تسمحُ له برؤيةِ حوافرِه الأربعةِ بشكلٍّ دائمٍ في آنٍ واحدٍ. وأمَّا حدةُ السمعِ، فليس في البهائمِ فيما يذكرُ أَحَدٌّ سمعًا منه، والحمارُ حيوانٌ باردٌ، ولذلك لا يكونُ الوحشيُّ منها إلَّا في المكانِ الباردِ.

المعزَىٰ البريةُ تكونُ صلبةُ القرونِ، تأوِي أطرافَ الجبالِ وما كان مشرفًا من الصخورِ علىٰ أوديةٍ، فإن بصُرت بالصيادِ ألقَت أنفسَها من تلك الصخورِ لتقيَها بقرونِها، فإن سقَطت علىٰ غيرِها هلَكت، وفي قرونِها خرزاتٌ

مستديراتٌ علىٰ قدرِ ما يكونُ عددُ سنيِّها، والعجبُ أنَّها تحفظُ إناثَها عندَ الكبرِ وتتعهدُها بالمطعمِ والمشربِ تحملُه علىٰ أفواهِها، والمعزَىٰ البريةُ إذا صيدَ شيءٌ من سخالِها تبِعتْه ورضيَتْ بالعبوديةِ مع ولدِها، وفي أطرافِ قرونِها حجرةٌ تتنفسُ منها، فإن سُدَّتْ هلَكت مكانَها.

القردُ أهيأُ الحيوانِ لقبولِ التعليمِ، وهو لعوبٌ غضوبٌ سريعُ الحسِّ، لا يكونُ في بلدٍ كثيرِ السباعِ، عدوٌ لجميعِ الحيوانِ، مليحُ الإهابِ، نهوشٌ خطوفٌ.

السلحفاةُ تخرجُ من البحرِ إلىٰ الرملِ فتبيضُّ فيه، حتىٰ إذا بلَغ أوانَه وخرَج أولادُها، فما كان ناظرًا إلىٰ ناحيةِ البحرِ كان بحريًّا، وما كان وجهُه إلىٰ ناحيةِ البرِّ كان بريًّا، وما كان من السلاحفِ بحريًّا فخرَج إلىٰ البرِّ وأصابَه حرُّ الشمسِ لم يستطعْ الرجوعَ إلىٰ البحرِ وبقيَ حتىٰ هلَك، وما كان بريًّا فوقَع إلىٰ ناحيةِ البحرِ تلِف ولم يستطعْ الرجوعَ إلىٰ البرِّ وهلَك.

اليرابيعُ إذا اجتمَعت في موضعٍ ارتفَع رئيسٌ لها حتىٰ يكونَ في موضعٍ مشرفٍ أو علىٰ صخرةٍ أو تلٍّ ينظرُ منه إلىٰ الطريقِ من كلِّ ناحيةٍ، فإن رأَىٰ أحدًا مقبلًا أو سبعًا صرَّ بأسنانِه وصوتَ، فإذا سمِعته انصرَفتْ عن الموضعِ إلىٰ جحرتِها، وإذا كان حسنَ الرصدِ مضَت اليرابيعُ فقطَعت أطراً ما يكونُ من الخضرةِ وأطيبَ العشبِ فحمَلته بأفواهِها حتىٰ تأتيَه تحيةً وتكرمةً، أمَّا إذا أغفَل ذلك وعاينتْ البقيةُ سبعًا أو رجلًا قبلَ أن يرَاه ذلك الرئيسُ انصرَفت إليه وقتَلته لتضييعِه أو غفلتِه.

الحيةُ إذا هرِمت وكَلَّ بصرُها واسترخَىٰ جلدُها، دخَلت في صدعِ صفاةٍ

ضيقٍ أو جحرٍ ضاغطٍ يعسرُ عليها النفوذَ فيه حتىٰ ينسلخَ عنها جلدُها فتأتي عينَ الماءِ فتنغمس فيها حتىٰ يقوَىٰ لحمُها وينعصبَ، فإذا هي فعَلت ذلك عادَت شابةً كما كانت، وإن ضُرِبَت ضربةً بقصبةٍ استرختْ فلم تستطعْ الفرارَ، فإن ثنيتْ وَثبَتْ وسعَت هاربةً، وما أشدَّ طلبَها لثأرِها؛ وإن شُدِخ رأسُها ماتتْ من ساعتِها، ويستطيعُ رأسُها أن يلدغَ حتىٰ بعدَ مدةٍ من بترِه، والحياتُ رغِبةٌ نهِمةٌ، قليلةُ شربِ الماءِ، لأنَّها لا تضبطُ أنفسَها، وإذا شمَّت الشرابَ فإنَّها تشتاقُ إليه جدًّا. والأفعَىٰ تبيضُ في رحمِها، ثم يصيرُ هناك حيوانًا، وإذا جامَعها الذكرُ واسمُه الأفعوانُ تحولَت إليه، فإن ظفِرتْ به أكَلت رأسَه من شدةِ عشقِها له.

الديكُ صلِف في طبيعتِه، غيرَ أنَّ له مع ذلك إيقاظًا للنائمِ بصياحِه في آناءِ الليلِ، والتبشيرَ بإقبالِ الصبحِ وطلوعِ الشمسِ، يؤنسُ السياراتِ في السفرِ بصياحِه في الليلِ، ويحرضُهم علىٰ السيرِ، مع إيقاظِه الفلاحينَ لعملِهم، والصناعِ لصناعتِهم، وإذا سمِع المرضَىٰ صوتَه داخَلهم من ذلك روحٌ وخفةٌ من مرضِهم.

البومُ مأوَاه ومحلُّه الخرابُ، يوافِقُه الليلُ، لأنَّه بالليلِ بصيرٌ وبالنهارِ كليلٌ، مع حبِّه التوحدَ والخلوةَ بنفسِه، وبينَه وبينَ الغربانِ عداوةٌ ما تنقضِي.

النَّسْرُ يتَّخذُ وكرَه في المكانِ العالي المرتفعِ، وعليه يقعُ وفيه ينامُ كالراصدِ، إمَّا في ذروةِ الجبلِ أو في وسطِه من شظايَاه وثنايَاه وموضعِ المنعةِ.

الطاوسُ يعيشُ خمسًا وعشرينَ سنةً، وفي هذه المدةِ تنتَهي ألوانُ ريشِه،

والطاوسُ يحبُّ الزينةَ، غيرَ عفيفِ الطبيعةِ، يدعُوه زهوُه وحرصُه علىٰ التزينِ إلىٰ نشرِ ذنبِه وعقدِه كالطاقِ لتراه الأنثىٰ بحسنِ زينتِه.

العُقَابُ تصيدُ منذُ الغداةِ إلىٰ وقتِ الرواحِ، ثم من أوانِ الرواحِ فهي قاعدةٌ في مكانِها لا تتحركُ، ومنقارُ العقابِ الأعلَىٰ ينشأُ ويعظمُ ويتعقفُ حتىٰ يكونَ ذلك سببَ هلاكِها لأنَّها لا تنال به الطعمَ، فإذا فضلتْ للعقابِ فضلةٌ من طعمِه وضعَها في عشِّه لحاجة فراخِه إليها.

الخفاشُ له خصيتانِ كخصيِّ الحيوانِ، وله أربعُ قوائمَ وأسنانٌ حدادٌ كأسنانِ ذواتِ الأربعِ، يرضِعُ ولدَه من اللبنِ إرضاعًا، وجلدُه أملسٌ.

النعامةُ تعيشُ حتىٰ خمسًا وسبعينَ عامًا وتظلُّ قادرةً علىٰ التكاثرِ حتىٰ سنِّ الخمسينَ، وهي لا تدفنُ رأسَها في الرمالِ هربًا من الخطرِ بل بحثًا عن الماءِ.

الهدهدُ يعملُ عشَّه من زبلِ الإنسانِ، فلذلك رائحتُه كريهةٌ.

الحَجَلُ[1] يعيشُ عشرينَ عامًا، وتعملُ عشينِ يجلسُ الذكرُ علىٰ واحدٍ، والأنثىٰ علىٰ واحدٍ.

البطُّ له يقظةٌ حارسةٌ تدلُّ علىٰ حدةِ حسِّه.

أنحاءُ طيرانِ الطيرِ مختلفةٌ كاختلافِ الطيرِ، بعضُها يطيرُ قريبًا من الأرضِ كالبطِّ وما أشبهَه، وبعضُها يرتفعُ غيرَ أنَّه لا يبعدُ كالحمامِ والغربانِ، وبعضُها

---

(١) طائر علىٰ قدر الحمام، يسمىٰ دجاج البر، وهو صنفان؛ نجدي يكون أخضر اللون أحمر الرجلين، وتهامي فيه بياض وخضرة.

يحلقُ تحليقًا كالعقابِ والصقورِ والبُزَاةِ، وما كان من الطيرِ بدنُه أعظمُ من جناحِه فهو قريبُ الطيرانِ من الأرضِ، لسرعةِ إعياءِ أجنحتِه واضطرارِه إلىٰ الوقوعِ علىٰ الأرضِ(١).

كلُّ ما كان من البيضِ مستطيلًا محددَ الطرفِ فهو يفرخُ الإناثَ وما كان مستديرًا عريضَ الأطرافِ يفرخُ الذكورَ، وجرِّبَ من إناثِ الطيرِ أنَّها إذا لم تجلسْ علىٰ البيضِ تمرضُ.

بيضُ الطيرِ فيه لونانِ: بياضٌ وصفرةٌ، وبيضُ السمكِ فيه لونٌ واحدٌ.

النحلُ يلدُ من غيرِ لقاحِ الذكورِ، وتعملُ عشَّها في زمانينِ: في الربيعِ والخريفِ، والعسلُ الذي تعملُه في الربيعِ أشدُّ بياضًا وأجودُ من الذي تعملُه في الخريفِ، وأضعفُ العسلِ يكونُ أبدًا في أعلَىٰ الإناءِ، والنقيُّ الطيبُ في أسفلِه.

النملُ عمولٌ مواظبٌ، فإذا جمَع الحبَّ قطَعه كيلا ينبتَ إذا أصابَه الندَىٰ والبلةُ، ويخرجُه ويبسطُه عندَ فمِ الجحْرِ، فإذا يبِس أدخَله.

البقُّ والبعوضُ لا نتاجَ لهما، وإنَّما تَنجُلُ من عفنِ الماءِ ووسخِه ونتنِه.

البحرُ الميتُ يقالُ له ذلك لأنَّه يموتُ فيه كلُّ حيٍّ.

وإنِّي قرأتُ هذا الفصلَ علىٰ الوزيرِ - كبَت اللهُ كلَّ شانىءٍ له - فتعجَّب وقال: ما أوسَع رحمةَ اللهِ، وما أكثرَ جندَ اللهِ، وما أغربَ صنعَ اللهِ.

---

(١) للفائدة فإن الرقم القياسي الذي حققته دجاجة في الاستمرار في الطيران حتىٰ الآن هو ١٣ ثانية فقط.

قلتُ: نعم؛ وما أغفلَ الإنسانَ عن حقِّ اللهِ الذي له هذا المُلْكُ المبسوطُ، وهذا الفلكُ المربوطُ، وإنَّما بثَّ اللهُ تعالىٰ هذا الخلقَ في عالمِه علىٰ هذه الأخلاقِ المختلفةِ، والخلقِ المتباينةِ، ليكونَ للإنسانِ المُشَرَّفِ بالعقلِ طريقٌ إلىٰ تعرفِ خالقِها، وبيانٌ لصحةِ توحيدِه له بما يشهدُ من أعاجيبِها، ونيلٌ لرضوانِه بما يتزودُ من عبرِه التي يجدُ فيها، وليكونَ له موقظٌ منها، وداعٍ حادٍ إلىٰ طاعةِ من أبدَاها وأبرزَها، وخلطَها وأفردَها.

وانصرَفتُ.

الليلةُ السابعةَ عشرةَ

قال الوزيرُ: هاتِ فائدةُ الوداعِ، فقد بلَغتَ في المؤانسةِ غايةَ الإمتاعِ، وما عهِدنا من روايتِك إلَّا ما يشوقُنا إلىٰ رؤيتِك.

قلتُ: قال ابن المقفعِ: عمُل الرجلِ بما يعلمُ أنَّه خطأٌ هوًىٰ والهوَىٰ آفةُ العفافِ، وتركُه العملَ بما يعلمُ أنَّه صوابٌ تهاونٌ والتهاونُ آفةُ الدينِ، وإقدامُه علىٰ ما لا يعلمُ أصوابٌ هو أم خطأٌ؟ لجاجٌ واللجاجُ آفةُ الرأيِ.

وقال ديوجانس: من القبيحِ أن تتحرَّىٰ في أغذيةِ البدنِ ما يصلُح له ولا يكونُ ضارًّا، ولا تتحرَّىٰ في غذاءِ النفسِ الذي هو العلمُ لئلَّا يكونَ ضارًّا.

وقال أيضًا: من القبيحِ أن يكونَ الملاحُ لا يطلقُ سفينتَه في كلِّ ريحٍ، ونحنُ نطلقُ أنفسَنا في غيرِ بحثٍ ولا اختبارٍ.

وقال فيلسوفٌ يونانيٌّ: التقلبُ في الأمصارِ، والتوسطُ في المجامعِ، والتصرفُ في الصناعاتِ، واستماعُ فنونِ الأقوالِ، ممَّا يزيدُ الإنسانَ بصيرةً وحكمةً وتجربةً ويقظةً ومعرفةً وعلمًا.

قال الوزيرُ: ما البصيرةُ؟ قلتُ: لحظُ النفسِ الأمورَ، قال: فما الحكمةُ؟ قلتُ: بلوغَ القاصيةِ من ذلك اللحظِ، قال: فما التجربةُ؟ قلتُ: كمالُ النفسِ بلحاظِ مالِها، قال: هذا حسنٌ.

سأل رجلٌ آخرَ أن يقرضَه مالًا، فوعَده ثم غدَر به، فلامَه الناسُ، فقال: لأنْ يحمرَّ وجهي مرةً أحبُّ إليَّ من أن يصفرَّ مرارًا كثيرةً.

ووليَ أريوس ولايةً فقال أصدقاؤه: الآنَ يظهرُ فضلُك، فقال: ليست الولايةُ تظهِرُ الرجلَ، بل الرجلُ يظهِرُ الولايةَ.

وقيل لأسطفانس: مَن صديقُك؟ قال: الذي إذا صرتُ إليه في حاجةٍ وجدتُه أشدَّ مسارعةً إلىٰ قضائِها منِّي إلىٰ طلبِها.

وقال أفلاطونُ: إنَّ للنفسِ لذتينِ: لذةً لها مجردةً عن الجسدِ، ولذةً مشاركةً للجسدِ، فأمَّا التي تنفردُ بها النفسُ فهي العلمُ والحكمةُ، وأمَّا التي تشاركُ فيها البدنَ فالطعامُ والشرابُ وغيرُ ذلك.

وقيل لسقراط: كيف ينبغِي أن تكونَ الدنيا عندَنا؟ قال: لا تستقبِلوها بتمنٍّ لها، ولا تُتبِعوها بتأسفٍ عليها؛ فلا ذلك مُجْدٍ عليكم، ولا هذا راجعٌ إليكم.

وقال بعضُ ندماءِ الإسكندرَ له: إنَّ فلانًا يسيءُ الثناءَ عليك، فقال: أنا أعلمُ أنَّ فلانًا ليس بشريرٍ، فينبغِي أن ينظرَ هل نالَه من ناحيتِنا أمرٌ دعَاه إلىٰ ذلك، فبحَث عن حالِه فوجدَها رثةً، فأمَر له بصلةٍ سنيةٍ، فبلَغه بعدَ ذلك أنَّه يبسطُ لسانَه بالثناءِ عليه في المحافلِ؛ فقال: أمَا ترونَ أنَّ الأمرَ إلينا أن يقالَ فينا خيرٌ أو شرٌّ.

وقال أبو سليمانَ: ذكَر بعضُ الباحثينَ عن الإنسانِ أنَّه جامعٌ لكلِّ ما تفرَّق في جميعِ الحيوانِ، ثم زادَ عليها وفضلَ بثلاثِ خصالٍ: بالعقلِ والنظرِ في الأمورِ النافعةِ والضارةِ، وبالمنطقِ لإبرازِ ما استفادَ من العقلِ بوساطةِ النظرِ، وبالأيدِي لإقامةِ الصناعاتِ وإبرازِ الصورِ فيها مماثلةً لمَا في الطبيعةِ بقوةِ

النفسِ، ولمَّا انتظَم له هذا كلُّه: جمَع الحيلَ والطلبَ والهربَ والمكايدَ والحذرَ، وهذا بدلَ السرعةِ والخفةِ التي في الحيوانِ، واتخَذ بيدِه السلاحَ مكانَ النابِ والمخلبِ والقرنِ، واتخَذ الجُنَنَ[1] لتكونَ وقايةً من الآفاتِ، والعقلُ ينبوعُ العلمِ، والطبيعةُ ينبوعُ الصناعاتِ، والفكرُ بينَهما قابلٌ منهما، مؤدٍّ من بعضٍ إلىٰ بعضٍ، فصوابُ بديهةِ الفكرِ من صحةِ العقلِ، وصوابُ رويةِ الفكرِ من صحةِ الطباعِ.

وقال فيلسوفٌ: التهاونُ باليسيرِ أساسٌ للوقوعِ في الكثيرِ.

وقال أفلاطون: مثلُ الحكيمِ كمثلِ النملةِ تجمعُ في الصيفِ للشتاءِ، وهو يجمعُ في الدنيا للآخرةِ.

وقال فيلسوفٌ: مَن يصفُ الحكمةَ بلسانِه ولم يتحلَّ بها في سرِّه وجهرِه فهو في المثلِ كرجلٍ رزِق ثوبًا فأخَذ بطرفِه فلم يلبسْه.

قال فيلسوفٌ: إذا نازَعك إنسانٌ فلا تجبْه، فإنَّ الكلمةَ الأولَىٰ أنثَىٰ وإجابتَها فحلُها، وإن تركْت إجابتَها بترتَها وقطَعتَ نسلَها، وإن أجبتَها ألقحتَها؛ فكم من ولدٍ ينمو بينَهما في بطنٍ واحدٍ.

وقال فيلسوفٌ: إنَّ البعوضةَ تحيَا ما جاعَت وإذا شبِعت ماتتْ.

وقال ديوجانس: من أينَ تأكلُ؟ فقال: من حيثُ يأكلُ عبدٌ له ربٌّ.

وقال ديوجانس: كنِ كالعروسِ تريدُ البيتَ خاليًا.

قيل لأرسطوطاليس: إنَّ فلانًا عاقلٌ، قال: إذًا لا يفرحُ بالدنيا.

---

(١) جمع جُنَّة، وهو الساتر الواقي من الآفات.

وقيل لفيثاغورس: ما أملكَ فلانًا لنفسِه! قال: إذًا لا تصرعُه شهوتُه، ولا تخدعُه لذتُه.

ومدَح رجلٌ ثيودوروس علىٰ زهدِه في المالِ قال: وما حاجتِي إلىٰ شيءٍ البَحْتُ يأتي به، واللؤمُ يحفظُه، والنفقةُ تبددُه، إن قلَّ غلبَك الهمُّ بتكثيرِه، وإن كثرَ تقسمَك في حفظِه، يحسدُك مَن فاتَه ما عندَك، ويخدعُك عنه مَن يطمعُ فيه منك.

وقال أفلاطونُ: العلمُ مصباحُ النفسِ، ينفِي عنها ظلمةَ الجهلِ، فما أمكنَك أن تضيفَ إلىٰ مصباحِك مصباحَ غيرِك فافعلْ.

قيل لسقراطٍ: ما أحسنُ بالمرءِ أن يتعلمَه في صغرِه؟ قال: ما لا يسعُه أن يجهلَه في كبرِه.

قال أبو سليمانَ: ومن هاهنا أخَذ مَن قال: يحسنُ بالمرءِ التعلمُ ما حسنَتْ به الحياةُ.

وقيل للإسكندرِ: أيُّ شيءٍ أنت به أسرُّ؟ قال: قُوَّتِي علىٰ مكافأةِ مَن أحسنَ إليَّ بأحسنَ من إحسانِه.

وقال ديوجانس: إنَّ إقبالَك بالحديثِ علىٰ مَن لا يفهمُ عنك بمنزلةِ مَن وضَع المائدةَ علىٰ مقبرةٍ.

ورأىٰ ديوجانس رجلًا يأكلُ ويكثرُ، فقال له: يا هذا، ليست زيادةُ القوةِ بكثرةِ الأكلِ، وربَّما ورَد علىٰ بدنِك من ذلك الضررُ العظيمُ، ولكنَّ الزيادةَ في القوةِ بجودةِ ما يقبلُ بدنُك منه علىٰ الملاءمةِ.

وقال أفلاطونُ: لا يسوسُ النفوسَ الكثيرةَ علىٰ الحقِّ والواجبِ مَن لا يمكنُه أن يسوسَ نفسَه الواحدةَ.

وقال سقراطُ: النفسُ الفاضلةُ لا تطغَىٰ بالفرحِ، ولا تجزعُ من الترحِ، لأنَّها تنظرُ في كلِّ شيءٍ كما هو، لا تسلبُه ما هو له ولا تضيفُ إليه ما ليس منه، والفرحُ بالشيءِ إنَّما يكونُ بالنظرِ في محاسنِ الشيءِ دونَ مساوئِه، والترحُ إنَّما يكونُ بالنظرِ في مساوئِ الشيءِ دونَ محاسنِه، فإذا خلَص النظرُ من شوبِ الغلطِ فيما ينظرُ فيه انتفَىٰ الطغيانُ والجزعُ، وحصَل النظامُ وربعَ.

وقال: للقلبِ آفتانِ وهما الغمُّ والهمُّ، فالغمُّ يعرضُ منه النومُ، والهمُّ يعرضُ منه السهرُ، وذلك أن الهمَّ فيه فكرٌ في الخوفِ ممَّا سيكونُ، فمنه يغلبُ السهرُ؛ والغمُّ لا فكرَ فيه، لأنَّه إنَّما يحدثُ لمَا قد مضَىٰ وكان.

وقال ديوجانس لصاحبٍ له: اطلبْ في حياتِك هذه العلمَ والمالَ تملكْ بهما الناسَ، لأنَّك بينَ الخاصةِ والعامةِ، فالخاصةُ تعظمُك لفضلِك، والعامةُ تعظمُك لمالِك.

فقال الوزيرُ - حرَس اللهُ نفسَه -: ما أكثرَ رونقَ هذا الكلامِ! وما أعلَىٰ رتبتَه في كنِه العقلِ! اكتبْه لنا، بل اجمعْ لي جزءًا لطيفًا من هذه الفقرِ، فإنَّها تروحُ العقلَ في الفينةِ بعدَ الفينةِ، فإنَّ نورَ العقلِ ليس يشعُّ في كلِّ وقتٍ؛ بل يشعُّ مرةً ويبرقُ مرةً، فإذا شعَّ عمَّ نفعُه، وإذا برِق خصَّ نفعُه، وإذا خفيَ بطلَ نفعُه.

قلتُ: أفعلُ.

فقال: إن كان معَك شيءٌ آخرُ فاذكرْه، فإنَّ الحديثَ الحسنَ لا يُملُّ، وإنَّما

الملل يعرضُ بتكررِ الزمانِ، وضجرِ الحسِّ، ونزاعِ الطبعِ إلىٰ الجديدِ، ولهذا قيل: لكلِّ جديدٍ لذةٌ.

فحكيتُ: أنَّه لمَّا تقلَّد كسرَىٰ أنوشروانُ مملكتَه عكَف علىٰ الصبوحِ والغبوقِ، فكتَب إليه وزيرُه رقعةً يقولُ فيها: إنَّ في إدمانِ المَلِكِ ضررًا علىٰ الرعيةِ، والوجهُ تخفيفُ ذلك والنظرُ في أمورِ المملكةِ، فوقَّع المَلِكُ علىٰ ظهرِ الرقعةِ بالفارسيةِ بما ترجمتُه: يا هذا، إذا كانت سبلُنا آمنةً، وسيرتُنا عادلةً، والدنيا باستقامتِنا عامرةً، وعمالُنا بالحقِّ عاملةً، فلِمَ نمنعُ فرحةً عاجلةً؟!

قال الوزيرُ: مَن حدَّثك بهذا؟ قلتُ: أبو سليمانَ شيخُنا، قال: فكيف كان رضَاه عن هذا المَلِكِ في هذا القولِ؟

فقلتُ: اعترضَ، وقال أخطَأ من وجوهٍ:

أحدُها: أنَّ الإدمانَ إفراطٌ، والإفراطُ مذمومٌ.

وثانيها: أنَّه جهِل أنَّ أمنَ السبيلِ، وعدلَ السيرةِ، وعمارةَ الدنيا، والعملَ بالحقِّ، متىٰ لم يُوكَل بها الطرفُ الساهرُ، ولم تُحَطْ بالعنايةِ التامةِ، ولم تُحفَظْ بالاهتمامِ الجالبِ لدوامِ النظامِ، دبَّ إليها النقصُ، والنقصُ بابٌ للانتقاضِ، مزعزعٌ للدعامةِ.

وثالثُها: أنَّ الزمانَ أعزُّ من أن يبذَل في الأكلِ والشربِ والتلذذِ والتمتعِ، فإنَّ في تكميلِ النفسِ الناطقةِ باكتسابِ الرشدِ لها، وإبعادِ الغيِّ عنها ما يستوعبُ أضعافَ العمرِ، فكيف إذا كان العمرُ قصيرًا، وكان ما يدعو إليه الهوَىٰ كبيرًا!.

ورابعُها: أنَّه ذهَب عليه أنَّ الخاصةَ والعامةَ إذا وقَفت علىٰ استهتارِ الملكِ باللذاتِ، وانهماكِه في طلبِ الشهواتِ، ازدرتْه واستهانتْ به، وحدَّثت عنه بأخلاقِ الخنازيرِ وعاداتِ الحميرِ، واستهانةُ الخاصةِ والعامةِ بالنَّاظِر في أمرِها والقَيِّمِ بشأنِها متىٰ تكرَّرتْ علىٰ القلوبِ تطرَّقتْ إلىٰ اللسانِ، وانتشَرتْ في المحافلِ، والتفتَ بها بعضُهم إلىٰ بعضٍ وهذه مَكْسَرةٌ للهيبةِ، وقلةُ الهيبةِ رافعةٌ للحشمةِ، وارتفاعُ الحشمةِ باعثٌ علىٰ الوثبةِ، والوثبةُ غيرُ مأمونةٍ من الهلكةِ، وما خلا الملكَ من طامعٍ راصدٍ قطُّ، وليس ينبغِي للملكِ الحازمِ أن يظنَّ أنَّه لا ضدَّ له ولا منازعَ، وقد ينجُمُ الضدُّ والمنازعُ من حيثُ لا يحتسبُ، وما أكثرَ خجلَ الواثقِ! وما أقلَّ حزمَ الوامقِ! وما أقلَّ يقظةَ المائقِ[1]!.

وعلىٰ الضدِّ متىٰ كان السائسُ ذا تحفظٍ وبحثٍ، وتتبعٍ وحزمٍ، وإكبابٍ علىٰ لَمِّ الشعثِ، وتقويمِ الأَوَدِ، وسدِّ الخَللِ، وتعرفِ المجهولِ، وتحققِ المعلومِ، ورفعِ المنكرِ، وبثِّ المعروفِ، احترَسَتْ منه العامةُ والخاصةُ، واستشعَرتْ الهيبةَ، والتزمَتْ بينَها النَصَفَةَ، وكُفِيَتْ كثيرًا من معاناتِها ومراعاتِها، وإن كان للدولةِ راصدٌ للغرةِ، يئِس من نفوذِ الحيلةِ فيها، لأنَّ اللصَّ إذا رأىٰ مكانًا حصينًا وعهدَ عليه حراسًا، لم يحدِّثْ نفسَه بالتعرضِ له، وإنَّما يقصدُ قصرًا فيه ثُلْمَةً وبابًا إليه طريقٌ، والأعراضُ بالأسبابِ، وإذا ضعُف السببُ ضعُف العرضُ، وإذا انقطَع السببُ انقَطع العرضُ.

---

(١) المائق: الأحمق، والوامق: العاشق والمحب.

الليلةُ التاسعةَ عشرةَ

أيُّها الشيخُ - أطالَ اللهُ يدَك في الخيراتِ، وزادَ في همتِك رغبةً في اصطناعِ المكرماتِ، وأجرَاك علىٰ أحسنِ العاداتِ في تقديمِ طلابِ العلمِ وأهلِ البيوتاتِ، قد فرغتُ في الجزءِ الأولِ علىٰ ما رسمتَ في القيامِ به، وشرَّفتَني بالخوضِ فيه، وسردتُ في حواشيه أعيانَ الأحاديثِ التي خدمتُ بها مجلسَ الوزيرِ، ولم آلُ جهدًا في روايتِها وتقويمِها، ولم أحتجْ إلىٰ تعميةِ شيءٍ منها، بل زبرجتُ كثيرًا منها بناصعِ اللفظِ، مع شرحِ الغامضِ، وصلةِ المحذوفِ، وإتمامِ المنقوصِ، وحملتُه إليك علىٰ يدِ فائقِ الغلامِ، وأنا حريصٌ علىٰ أن أتبعَه بالجزءِ الثاني، وهو يصلُ إليك في الأسبوعِ إن شاءَ اللهُ تعالىٰ، وأنا أسألُك ثانيةً علىٰ طريقِ التوكيدِ، كما سألتُك أولًا علىٰ طريقِ الاقتراحِ، أن تكونَ هذه الرسالةُ مصونةً عن عيونِ الحاسدينَ العيابينَ، بعيدةً عن تناولِ أيدِي المفسدينَ المنافسينَ؛ فليس كلُّ قائلٍ يسلمُ، ولا كلُّ سامعٍ ينصفُ، ولا كلُّ متوسطٍ يصلحُ، ولا كلُّ قادمٍ يفسحُ له في المجلسِ عندَ القدومِ، والبليةُ مضاعفةٌ من جهةِ النظراءِ في الصناعةِ، وللحسدِ ثورانٌ في نفوسِ هذه الجماعةِ؛ وقلَّ مَن يجهدُ جهدَه في التقربِ إلىٰ رئيسٍ أو وزيرٍ، إلَّا جدَّ في إبعادِه من مرامِه كلُّ صغيرٍ وكبيرٍ، وهذا لأنَّ الزمانَ قد استحالَ عن المعهودِ، وجفَا عن القيامِ بوظائفِ الدياناتِ وعاداتِ أهلِ المروءاتِ؛ لأمورٍ

شرحُها يطولُ؛ وقد كان الناسُ يتقلَّبون في بسيطِ الشمسِ - أعني الدينَ - فغربتْ عنهم، فعاشُوا بنورِ القمرِ - أعني المروءةَ - فأفلَ دونَهم، فبَقوا في ظلماتِ البرِّ والبحرِ - أعني الجهلَ وقلةَ الحياءِ - فلا جرمَ أعضلَ الداءُ، وأشكلَ الدواءُ، وغلبَت الحيرةُ، وفقد المرشدُ، وقل المسترشدُ، واللهُ المستعانُ.

❁ ❁ ❁

وكان الوزيرُ رسَم بجمعِ كلماتٍ بوارعَ، قصارٍ جوامعَ، فكتبتُ إليه أشياءَ كنتُ أسمعُها من أفواهِ أهلِ العلمِ والأدبِ، علىٰ مرِّ الأيامِ، في السفرِ والحضرِ، وفيها قرعٌ للحسِّ، وتنبيهٌ للعقلِ، وإمتاعٌ للروحِ، ومعونةٌ علىٰ استفادةِ اليقظةِ، وانتفاعٌ في المقاماتِ المختلفةِ، وتمثلٌ للتجاربِ المخلفةِ، وامتثالٌ للأحوالِ المستأنفةِ... من ذلك:

الحمدُ للهِ مفتاحُ المذاهبِ.

البرُّ يستعبدُ الحرَّ.

القناعةُ عزُّ المعسرِ.

الصدقةُ كنزُ الموسرِ.

ما انقضَت ساعةٌ من أمسِك إلَّا ببضعةٍ من نفسِك.

درهمٌ ينفعُ خيرٌ من دينارٍ يضرُّ.

مَن سرَّه الفسادُ، ساءَه المعادُ.

الشقيُّ مَن جمَع لغيرِه فضنَّ علىٰ نفسِه بخيرِه.

زدْ من طولِ أمَلِكَ في قصرِ عملِك.

لا يغرنَّك صحةُ نفسِك، وسلامةُ أمسِك، فمدةُ العمرِ قليلةٌ، وصحةُ النفسِ مستحيلةٌ.

مَن لم يعتبرْ بالأيامِ، لم ينزجرْ بالملامِ.

مَن استغنَىٰ باللهِ عن الناسِ، أمِن من عوارضِ الإفلاسِ.

مَن ذكَر المنيةَ، نسيَ الأمنيةَ.

البخيلُ حارسُ نعمتِه، وخازنُ ورثتِه.

لكلِّ امرئٍ من دنياه، ما يعينُه علىٰ عمارةِ أخرَاه.

مَن ارتدَىٰ بالكفافِ، اكتسَىٰ بالعفافِ.

لا تخدعنَّك الدنيا بخدائعِها، ولا تفتننَّك بودائعِها.

رُبَّ حجةٍ، تأتي علىٰ مهجةٍ، ورُبَّ فرصةٍ، تؤدِّي إلىٰ غصةٍ.

كم من دمٍ سفَكه فمٌ، وكم إنسانٍ أهلَكه لسانٌ، وربَّ حرفٍ أدَّىٰ إلىٰ حتفٍ.

لا تفرِّطْ فتسقطْ.

الزمْ الصمتَ، وأخفِي الصوتَ.

مَن حسُنت مساعيه، طابَت مراعيه.

مَن أعزَّ فِلسَه، أذلَّ نفسَه.

مَن طالَ عدوانُه، زالَ سلطانُه.

مَن لم يستظهرْ باليقظةِ، لم ينتفعْ بالحفظةِ.

مَن استهدَىٰ الأعمَىٰ عميَ عن الهدَىٰ.

مَن اغترَّ بمحالِه، قصرَ في احتيالِه.

زوالُ الدولِ، باصطناعِ السفلِ.

مَن ترَك ما يعنيِه، دفَع إلىٰ ما لا يعنيِه.

ظلمُ العمالِ من ظلمةِ الأعمالِ.

مَن استشارَ الجاهلَ ضلَّ، ومَن جهِل موضعَ قدمِه زلَّ.

لا يغرنَّك طولُ القامةِ، مع قصرِ الاستقامةِ، فإنَّ الذرةِ مع صغرِها، أنفعُ من الصخرةِ علىٰ كبرِها.

تجرَّعْ من عدوِّك الغصةَ، إن لم تنلْ منه الفرصةَ، فإذا وجدتَها فانتهزْها قبلَ أن يفوتَك الدركُ، أو يصيبَك الفلكُ، فإنَّ الدنيا دولٌ تبنيها الأقدارُ، ويهدمُها الليلُ والنهارُ.

مَن زرَع الإحنَ، حصَد المحنَ.

مَن بعُد مطمعُه، قرُب مصرعُه.

الثعلبُ في إقبالِ جِدِّه، يغلبُ الأسدَ في استقبالِ شدِّه.

رُبَّ عطبٍ، تحتَ طلبٍ.

اللسانُ رِقُّ الإنسانِ.

من ثمرةِ الإحسانِ، كثرةُ الإخوانِ.

مَن سأَل ما لا يجبُّ، أجيبَ بما لا يحبُّ.

عنوانُ الشرفِ، حسنُ الخلفِ.

إن لم تَجْفُ، فقلَّما تصفُو.

لا يصبرْ علىٰ المروءةِ إلَّا ذو طبيعةٍ كريمةٍ.

ولمَّا قرأتُه علىٰ الوزيرِ - بلَّغه اللهُ آمالَه، وزكَّىٰ أعمالَه، وخفَّف عن قلبِه أثقالَه - قال: ما علمتُ أنَّ مثلَ هذا الحجمِ يحوِي هذه الوصايَا والملحَ؛ وهذه الكلماتُ الغررُ ما فيها ما يجبُّ أن يُحفَظَ، واللهِ لكأنَّها بستانٌ في زمانِ الخريفِ، لكلِّ عينٍ فيه منظرٌ، ولكلِّ يدٍ منه مقطفٌ، ولكلِّ فمٍ منه مذاقٌ، إذا فرَغت فأضفْ لي جزءًا أو جزءينِ أو ما ساعدَك عليه النشاطُ، فإنَّ موقعَها يحسنُ، وذكرَها يجملُ، وأثرَها يبقَىٰ، وفائدتَها تروَىٰ، وعاقبتَها تحمدُ. فقلتُ: السمعُ والطاعةُ.

الليلةُ العشرونَ

قال الوزيرُ: اكتبْ لي جزءًا من الأحاديثِ الفصيحةِ المفيدةِ، فكتبتُ: قال مالكُ بنُ عمارةَ اللخميُّ: كنتُ أجالسُ في ظلِّ الكعبةِ أيامَ الموسمِ عبدَ الملكِ بنَ مروانَ وقبيصةَ بنَ ذُؤَيْبٍ[١] وعروةَ بنَ الزبيرِ[٢]، وكنَّا نخوضُ في الفقهِ مرةً، وفي الذكرِ مرةً، وفي أشعارِ العربِ وآثارِ الناسِ مرةً، فكنتُ لا أجدُ عندَ أحدٍ منهم ما أجدُه عندَ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ من الاتساعِ في المعرفةِ، والتصرفِ في فنونِ العلمِ، والفصاحةِ والبلاغةِ، وحسنِ استماعِه إذا حُدِّثَ، وحلاوةِ لفظِه إذا حَدَّثَ، فخلوتُ معَه ذاتَ ليلةٍ فقلتُ: واللهِ إنِّي لمسرورٌ بك لمَا أشاهدُه من كثرةِ تصرفِك وحسنِ حديثِك، وإقبالِك علىٰ

---

(١) أبو سعيد الخزاعي المدني ثم الدمشقي، ولد عام الفتح سنة ثمان، كان ثقة مأمونا، كثير الحديث، وكان في مبدأ أمره معلم كتاب ثم أصبح رابع أربعة في الفقه والنسك هو وسعيد بن المسيب، وعبد الملك بن مروان، وعروة بن الزبير، قال مكحول: ما رأيت أحدا أعلم من قبيصة، وقال الشعبي: كان قبيصة أعلم الناس بقضاء زيد بن ثابت، توفي سنة سبع وثمانين.

(٢) أحد الفقهاء السبعة، وُلد سنة ثلاث وعشرين، كان ثقة، ثبتا، مأمونا، كثير الحديث فقيها، عالما، لم يدخل في شيء من الفتن، قال عمر بن عبد العزيز: ما أجد أعلم من عروة بن الزبير، وما أعلمه يعلم شيئا أجهله، توفي عروة سنة ثلاث وتسعين وهو ابن سبع وستين سنة.

جليسِك؛ فقال: إنَّك إن تعشْ قليلًا فسترَىٰ العيونَ طامحةً إليَّ، والأعناقَ قاصدةً نحوِي، فلا عليك أن تُعمِلَ إليَّ ركابَك.

فلمَّا أفْضَت إليه الخلافةُ شخصتُ أريدُه، فوافيتُه يومَ جمعةٍ وهو يخطبُ الناسَ، فتصديتُ له، فلمَّا وقعَت عينُه عليَّ، بَسَرَ[1] في وجهي، وأعرَض عنِّي، فقلتُ: لمْ يثبْتني معرفةً ولو عرَفني ما أظهَر نكرةً، لكنَّني لمْ أبرحْ مكاني حتىٰ قضيتُ الصلاةَ ودخَل، فلم ألبثْ أن خرَج الحاجبُ إليَّ فقال: مالكُ بنُ عمارةَ، فقمتُ، فأخَذ بيدي وأدخلني عليه، فلمَّا رآني مدَّ يدَه إليَّ وقال: إنَّك تراءيْت لي في موضعٍ لم يجزْ فيه إلَّا ما رأيتَ من الإعراضِ والانقباضِ، فمرحبًا وأهلًا وسهلًا، كيف كنتَ بعدَنا؟ وكيف كان مسيرُك؟

قلتُ: بخيرٍ وعلىٰ ما يحبُّه أميرُ المؤمنينَ.

قال: أتذكرُ ما كنتُ قلتُ لك؟

قلتُ: نعم، وهو الذي أعمَلني إليك.

فقال: واللهِ ما هو بميراثٍ ادعيْناه، ولا أثرٍ وعيْناه، ولكنِّي أخبرُك عن نفسِي خصالًا سَمَتْ بها نفسِي إلىٰ الموضعِ الذي ترَىٰ؛ ما لاحيتُ ذا ودٍّ ولا ذا قرابةٍ قطُّ، ولا شَمَتُّ بمصيبةِ عدوٍّ قطُّ، ولا أعرضتُ عن مُحَدِّثٍ حتىٰ ينتهيَ، ولا قصدتُ كبيرةً من محارمِ اللهِ متلذذًا بها وواثبًا عليها، وكنتُ من قريشٍ في بيتِها، ومن بيتِها في وسطِه، فكنتُ آملُ أن يرفعَ اللهُ منِّي، وقد فعَل، يا غلامُ، بوِّئْه منزلًا في الدارِ.

فأخَذ الغلامُ بيدي وقال: انطلقْ إلىٰ رحلِك؛ فكنتُ في أخفضِ حالٍ،

---

(١) نظر بوجه عابس كالح، وأظهر نكارة.

وأنعمِ بالٍ؛ وكان يسمعُ كلامي وأسمعُ كلامَه، فإذا حضَر عشاؤه أو غداؤه أتاني الغلامُ وقال: إن شئتَ صرتَ إلىٰ أميرِ المؤمنينَ فإنَّه جالسٌ، فأمشِي بلا حذاءٍ ولا رداءٍ فيرفعُ مجلسِي، ويقبلُ علىٰ محادثتِي، ويسألُني عن العراقِ مرةً، وعن الحجازِ مرةً، حتىٰ مضَتْ لي عشرونَ ليلةً، فتغدَّيتُ عندَه يومًا، فلمَّا تفرَّق الناسُ نهَضتُ للقيامِ، فقال: علىٰ رسلِك أيُّها الرجلُ، أيُّ الأمرينِ أحبُّ إليك: المقامُ عندَنا ولك النَصَفَةُ في المعاشرةِ والمجالسةِ مع المواساةِ، أم الشخوصُ ولك الحُبَاءُ والكرامةُ؟

فقلتُ: فارقتُ أهلي وولدي علىٰ أن أزورَ أميرَ المؤمنينَ، فإن أمَرني اخترتُ فناءَه علىٰ الأهلِ والولدِ.

قال: بل أرَىٰ لك الرجوعَ إليهم، فإنَّهم متطلِّعون إلىٰ رؤيتِك، فتجددْ بهم عهدًا ويجدِّدونَ بك مثلَه، والخيارُ في زيارتِنا والمقامُ فيهم إليك، وقد أمَرْنا لك بعشرينَ ألفِ دينارٍ، وكسَوناك وحمَلناك، أتُراني ملأتُ يدَك أبا نصرٍ؟ قلتُ: يا أميرَ المؤمنينَ، أرَاك ذاكرًا لمَا رويتَ عن نفسِك.

قال: أجلْ، ولا خيرَ فيمَن ينسَىٰ إذا وعَد، وَدِّعْ إذا شئتَ، صحِبتْك السلامةُ.

قال الوزيرُ: ما أحلَىٰ هذا الحديثِ!. اجمعْ لي جزءًا من رقائقِ العبادِ وكلامِهم اللطيفِ الحلوِ، فإنَّ مرامِيهم شريفةٌ، وسرائرَهم خالصةٌ، ومواعظَهم رادعةٌ، وذاك - أظنُّ - للدِّينِ الغالبِ عليهم، والتألُّهِ المؤثرِ فيهم؛ فالصدقُ مقرونٌ بمنطقِهم، والحقُّ موصولٌ بقصدِهم، ولستُ أجدُ هذا المعنَىٰ في كلامِ الفلاسفةِ.

قلتُ: أفعلُ إن شاءَ اللهُ.

الليلةُ الرابعةُ والعشرونَ

قصَدْنا بهذا الجزءِ الذي عطَفنا عليه من أحاديثِ الزهادِ وأصحابِ النسكِ إصلاحًا للنفسِ، وتهذيبًا للخلقِ، واقتداءً بمَن سبَق إلىٰ الخيرِ، واتباعًا لمَن قصَد النصحَ؛ فإنَّ فيه تنبيهًا حسنًا، وإرشادًا مقبولًا، وشرفُ الإنسانِ موقوفٌ علىٰ أن يكونَ فاتحًا لبابٍ من أبوابِ الخيرِ علىٰ نفسِه وعلىٰ غيرِه، فإن لم يكنْ ذلك فلا أقلَّ من أن يكونَ مقتفيًا لأثرِ مَن كان فاتحًا قبلَه؛ ومَن تقاعَس عن هذينِ الأمرينِ فهو الخاسرُ الذي جهِل قيمةَ نفسِه، وضلَّ عن غايةِ حياتِه، وحرِم التوفيقَ في إصابةِ رشدِه، واللهُ المستعانُ.

قال ابنُ مسعودٍ: لو عرَفتْ البهائمُ ما عرَفتُم ما أكلتُم سمينًا.

وقال أبو هريرةَ: اللهمَّ إنِّي أسألُك قلبًا قارًّا، ورزقًا دارًّا، وعملًا سارًّا.

وقال بعضُ السلفِ: اللهمَّ إنِّي أسألُك قلبًا شاكرًا، ولسانًا ذاكرًا، وبدنًا صابرًا.

وقال صالحُ بنُ مسمارٍ: لا أدرِي أنعمتُه عليَّ فيما بسَط لي أفضلُ، أم نعمتُه فيما زوَىٰ عنِّي، لأنَّه فيما بسَط لي أحيَاني، وفيما زوَىٰ عنِّي حمَاني، نظَر لي بما يزيدُ علىٰ نظرِي لنفسِي، وآتاني من عندِه أكثرَ ممَّا عندِي.

وقال اللهُ ﷻ - لموسَىٰ - عليه السلام: حبِّبْني إلىٰ عبادِي، قال: وكيف أحبِّبُك؟

قال: ذكِّرْهم آلائي ونَعمائِي.

وقال شدادُ بنُ حكيمٍ لبعضِ الواعظينَ: أيُّ شيءٍ تقولُ إذا جلَست علىٰ المنبرِ؟ قال: أذكرُهم آلاءَ اللهِ ليشكُروا، وأذكِّرُهم جفاءَهم ليتوبوا، وأخبرُهم عن إبليسَ وأعوانِه حتىٰ يحذَروا.

جاءَ رجلٌ إلىٰ حاتمٍ الزاهدِ بنميمةٍ، فقال: يا هذا أبطأتَ عنِّي وجئتَ بثلاثِ جناياتٍ؛ بغَّضتَ إليَّ الحبيبَ، وشغلتَ قلبيَ الفارغَ، وأعلقتَ نفسَك التهمةَ، وأنت آمِنٌ.

وكان خالدُ بنُ صفوانٍ يقولُ: قبولُ قولِ النمَّامِ شرٌّ من النميمةِ، لأنَّ النميمةَ دلالةٌ، والقبولَ إجازةٌ، وليس مَن دلَّ علىٰ شيءٍ كمَن قبِل وأجازَ.

وقال ابنُ السماكِ الواعظُ: يدركُ النمامُ بنميمتِه ما لا يدركُ الساحرُ بسحرِه.

وقال معمرٌ: ما نزَلت بعبدٍ نازلةٌ فكان مفزعَه إلىٰ اللهِ إلَّا فرَّج اللهُ عنه.

وقال عمرُ: ما أسألُ اللهَ الرزقَ وقد فرَغ منه، ولكن أسئلُه أن يباركَ لي فيه.

وقال مالكُ بنُ دينارٍ: الجلوسُ مع الكلبِ خيرٌ من الجلوسِ مع رفيقٍ سوءٍ.

وقال أبو هريرةَ: تهادُوا عبادَ اللهِ يتجددْ في قلوبِكم الودُّ، وتذهبْ السخيمةُ.

وقال حاتمٌ: صاحبُ الضغنِ غيرُ ذي دينٍ، والمغتابُ غيرُ ذي عبادةٍ،

والنمامُ غيرُ صدوقٍ، والحاسدُ غيرُ منصورٍ.

وقال بعضُ السلفِ: مَن استقصَىٰ عيوبَ الناسِ بقيِ بلا أصدقاءٍ.

وقال محمدُ بنُ واسعٍ: ينبغِي للرجلِ أن يكونَ مع المرأةِ كما يكونُ أهلُ المجنونِ مع المجنونِ، يحتمِلون منه كلَّ أذًىٰ ومكروهٍ.

قيل لمالكِ بنِ دينارٍ لو تزوجتَ؟ قال: لو استطعتُ لطلقتُ نفسي.

قال شقيقٌ: اشتريتُ بطيخةً لأمِّي، فلمَّا ذاقتها سخِطتْ، فقلتُ: يا أمِّي، علىٰ مَن تردِّينَ القضاءَ ومَن تلومينَ، أحارثُها أم مشتريها أم خالقُها؟ فأمَّا حارثُها ومشتريها فما لها ذنبٌ، فلا أراكِ تلومينَ إلَّا خالقَها.

ويقال: إنَّ عبدًا حبشيًّا ناولَه مولَاه شيئًا يأكلُه، فلمَّا أكَله وجَده مرًّا، فقال: يا غلامُ، كيف أكَلت هذا مع شدةِ مرارتِه، قال: يا مولايَ، قد أكلتُ من يدِك حلوًا كثيرًا، ولم أحبَّ أن أريَك من نفسِي كراهةً لمرارتِه.

وأوحَىٰ اللهُ تعالىٰ إلىٰ عزيرٍ: إذا نزلَتْ بك بليةٌ لا تشكُني إلىٰ خلقِي كما لم أشكُكَ إلىٰ ملائكتِي عندَ صعودِ مساوئِك إليَّ، وإذا أذنبتَ ذنبًا فلا تنظرْ إلىٰ صغرِه، ولكن انظرْ مَن أهديتَه إليه.

وقال لقمانُ: إنَّ الذهبَ يُجرَّبُ بالنارِ، وإنَّ المؤمنَ يجرَّبُ بالبلاءِ.

وقال بعضُ السلفِ: عليكم بالصبرِ فإنَّ اللهَ تعالىٰ قال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾. وقال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. وقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾. وقال: ﴿ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟﴾. وقال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾.

وقال الأوزاعيُّ: المؤمنُ يقلُّ الكلامَ ويكثرُ العملَ، والمنافقُ يكثرُ الكلامَ ويقلُّ العملَ.

وقال الفضيلُ بنُ عياضٍ: الخوفُ ما دامَ الرجلُ صحيحًا أفضلُ، فإذا نزَل الموتُ فالرجاءُ أفضلُ.

وقيل لابنِ المباركِ: إنَّك لتحفظُ نفسَك من الغيبةِ، قال: لو كنتُ مغتابًا أحدًا لاغتبتُ والديَّ، لأنهما أحقُّ بحسناتي.

وقال شقيقٌ: مَن أبصَر ثوابَ الشدةِ لم يتمنَّ الخروجَ منها.

وقال شقيقٌ لأصحابِه: أيُّما أحبُّ إليكم: أن يكونَ لكم شيءٌ علىٰ الملإِ، أو يكون شيءٌ للملإِ عليكم؟ فقالوا: بل نحبُّ أن يكونَ لنا علىٰ الملإِ، فقال: إذا كنتم في الشدةِ يكونُ لكم علىٰ اللهِ، وإذا كنتم في النعمةِ يكونُ للهِ عليكم.

وقال بعضُ السلفِ: شتَّانَ ما بينَ عملينِ: عملٍ تذهبُ لذتُه وتبقَىٰ تبعتُه، وعملٍ تذهبُ مؤنتُه ويبقَىٰ ذخرُه.

وقال الرقاشيُّ في مواعظِه: خذوا الذهبَ من الحجرِ، واللؤلؤَ من المزبلةِ.

وقال يحيَىٰ بنُ معاذٍ: العلمُ قبلَ العملِ، والعقلُ قائدُ الخيرِ، والهوَىٰ مركبُ المعاصي، والمالُ داءُ المتكبرِ.

وقال بعضُ الصالحينَ: إنَّ العلماءَ يُسْقُون الناسَ، فبعضُهم من الغدرانِ والحياضِ، وبعضُهم من العيونِ والقُلُبِ، وبعضُهم من البحارِ الواسعةِ.

وقال حاتمٌ: لا تنظرْ إلىٰ مَن قال، ولكن انظرْ إلىٰ ما قال.

وقال مالكُ بنُ دينارٍ: إنِّي لا أقدرُ أن أعملَ بجميعِ ما أقولُ.

وقال وهيبُ بنُ الوردِ: مثلُ عالمِ السوءِ كمثلِ الحجرِ يقعُ في الساقيةِ فلا هو يشربُ الماءَ، ولا يخلِّي عن الماءِ فيذهبُ إلىٰ الشجرةِ.

وقال الثوريُّ: نعوذُ باللهِ من فتنةِ العالمِ الفاجرِ، وفتنةِ القائدِ الجاهلِ.

وقال الثوريُّ: العالمُ طبيبُ الدينِ، والمالُ داؤُه، فإذا رأيتَ الطبيبَ يجرُّ الداءَ إلىٰ نفسِه فكيف يعالجُ غيرَه.

وقال عيسىٰ بنُ مريمَ: ما ينفعُ الأعمَىٰ ضوءُ الشمسِ ولا يبصرُها.

وقال أحمدُ بنُ حربٍ: إنَّ منازلَ الدنيا لا تقطَعُ بالكلامِ، فكيفَ يقطُعُ طريقُ الآخرةِ بالكلامِ.

وقال أبو مسلمٍ الخولانيُّ: العلماءُ ثلاثةٌ: رجلٌ عاشَ بعلمِه وعاشَ به الناسُ، ورجلٌ عاشَ بعلمِه ولم يعشْ به الناسُ، ورجلٌ عاشَ بعلمِه الناسُ وهلَك هو.

وشاورَ رجلٌ محمدَ بنَ أسلمٍ فقال: إنِّي أريدُ أن أزوجَ بنتِي، فبمَن أزوجُ؟ قال: لا تزوجْها عالمًا مفتونًا، ولا كاسبًا كاذبًا، ولا عابدًا شاكًّا.

قيل: نصَح إبليسُ فقال: إيَّاك والكبرَ، فإنِّي تكبرتُ فلُعِنتُ؛ وإيَّاك والحرصَ فإنَّ أبَاك حرَص علىٰ أكلِ الشجرةِ فأُخرِجَ من الجنةِ، وإيَّاك والحسدَ فإنَّ أحدَ بني آدمَ قتَل أخَاه بالحسدِ.

ومرَّ حاتمٌ بقومٍ يكتبونَ العلمَ فنظَر إليهم وقال: إن يكن معكم ثلاثةُ أشياءَ لن تفلِحوا، قالوا: وما هي؟ قال: همُّ أمسٍ، واغتمامُ اليومِ، وخوفُ الغدِ.

وقال حاتمٌ: لو أُدخِلتْ السوقَ شياهٌ كثيرةٌ لمَا اشترَىٰ أحدٌ المهزولَ، بل يقصِدُ السمينَ للذبحِ.

وقال يحيىٰ بن معاذٍ: في القلبِ عيونٌ يهيجُ منها الخيرُ والشرُّ.

وقال قاسمُ بنُ محمدٍ: لأن يعيشَ الرجلُ جاهلًا خيرٌ له من أن يقولَ ما لا يعلمُ.

وقال الشعبيُّ: لم يكنْ مجلسٌ أحبَّ إليَّ من هذا المجلسِ، ولأن أُبْعَد اليومَ عن بساطِه أحبُّ إليَّ من أن أحبَس فيه.

وقال حاتمٌ: إذا رأيتَ من أخيك عيبًا فإن كتمتَه عليه فقد خنتَه، وإن قلتَه لغيرِه فقد اغتبتَه، وإن واجهتَه به فقد أوحشتَه، قيل له: كيف أصنعُ؟ قال: تكنِّي عنه، وتعرِّضُ به، وتجعلُه في جملةِ الحديثِ.

وقال: إذا رأيتَ من أخيك زلةً فاطلبْ لها سبعينَ وجهًا من العللِ، فإن لم تجدْ فلُمْ نفسَك.

وقال إبراهيمُ بنُ جنيدٍ: اتخذْ مرآتينِ، وانظرْ في إحداهما عيبَ نفسِك، وفي الأخرَىٰ محاسنَ الناسِ.

وقال يحيىٰ بنُ معاذٍ: الدنيا دارُ خرابٍ، وأخربُ منها قلبُ مَن يعمرُها، والآخرةُ دارُ عمرانٍ، وأعمرُ منها قلبُ مَن يعمرُها.

وقال ابنُ السماكِ: الدنيا كالعروسِ المجلوةِ تشوفَّتْ لخطابِها وفتَنتْ بغرورِها، فالعيونُ إليها ناظرةٌ، والقلوبُ عليها والهةٌ؛ والنفوسُ لها عاشقةٌ، وهي لأزواجِها قاتلةٌ.

وقال بعضُ العارفينَ: الدنيا أربعةُ أشياءَ: الفرحُ والراحةُ والحلاوةُ واللذةُ؛ فالفرحُ بالقلبِ، والراحةُ بالبدنِ، واللذةُ بالحلقِ، والحلاوة بالعينِ.

وقال يحيىٰ بنُ معاذٍ: الدنيا خمرُ الشيطانِ، فمَن سكِر منها لم يفقْ إلَّا في مسكنِ النادمينَ.

وقال بعضُ السلفِ: الزهدُ خلعُ الراحةِ، وبذلُ الجهدِ، وقطعُ الأملِ.

وقال الأنطاكيُّ أحمدُ بنُ عاصمٍ: الزهدُ هو الثقةُ باللهِ، والتبرؤُ من الخلقِ، والإخلاصُ في العملِ، واحتمالُ الذلِّ.

وقال آخرُ: الإنسانُ بينَ رزقِه وأجلِه، إلَّا أنَّه مخدوعٌ بأملِه.

وقال عيسىٰ بنُ مريمَ عليه السلام: خلَقك ربُّك في أربعِ مراتبَ، فكنتَ آمنًا ساكنًا في ثلاثٍ، وقلقلتَ في الرابعةِ؛ أولَاها في بطنِ أمِّك في ظلماتٍ ثلاثٍ، والثانيةُ حينَ أخرَجك منه وأخرَج لك لبنًا من بينِ فرثٍ ودمٍ، والثالثةُ إذا فطِمتَ أطعَمك المريَّ الشهيَّ، حتىٰ إذا اشتدَّت عظامُك وبلغتَ تمامَك صرتَ خائنًا وأخَذت في السرقةِ والحيلةِ.

وقال أنسٌ: رأيتُ طائرًا أكمهَ فتَح فَاه فجاءتْ جرادةٌ فدخَلتْ فمَه.

وقال عيسىٰ عليه السلام يا ابنَ آدمَ اعتبرْ رزقَك بطيرِ السماءِ، لا يزرعنَ ولا يحصدنَ وإلهُ السماءِ يرزقُهن، فإن قلتَ: لها أجنحةٌ فاعتبرْ بحمرِ الوحشِ وبقرِ الوحشِ ما أسمنَها وما أبشمَها وأبدنَها!

وقال ابنُ السمَّاكِ لو قال العبدُ: يا ربِّ لا ترزقْني لقال اللهُ: بل أرزقُك

علىٰ رغمِ أنفِك، ليس لك خالقٌ غيري، ولا رازقٌ سوايَ، إن لم أرزقْك فمَن يرزقُك؟

وقال حاتمٌ: الحمارُ يعرفُ طريقَ المعلفِ، والمنافقُ لا يعرفُ طريقَ السماءِ.

وقال حاتمٌ: مثلُ المتوكلِ مثلُ رجلٍ أسنَد ظهرَه إلىٰ جبلٍ.

وقال بعضُ الأبرارِ: حسبُك من التوكلِ ألَّا تطلبَ لنفسِك ناصرًا غيرَه، ولا لرزقِك خازنًا غيرَه، ولا لعملِك شاهدًا غيرَه.

وقال عبدُ الحميدِ بنُ عبدِ العزيزِ: كان لأبي صديقٌ ورَّاقٌ، فقال له أبي يومًا: كيف أصبحتَ؟ قال: بخيرٍ ما دامتْ يدي معي، فأصبَح الورَّاقُ وقد شُلَّتْ يدُه.

قال أبو العاليةِ: لا تتَّكلْ علىٰ غيرِ اللهِ فيكلَك اللهُ إليه، ولا تعملْ لغيرِ اللهِ فيجعلَ ثوابَ عملِك عليه.

وقيل لفضيلٍ: إنَّ فلانًا يقعُ فيك، فقال: لأغيظنَّ مَن أمَره بذلك اللهمَّ اغفرِ له.

قال الحسنُ: ما جزعةٌ أحبُّ إليَّ من جزعةٍ مصيبةٍ ردَّها صاحبُها بصبرٍ، وجزعةِ غضبٍ ردَّها صاحبُها بحلمٍ.

وكان محمدُ بنُ المنكدرِ إذا غضِب علىٰ غلامِه يقولُ: ما أشبهَك بسيدِك!

وقال أبو ذرٍّ: كيف يكونُ حليمًا مَن يغضبُ علىٰ حمارِه وسخلِه وهرِّه.

قال وهبٌ: مكتوبٌ في الكتبِ القديمةِ: إن كنتم تريدونَ رحمتي فارحَموا عبادي.

وقال جعفرُ بنُ محمدٍ: حسنُ الجوارِ عمارةُ الديارِ، ومثراةُ المالِ.

دعا بعضُ السلفِ: اللهمَّ إنَّ قلبي وناصيتي بيدِك لم تملِّكْني منهما شيئًا، وإذ فعَلت ذلك فكنْ أنت وليَّهما، فاهدنا سواءَ السبيلِ.

ودعَا بعضُ الصالحينَ: اللهمَّ ما كان لي من خيرٍ فإنَّك قضيتَه ويسرتَه وهديتَه، فلا حمدَ لي عليه، وما كان منِّي من سوءٍ فإنَّك وعظتَ وزجرتَ ونهيتَ فلا عذرَ لي فيه ولا حجةَ.

ودعَا آخرُ: اللهمَّ إنِّي أعوذُ بك من سلطانٍ جائرٍ، ونديمٍ فاجرٍ، وصديقٍ غادرٍ، وغريمٍ ماكرٍ، وقريبٍ مناكرٍ، وشريكٍ خائنٍ، وحليفٍ مائنٍ، وولدٍ جافٍ، وخادمٍ هافٍ، وحاسدٍ ملافظٍ، وجارٍ ملاحظٍ، ورفيقٍ كسلانَ، وخليلٍ وسنانَ، وزوجةٍ مبذرةٍ، ودارٍ ضيقةٍ.

قال المدائنيُّ: قال بعضُ السلفِ لابنِه: اشحذْ طبعَك بالعيونِ والفقرِ وإن قلت، فإنَّ الشجرةَ لا يشينُها قلةُ الحملِ إذا كان ثمرُها نافعًا، وأكلُها ناجعًا.

وقيل للأوزاعيِّ: ما كرامةُ الضيفِ؟ قال: طلاقةُ الوجهِ.

قال مجاهدٌ في قولِ اللهِ تعالىٰ: ﴿ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ قال: قيامُه عليهم بنفسِه.

وقال عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ: ليس من المروءةِ أن تستخدمَ الضيفَ.

وقال إبراهيمُ بنُ الجنيدِ: أربعٌ للشريفِ لا ينبغِي أن يأنفَ منهنَّ وإن كان أميرًا؛ قيامُه من مجلسِه لأبيه، وخدمتُه لضيفِه، وخدمتُه للعالمِ يتعلمُ منه، وإن سئِل عمَّا لا يعلمُ أن يقولُ: لا أعلمُ.

كان حاتمٌ يقولُ: العجلةُ من الشيطانِ إلَّا في خمسةِ أشياءَ، فإنَّها من السنةِ؛ إطعامُ الضيفِ إذا حلَّ، وتجهيزُ الميتِ، وتزويجُ البكرِ، وقضاءُ الدَّينِ، والتوبةُ من الذنبِ.

ولما قرأتُ هذا الجزءَ - حرَسه اللهُ - ارتاحَ وقال: أين نحنُ من هذه الطريقةِ، إلىٰ اللهِ المشتكَىٰ.

الليلةُ الخامسةُ والعشرونَ

قال الوزيرُ - أدامَ اللهُ دولتَه - ليلةً: أحبُّ أن أسمعَ كلامًا في مراتبِ النظمِ والنثرِ، وإلىٰ أيِّ حدٍّ ينتهيانِ، وعلىٰ أيِّ شكلٍ يتَّفقانِ، وأيُّهما أجمعُ للفائدةِ، وأرجعُ بالعائدةِ، وأدخلُ في الصناعةِ، وأولىٰ بالبراعةِ؟

فكان الجوابُ: قد قال الناسُ في هذينِ الفنَّينِ ضروبًا من القولِ لم يبعدوا فيها من الوصفِ الحسنِ، والإنصافِ المحمودِ، والتنافسِ المقبولِ، إلَّا ما خالطَه من التعصبِ والمَحَك، لأنَّ صاحبَ هذين الخُلقَينِ لا يخلو من بعضِ المكابرةِ والمغالطةِ، وبقدرِ ذلك يصيرُ له مدخلٌ فيما يرادُ تحقيقُه من بيانِ الحجةِ أو قصورِها عمَّا يرامُ من البلوغِ بها، وهذه آفةٌ معترضةٌ في أمورِ الدينِ والدنيا، ولا مطمعَ في زوالِها، لأنَّها ناشئةٌ من الطبائعِ المختلفةِ، والعاداتِ السيئةِ، لكنِّي مع هذه الشوكةِ الحادةِ، والخطةِ الكادةِ أقولُ ما وعيتُه عن أربابِ هذا الشأنِ، والمنتمَينِ لهذا الفنِّ، وإن عنَّ شيءٌ يكونُ شكلًا لذلك وصلتُه به تكميلًا للشرحِ، واستيعابًا للبابِ، وصمدًا[1] للغايةِ، وأخذًا بالحياطةِ، وإن كان المنتهَىٰ منه غيرَ مطموعٍ فيه، ولا موصولٍ إليه، واللهُ المعينُ.

---

(١) صمدًا للغاية: أي قصدا إليها.

فالكلامُ ينبعثُ في أولِ مبادئِه إمَّا من عفوِ البديهةِ، وإمَّا من كَدِّ الرويةِ، وإمَّا أن يكونَ مركبًا منهما، وفيه قواهما بالأكثرِ والأقلِ؛ ففضيلةُ عفوِ البديهةِ أنَّه يكونُ أصفَىٰ، وفضيلةُ كدِّ الرويةِ أنَّه يكونُ أشفَىٰ، وفضيلةُ المركَّبِ منهما أنَّه يكونُ أوفَىٰ؛ وعيبُ عفوِ البديهةِ أن تكونَ صورةُ العقلِ فيه أقلَّ؛ وعيبُ كدِّ الرويةِ أن تكونَ صورةُ الحسِّ فيه أقلَّ، وعيبُ المركبِ منهما بقدرِ قسطِه منهما: الأغلبُ والأضعفُ؛ علىٰ أنَّه إن خلَص هذا المركبُ من شوائبِ التكلفِ، وشوائنِ التعسفِ، كان بليغًا مقبولًا رائعًا حلوًا، تحتضنُه الصدورُ، وتختلسُه الآذانُ، وتنتهبُه المجالسُ، ويتنافسُ فيه المنافسُ بعدَ المنافسِ، والتفاضلُ الواقعُ بينَ البلغاءِ في النظمِ والنثرِ، إنَّما هو في هذا المركَّبِ الذي يسمَّىٰ تأليفًا ورصفًا؛ وقد يجوزُ أن تكونَ صورةُ العقلِ في البديهةِ أوضحَ، وأن تكونَ صورةُ الحسِّ في الرويةِ ألوحَ إلَّا أنَّ ذلك من غرائبِ آثارِ النفسِ، ونوادرِ أفعالِ الطبيعةِ، والمدارُ علىٰ العمودِ الذي سلَف نعتُه، ورسَا أصلُه.

وسمعتُ أبا عائذٍ الكرخيَّ صالحَ بنَ عليٍّ يقولُ: النثرُ أصلُ الكلامِ، والنظمُ فرعُه؛ والأصلُ أشرفُ من الفرعِ، والفرعُ أنقصُ من الأصلِ، لكن لكلٍّ واحدٍ منهما زائناتٌ وشائناتٌ، فأمَّا زائناتُ النثرِ فهي ظاهرةٌ، لأنَّ جميعَ الناسِ في أولِ كلامِهم يقصدونَ النثرَ، وإنَّما يتعرضونَ للنظمِ في الثاني بداعيةٍ عارضةٍ، وسببٍ باعثٍ، وأمرٍ معينٍ.

قال: ومن شرفِ النثرِ أيضًا أنَّ الكتبَ القديمةَ والحديثةَ النازلةَ من السماءِ علىٰ ألسنةِ الرسلِ بالتأييدِ الإلهيِّ مع اختلافِ اللغاتِ كلِّها منثورةٌ مبسوطةٌ، متباينةُ الأوزانِ، متباعدةُ الأبنيةِ، مختلفةُ التصاريفِ، لا تنقادُ للوزنِ، ولا

تدخلُ في الأعاريضِ، هذا أمرٌ لا يجوزُ أن يقابلَه ما يدحضُه، أو يعترضَ عليه بما يحْرِضُه[١].

قال: ومن شرفِه أيضًا أنَّ الوحدةَ فيه أظهرُ، وأثرَها فيه أشهرُ، والتكلفَ منه أبعدُ، وهو إلىٰ الصفاءِ أقربُ، ولا توجدُ الوحدةُ غالبةً علىٰ شيءٍ إلَّا كان ذلك دليلًا علىٰ حسنِ ذلك الشيءِ وبقائِه، وبهائِه ونقائِه.

قال: ومن فضيلةِ النثرِ أيضًا كما أنَّه إلهيٌّ بالوحدةِ، كذلك هو طبيعيٌّ بالبدأةِ، والبدأةُ في الطبيعياتِ وحدةٌ، كما أنَّ الوحدةَ في الإلهياتِ بدأةٌ، وهذا كلامٌ خطيرٌ.

قال: ألا ترَىٰ أنَّ الإنسانَ لا ينطقُ في أولِ حالِه من لدنْ طفوليتِه إلىٰ زمانٍ مديدٍ إلَّا بالمنثورِ المتبددِ، والميسورِ المترددِ، ولا يلهمُ إلَّا ذاك، ولا يناغَىٰ إلَّا بذاك، ولبس كذلك المنظومُ، لأنَّه صناعيٌّ؛ ألا ترَىٰ أنَّه داخلٌ في حصارِ العروضِ، وأسرِ الوزنِ، وقيدِ التأليفِ، مع توقِّي الكسرِ، واحتمالِ أصنافِ الزحافِ، لأنَّه لمَّا هبَطت درجتُه عن تلك الربوةِ العاليةِ، دخَلتْه الآفةُ من كلِّ ناحيةٍ.

قال: فإن قيل: إنَّ النظمَ قد سبَق العروضَ بالذوقِ، والذوقُ طباعيٌّ؛ قيل في الجوابِ: الذوقُ وإن كان طباعيًّا فإنَّه مخدومُ الفكرِ، والفكرُ مفتاحُ الصنائعِ البشريةِ، كما أنَّ الإلهامَ مستخدِمٌ للفكرِ، والإلهامَ مفتاحُ الأمورِ الإلهيةِ.

---

(١) يحرضه: أي يفسده.

قال: ومن شرفِ النثرِ أيضًا أنَّه مبرَّأٌ من التكلفِ، منزَّهٌ عن الضرورةِ، غنيٌّ عن الاعتذارِ والافتقارِ، والتقديمِ والتأخيرِ، والحذفِ والتكريرِ، وما هو أكثرُ من هذا ممَّا هو مدوَّنٌ في كتبِ القوافي والعروضِ لأربابِها الذين استنفَدوا غايتَهم فيها.

وقال عيسىٰ الوزيرُ: النثرُ من قبلِ العقلِ، والنظمُ من قبلِ الحسِّ، ولدخولِ النظمِ في طيِّ الحسِّ دخَلتْ إليه الآفةُ، وغلَبتْ عليه الضرورةُ، واحتِيجَ إلىٰ الإغضاءِ عمَّا لا يجوزُ مثلُه في الأصلِ الذي هو النثرُ.

وقال ابنُ طرَّارةَ - وكان من فصحاءِ أهلِ العصرِ بالعراقِ -: النثرُ كالحُرةِ، والنظمُ كالأمةِ، والأمةُ قد تكونُ أحسنَ وجهًا، وأدمثَ شمائلَ، وأحلَىٰ حركاتٍ؛ إلَّا أنَّها لا توصفُ بكرمِ جوهرِ الحرةِ، ولا بشرفِ عِرْقِها، وعِتْقِ نفسِها، وفضلِ حيائِها.

وقال: ولشرفِ النثرِ قال اللهُ تعالىٰ في التنزيلِ: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ ولم يقل: لؤلؤا منظوما، ونجومُ السماءِ منتشرةٌ وإن كان انتشارُها علىٰ نظامٍ، إلَّا أنَّ نظامَها في حدِّ العقلِ، وانتشارَها في حدِّ الحسِّ، لأنَّ الحكمةَ إذا غطيتْ نفسَها كانت الغلبةُ للصورةِ القائمةِ بالقدرةِ.

ويقال: كنَّا في نثارِ فلانٍ، ولا يقال: كنَّا في نظامِ فلانٍ.

وقال ابنُ هندُو الكاتبُ: إذا نُظِر في النظمِ والنثرِ علىٰ استيعابِ أحوالِهما وشرائطِهما، والاطلاعِ علىٰ هواديهِما وتواليهِما كان أنَّ المنظومَ فيه نثرٌ من وجهٍ، والمنثورَ فيه نظمٌ من وجهٍ، ولولا أنَّهما يستهمانِ هذا النعتَ لمَا ائتلفا ولا اختلفا.

وقال ابنُ كعبٍ الأنصاريِّ: من شرفِ النثرِ أنَّ النبيَّ ﷺ لم ينطقْ إلَّا به آمرًا وناهيًا، ومستخبرًا ومخبِرًا، وهاديًا وواعظًا، وغاضبًا وراضيًا، وما سُلِبَ النظمُ إلَّا لهبوطِه عن درجةِ النثرِ، ولا نَزِه عنه إلَّا لمَا فيه من النقصِ، ولو تساويَا لنُطِقَ بهما، ولمَّا اختَلفا خصَّ بأشرفِهما الذي هو أجولُ في جميعِ المواضعِ، وأجلبُ لكلِّ ما يطلبُ من المنافعِ.

فهذا قليلٌ من كثيرٍ ممَّا يكونُ تبصرةً لباغِي هذا الشأنِ، ولمَن يتوخَّىٰ حديثَه عندَ كلِّ إنسانٍ.

وأمَّا ما يفضَّلُ به النظمُ علىٰ النثرِ فأشياءُ سمعنَاها من هؤلاءِ العلماءِ الذين كانت سماءُ علمِهم درورًا، وبحرُ أدبِهم متلاطمًا، وروضُ فضلِهم مزدهرًا، وشمسُ حكمتِهم طالعةً، ونارُ بلاغتِهم مشتعلةً، وأنا آتِي علىٰ ما يحضرُني من ذلك، منسوبًا إليهم، ومحسوبًا لهم، ليكونَ حقُّهم به مَقضيًّا، وذكرُهم علىٰ مرِّ الزمانِ طريًّا.

قال السلاميُّ: من فضائلِ النظمِ أن صارَ لنا صناعةً برأسِها، وتكلَّم الناسُ في قوافيها، وتوسَّعوا في تصاريفِها وأعاريضِها، وتصرَّفوا في بحورِها، واطَّلعوا علىٰ عجائبِ ما استخزِنَ فيها من آثارِ الطبيعةِ الشريفةِ، وشواهدِ القدرةِ الصادقةِ، وما هكذا النثرُ، فإنَّه قصُر عن هذه الذروةِ الشامخةِ، والقُلَّةِ العاليةِ، فصار بذلك بذلةً لكافةِ الناطقينَ من الخاصةِ والعامةِ والنساءِ والصبيانِ.

وقال أيضًا: من فضائلِ النظمِ أنَّه لا يُغَنَّىٰ ولا يُحْدَىٰ إلَّا بجيدِه ولا يؤهلَ للحنِ الطنطنةِ، ولا يُحَلَّىٰ بالإيقاعِ الصحيحِ غيرُه، لأنَّ الطنطناتِ والنقراتِ،

والحركاتِ والسكناتِ، لا تتناسبُ إلَّا بعدَ اشتمالِ الوزنِ والنظمِ عليها، ولو كان فعلُ هذا بالنثرِ كان منقوصًا، كما لو لم يفعلْ هذا بالنظمِ لكانَ محسوسًا؛ والغناءُ معروفُ الشرفِ، عجيبُ الأثرِ، عزيزُ القدرِ، ظاهرُ النفعِ في معاينةِ الروحِ، ومناغاةِ العقلِ، وتنبيهِ النفسِ، واجتلابِ الطربِ، وتفريجِ الكربِ، وإثارةِ الهزةِ، وإعادةِ العزةِ، وإذكارِ العهدِ، وإظهارِ النجدةِ، واكتسابِ السلوةِ، وما لا يحصَىٰ عددُه.

ويقال: ما أحسنَ هذه الرسالةَ لو كانَ فيها بيتٌ من الشعرِ، ولا يقال: ما أحسنَ هذا الشعرَ لو كان فيه شيءٌ من النثرِ، لأنَّ صورةَ المنظومِ محفوظةٌ، وصورةَ المنثورِ ضائعةٌ.

وقال ابنُ نباتةَ: من فضلِ النظمِ أنَّ الشواهدَ لا توجدُ إلَّا فيه، والحججُ لا تؤخذُ إلَّا منه، أعنِي أنَّ العلماءَ والحكماءَ والفقهاءَ والنحويينَ واللغويينَ يقولُون: (قال الشاعرُ...) و (هذا كثيرٌ في الشعرِ...) و(الشعرُ قد أتَىٰ به..)، فعلىٰ هذا: الشاعرُ هو صاحبُ الحجةِ، والشعرُ هو الحجةُ.

وقال الخالعُ: للشعراءِ حلبةٌ، وليس للبلغاءِ حلبةٌ، وإذا تتَّبعتَ جوائزَ الشعراءِ التي وصَلت إليهم من الخلفاءِ وولاةِ العهودِ والأمراءِ والولاةِ في مقاماتِهم المؤرَّخةِ، ومجالسِهم الفاخرةِ، وأنديتِهم المشهورةِ، وجَدتها خارجةً عن الحصرِ، بعيدةً من الإحصاءِ، وإذا تتبَّعتَ هذه الحالَ لأصحابِ النثرِ لم نجدْ شيئًا من ذلك، والناسُ يقولون: ما أكملَ هذا البليغَ لو قرَض الشعرَ! ولا يقولون: ما أشعرَ هذا الشاعرَ لو قدرَ علىٰ النثرِ! وهذا لِغِنَىٰ الناظمِ عن الناثرِ،

وفقرِ الناثرِ إلىٰ الناظمِ، وقد قدمَ الناسُ أبا عليٍّ البصيرَ علىٰ أبي العيناءِ[١]، لأنَّ أبا عليٍّ جمَع بينَ الفضيلتينِ، وضرَب بالسيفينِ في الحومتينِ، وفَاز بالقدحينِ المعلينِ في المكانينِ.

وقال لنا الأنصاريُّ: سمِعت ابنَ ثوابةَ الكاتبَ يقولُ: لو تصفَّحنا ما صار إلىٰ أصحابِ النثرِ من كتابِ البلاغةِ، والخطباءِ الذين ذبُّوا عن الدولةِ، وتكلَّموا في صنوفِ أحداثِها وفنونِ ما جرَىٰ الليلُ والنهارُ به، مما فُتِقَ به الرَّتْقُ، ورُتِقَ به الفَتْقُ، وأصلِح به الفاسدُ، ولُمَّ به الشعثُ، وقُرِّب به البعيدُ، وبُعِّد به القريبُ، وحُقِّق به الحقُّ، وأُبْطِل به الباطلُ، لكان يُوفِي علىٰ كلِّ ما صَار إلىٰ جميعِ مَن قال الشعرَ ولَاك القصيدَ، ولهَج بالقريضِ، واستمَاح

---

(١) **أبو العيناء** هو محمد بن القاسم، صاحب النوادر والشعر والأدب، نشأ بالبصرة، سمع من أبي عبيدة والأصمعي وغيرهم وكان من أحفظ الناس وأفصحهم لسانا، أضر بعد الأربعين وكان من ظرفاء العالم، وفيه من سرعة الجواب والذكاء ما لم يكن في أحد من نظرائه، وحضر يوما مجلس بعض الوزراء فتفاوضوا في البرامكة وكرمهم وما كانوا عليه من السخاء والجود، وبالغ أبو العيناء في وصفهم وما كانوا عليه من البذل، فقال الوزير: قد أكثرت يا أبا العيناء من ذكرهم، ووصفك إياهم، وإنما هذا تصنيف الوراقين، وكذب المؤلفين، فقال له أبو العيناء: فلم لا يكذب الوراقون عليك أيها الوزير؟ فسكت الوزير وعجب الحاضرون من إقدامه عليه.

وأما أبو علي البصير فهو الفضل بن جعفر بن الفضل بن يونس، من أسرة فارسية الأصل، كان ضريرًا، ولقب بالبصير إما تفاؤلًا أو لذكائه وفطنته،كان شاعرًا وصاحب رسائل نثرية بارعة وكان من أطبع الناس في زمانه، ولا يزال يأتي بالمثل النادر والبيت السائر الذي لا يأتي به غيره، كان كثير السخرية في أشعاره، مدح المعتصم والمتوكل وأدرك زمان المعتز. ولأبي العيناء وأبي علي مع بعضهما البعض مداعبات ومجاوبات وأخبار ممتعة وأشعار في غاية الرقة تدل علىٰ حضور بديهتهما حضورًا شديدًا.

بالمرحمةِ، ووقَف موقفَ المظلومِ، وانصرفَ انصرافَ المحرومِ، وأينَ مَن يفتخرُ بالقريضِ، ويدلُّ بالنظمِ، ويبَاهي بالبديهةِ، من وزيرِ الخليفةِ، ومن صاحبِ السرِّ، وممَّن ليس بينَ لسانِه ولسانِ صاحبِه واسطةٌ، ولا بينَ أذنِه وأذنِه حجابٌ؟! ومتىٰ كانت الحاجةُ إلىٰ الشعراءِ كالحاجةِ إلىٰ الوزراءِ؟!

ومتىٰ قامَ وزيرٌ لشاعرٍ للخدمةِ أو للتكرمةِ؟!

ومتىٰ قعَد شاعرٌ لوزيرٍ علىٰ رجاءٍ وتأميلٍ؟!

بل لا ترَىٰ شاعرًا إلَّا قائمًا بينَ يدي خليفةٍ أو وزيرٍ أو أميرٍ باسطَ اليدِ، ممدودَ الكفِّ، يستعطفُ طالبًا، ويسترحمُ سائلًا، هذا مع الذلةِ والهوانِ، والخوفِ من الخيبةِ والحرمانِ، وخطرِ الردِّ عليه في لفظٍ يمرُّ، وإعرابٍ يجرِي، واستعارةٍ تعرضُ، وكنايةٍ تعترضُ، ثم يكونُ مقليًّا مَشينًا بما يظنُّ به من الهجاءِ الذي ربَّما دلَّاه في حومةِ الموتِ، وقد برَّأ اللهُ تعالىٰ بإحسانِه القديمِ ومنَّهِ الجسيمِ صاحبَ البلاغةِ من هذا كلِّه، وكفَاه مؤنةَ الغدرِ به، والضررِ فيه.

وكان ابنُ ثوابةَ[1] إذا جالَ في هذه الأكنافِ لا يُلْحَقُ شأوُه، ولا يشقُّ غبارُه، ولا يطمعُ في جوابِه، وله مناظراتٌ واسعةٌ في هذا البابِ مع جماعةٍ من أهلِ زمانِه ناقَضوه وعارَضوه، وكاشَفوه وواجَهوه؛ فثبتَ لهم، وانتصَف منهم، وأربَىٰ عليهم، ولم يقلِعْ عن مسالطتِهم ومبالطتِهم[2] إلىٰ أن نكَصوا

---

(١) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن ثوابة، أحد كتاب الدولة العباسية، تولىٰ ديوان الإنشاء في عهد الخليفة المعتضد، كان بليغا جوادا سخيا، وله مع ابن الرومي والبحتري وأبي العيناء مهاترات وأهاج، توفي سنة ٣٧٢هـ.

(٢) المسالطة: تسليط لسانه عليهم، والمبالطة: المجالدة والمنازلة.

علىٰ أعقابِهم، وراجَعوا ما هو أولَىٰ بهم.

فإذا كان الأمرُ في هذه الحالِ علىٰ ما وصَفنا، فللنثرِ فضيلتُه التي لا تنكَرُ، وللنظمِ شرفُه الذي لا يجحَدُ ولا يستَرُ، لأنَّ مناقبَ النثرِ في مقابلةِ مناقبِ النظمِ، ومثالبَ النظمِ في مقابلةِ مثالبِ النثرِ، والذي لابدَّ منه فيهما السلامةُ والدقةُ، وتجنبُ العويصِ، وما يحتاجُ إلىٰ التأويلِ والتخليصِ.

وقد قال بعضُ العربِ: خيرُ الكلامِ ما لم يحتجْ معه إلىٰ كلامٍ. ووقَف أعرابيٌّ علىٰ مجلسِ الأخفشِ فسمِع كلامَ أهلِه في النحوِ وما يدخلُ معَه، فحارَ وعجِب، وأطرَق ووسوَس، فقال له الأخفشُ: ما تسمعُ يا أخَا العربِ؟ قال: أراكم تتكلَّمون بكلامِنا في كلامِنا بما ليس من كلامِنا.

وقد أنشَد بعضُ الأعرابِ ما يقتضِي هذا المكانُ رسمَه فيه، لأنَّه موافقٌ لما نحنُ فيه في ذكرِه ووصفِه، قال:

مَاذَا لَقِيتُ مِنَ المُسْتَعْرِبِينَ وَمِنْ ... تَأْسِيسِ نَحْوِهِمُ هَذَا الذِي ابْتَدَعُوا
إِنْ قُلْتُ قَافِيَةً فِيهِ يَكُونُ لَهَا ... مَعْنًىٰ يُخَالِفُ مَا قَاسُوا وَمَا وَضَعُوا
قَالُوا لَحَنْتَ وَهَذَا الحَرْفُ مُنْخَفِضٌ ... وَذَاكَ نَصْبٌ وَهَذَا لَيْسَ يَرْتَفِعُ
وَحَرَّشُوا بَيْنَ عَبْدِ اللهِ وَاجْتَهَدُوا ... وَبَيْنَ زَيْدٍ وَطَالَ الضَّرْبُ وَالوَجَعُ
مَا كُلُّ قَوْلِيَ مَعْرُوفٌ لَكُمْ فَخُذُوا ... مَا تَعْرِفُونَ وَمَا لَمْ تَعْرِفُوا فَدَعُوا
كَمْ بَيْنَ قَوْمٍ قَدِ احْتَالُوا لِمَنْطِقِهِم ... وَآخَرِين عَلَىٰ إِعْرَابِهِم طُبِعُوا
وَبَيْنَ قَوْمٍ رَأَوْا شَيْئًا مُعَايَنَةً ... وَبَيْنَ قَوْمٍ رَوَوْا بَعْضَ الذِي سَمِعُوا

فهذا هذا.

وقال أبو سليمانَ: البلاغةُ ضروبٌ؛ فمنها بلاغةُ الشعرِ، ومنها بلاغةُ

الخطابةِ، ومنها بلاغةُ النثرِ، ومنها بلاغةُ المَثلِ، ومنها بلاغةُ العقلِ، ومنها بلاغةُ البديهةِ، ومنها بلاغةُ التأويلِ.

فأمَّا بلاغةُ الشعرِ فأن يكونَ نحوُه مقبولًا، والمعنَىٰ من كلِّ ناحيةٍ مكشوفًا، واللفظُ من الغريبِ بريئًا، والكنايةُ لطيفةً، والتصريحُ احتجاجًا، والمؤاخاةُ موجودةً، والمواءمةُ ظاهرةً.

وأمَّا بلاغةُ الخطابةِ فأن يكونَ اللفظُ قريبًا، والإشارةُ فيها غالبةً، والسجعُ عليها مستوليًا، والوهمُ في أضعافِها سابحًا، وتكونُ فقرُها قصارًا، ويكونُ ركابُها شواردَ إبلٍ.

وأمَّا بلاغةُ النثرِ فأن يكونَ اللفظُ متناوَلًا، والمعنَىٰ مشهورًا، والتهذيبُ مستعملًا، والتأليفُ سهلًا، والمرادُ سليمًا، والرونقُ عاليًا، والحواشِي رقيقةً، والصفائحُ مصقولةً، والأمثلةُ خفيفةَ المأخذِ، والهوادِي متصلةً، والأعجازُ مفصلةً.

وأمَّا بلاغةُ المثلِ فأن يكونَ اللفظُ مقتضبًا، والحذفُ محتملًا، والصورةُ محفوظةً، والمرمَىٰ لطيفًا، والتلويحُ كافيًا، والإشارةُ مغنيةً، والعبارةُ سائرةً.

وأمَّا بلاغةُ العقلِ فأن يكونَ نصيبُ المفهومِ من الكلامِ أسبقَ إلىٰ النفسِ من مسموعِه إلىٰ الأذنِ، وتكونُ الفائدةُ من طريقِ المعنَىٰ أبلغَ من ترصيعِ اللفظِ وتقفيةِ الحروفِ، وتكونُ البساطةُ فيه أغلبَ من التركيبِ، ويكونُ المقصودُ ملحوظًا في عرضِ السننِ، والمرميُّ يتلَقَّىٰ بالوهمِ لحسنِ الترتيبِ.

وأمَّا بلاغةُ البديهةِ فأن يكونَ انحياشُ اللفظِ للَّفظِ في وزنِ انحياشِ المعنَىٰ

للمعنَىٰ، وهناك يقعُ التعجبُ للسامعِ، لأنَّه يهجمُ بفهمِه علىٰ ما لا يظنُّ أنَّه يظفرُ به كمَن يعثرُ بمأمولِه، علىٰ غفلةٍ من تأميلِه، والبديهةُ قدرةٌ روحانيةٌ، في جبلَّةٍ بشريةٍ، كما أنَّ الرويَّةَ صورةٌ بشريةٌ، في جبلَّةٍ روحانيةٍ.

وأمَّا بلاغةُ التأويلِ فهي التي تحوجُ لغموضِها إلىٰ التدبرِ والتصفحِ، وهذان يفيدانِ من المسموعِ وجوهًا مختلفةً كثيرةً نافعةً، وبهذه البلاغةِ يتسعُ في أسرارِ معانِي الدينِ والدنيا، وهي التي تأوَّلَها العلماءُ بالاستنباطِ من كلامِ اللهِ ﷻ وكلامِ رسولِه ﷺ في الحرامِ والحلالِ، والحظرِ والإباحةِ، والأمرِ والنهيِ، وغيرِ ذلك ممَّا يكثُر، وبها تفاضَلوا، وعليها تجادَلوا، وفيها تنافَسوا، ومنها استملَوا، وبها اشتغَلوا؛ ولقد فُقِدَت هذه البلاغةُ لفقدِ الروحِ كلِّه، وبطَل الاستنباطُ أولُه وآخرُه، وجولانُ النفسِ واعتصارُ الفكرِ إنَّما يكونانِ بهذا النمطِ في أعماقِ هذا الفنِّ، وهاهنا تنالُ الفوائدُ، وتكثرُ العجائبُ، وتتلاقحُ الخواطرُ، وتتلاحقُ الهممُ، ومن أجلِها يستعانُ بقوَىٰ البلاغاتِ المتقدمةِ بالصفاتِ الممثلةِ، حتىٰ تكونَ معينةً ورافدةً في إثارةِ المعنَىٰ المدفونِ، وإثارةِ المرادِ المخزونِ.

وأمثلةُ هذه الأبوابِ موجودةٌ في الكتبِ، ولولا ذلك لرسمتُ في هذا المكانِ لكلِّ فنٍّ مثالًا وشكَّلتُ شكلًا، ولو فعَلتُ ذلك لكنتُ مكررًا لمَا قد سبِق إليه، ومتكلفًا ما قد لقِّنَ من قبلُ علىٰ أنَّ الزهدَ في هذا الشأنِ قد وضَع عنَّا وعن غيرِنا مؤنةَ الخوضِ فيه، والتعنِّي به، والتوفرَ عليه، وتقديمَه علىٰ ما هو أهمُّ منه، أعنِي طلبَ القوتِ الذي ليس إليه سبيلٌ إلَّا ببيعِ الدينِ، وإخلاقِ المروءةِ، وإراقةِ ماءِ الوجهِ، وكدِّ البدنِ، وتجرعِ الأسَىٰ، ومقاساةِ الحرقةِ،

ومضِّ الحرمانِ، والصبرِ علىٰ ألوانٍ وألوانٍ، واللهُ المستعانُ.

وقد كان هذا البابُ يتنافسُ فيه أوانَ كان للخلافةِ بهجةٌ، وللنيابةِ عنها بهاءٌ، وللديانةِ معتقدٌ، وللمروءةِ عاشقٌ، وللخيرِ منتهزٌ، وللصدقِ مؤثرٌ، وللأدبِ شراةٌ، وللبيانِ سوقٌ، وللصوابِ طالبٌ، وفي العلمِ راغبٌ، فأمَّا اليومَ واليدُ عنه مقبوضةٌ، والذيلُ دونَه مشمرٌ، والمتحلِّي بجمالِه مطرودٌ، والمباهِي بشرفِه مبعدٌ، فما يصنعُ به، وللهِ أمرٌ هو بالغُه.

وقال ابنُ دأبٍ: قال لي ابنَ موسَىٰ: اجتمَعنا عندَ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ فقال: أيُّ الآدابِ أغلبُ علىٰ الناسِ؟ فقلنا وأكثَرنا في كلِّ نوعٍ، فقال عبدُ الملكِ: ما الناسُ إلىٰ شيءٍ أحوجَ منهم إلىٰ إقامةِ ألسنتِهم التي بها يتعاوَرون القولَ، ويتعاطُون البيانَ، ويتهادُون الحكمَ، ويستخرِجون غوامضَ العلمِ من مخابئِها؛ ويجمَعون ما تفرَّقَ منها، إنَّ الكلامَ فارقٌ للحكمِ بينَ الخصومِ، وضياءٌ يجلُو ظلمَ الأغاليطِ، وحاجةُ الناسِ إليه كحاجتِهم إلىٰ موادِّ الأغذيةِ.

وقد قال زهيرٌ:

لِسَانُ الفَتَىٰ نِصْفٌ وَنِصْفٌ فُؤَادُهُ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا صُورَةُ اللحْمِ وَالدَّمِ

فقلنا: لم يقلْه زهيرٌ، إنَّما قالَه زيادٌ الأعجمُ؛ فقال: لا، قالَه مَن هو أعظمُ تجربةً وأنطقُ لسانًا منه.

وقال أبو العيناءِ: سمِعت العباسَ بنَ الحسنِ العلويَّ يصفُ كلامَ رجلٍ فقال: كلامُه سمحٌ سهلٌ، كأنَّ بينَه وبينَ القلوبِ نسبٌ، وبينَه وبينَ الحياةِ سببٌ، كأنَّما هو تحفةُ قادمٍ، ودواءُ مريضٍ، وواسطةُ قلادةٍ.

وفي الجملةِ: أحسنُ الكلامِ ما رقَّ لفظُه، ولطفَ معناه، وتلألأَ رونقُه، وقامَت صورتُه بينَ نظمٍ كأنَّه نثرٌ، ونثرٍ كأنَّه نظمٌ، يُطْمِعُ مشهودُه بالسمعِ، ويَمتنِعُ مقصُودُه علىٰ الطبعِ؛ حتىٰ إذا رامَه مريغٌ حَلَّقَ، وَإذا حَلَّقَ أَسَّفْ، أعني: يَبْعُدُ علىٰ المحاولِ بعنفٍ، ويقربُ من المتناولِ بلطفٍ.

وما رأيتُ أحدًا تناهَىٰ في وصفِ النثرِ بجميعِ ما فيه وعليه غيرَ قدامةَ بنَ جعفرٍ[1] في المنزلةِ الثالثةِ من كتابِه؛ قال لنا عليُّ بنُ عيسىٰ الوزيرُ: عرَض عليَّ قدامةُ كتابَه سنةَ عشرينَ وثلثمائةٍ، واختبرتُه فوجدتُه قد بالغَ وأحسَن، وتفردَ في وصفِ فنونِ البلاغةِ في المنزلةِ الثالثةِ بما لم يَشرَكْه فيه أحدٌ من طريقِ اللفظِ والمعنَىٰ، ممَّا يدلُّ علىٰ المختارِ المجتبَىٰ والمعيبِ المجتنَبِ، ولقد شارَكه فيه الخليلُ بنُ أحمدَ في وضعِ العروضِ، ولكنِّي وجدتُه هجينَ اللفظِ، ركيكَ البلاغةِ في وصفِ البلاغةِ، حتىٰ كأنَّ ما يصفُه ليس ما يعرفُه، وكأنَّ ما يدلُّ به غيرُ ما يدلُّ عليه، والعربُ تقولُ: فلانٌ يَدُلُّ ولا يُدَلُّ، حكَاه ابنُ الأعرابيِّ، وهذا لا يكونُ إلَّا من غزارةِ العلمِ، وحسنِ التصورِ، وتواردِ المعنَىٰ، ونقدِ الطبعِ، وتصرفِ القريحةِ، ولولا أنَّ الأمرَ علىٰ ما ذكرتُ لكان ذلك الطريقُ الذي سلَكه، والفنُّ الذي ملَكه، والكنزُ الذي هجَم عليه،

---

(١) أبو الفرج قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي، كان نصرانيًّا وأسلم علىٰ يد المكتفي بالله، من مشاهير البلغاء الفصحاء الذين يضرب بهم المثل في البلاغة، جالس أبا العباس المبرد ت٢٨٥هـ، وأبا العباس ثعلب (ت ٢٩١هـ)، توفي ببغداد عام ٣٣٧ هـ وكتابه المذكور الذي تكلم فيه عن منازل الكتاب والبلغاء هو: «الخراج وصناعة الكتابة» وهو عبارة عن ثمانية منازل، سقطت المنازل الأربعة الأولىٰ من يد الزمن، ولم يطبع منه سوىٰ المنازل الأربعة الأخيرة بتحقيق الدكتور محمد حسن اليزيدي.

والنمطُ الذي ظفرَ به؛ قد برَز في أحسنِ معرضٍ، وتحلَّىٰ بألطفِ كلامٍ، وماسَ في أطولِ ذيلٍ، وسفرَ عن أحسنِ وجهٍ، وطلعَ من أقربِ نفقٍ، وحلَّق في أبعدِ أفقٍ.

وابنُ المراغيُّ يقولُ كثيرًا - وهو شيخٌ من جلةِ العلماءِ، وله سهمٌ وافٍ في زمرةِ البلغاءِ -: ما أحسنَ معونةَ الكلماتِ القصارَ، المشتملةَ علىٰ الحكمِ الكبارِ، لمَن كانت بلاغتُه في صناعتِه بالقلمِ واللسانِ، فإنَّها توافيه عندَ الحاجةِ، وتستصحبُ أخواتِها علىٰ سهولةٍ، وهكذا مصاريعُ أبياتِ الشعرِ؛ فإنَّها تختلطُ بالنثرِ متقطعةً وموزونةً، ومنتثرةً ومنضودةً.

قال لي ابنُ عبيدٍ الكاتبُ: بلَغني هذا الوصفُ عن هذا الشيخِ؛ فبلوتُه بالتتبعِ فوجدتُه علىٰ ما قال؛ وما أشبهَ ما ذكَره إلَّا بالصرةِ المعدةِ عندَ الإنسانِ، لمَا يحتاجُ إليه في الوقتِ المهمِّ والأمرِ الملمِّ، فهذا هذا.

فقال الوزيرُ - أدامَ اللهُ دولتَه، وكبَت أعداءَه -: قَدِّم هذا البابَ فقد أتَىٰ علىٰ ما لم أظنّ أنَّه يؤتَىٰ عليه ويهتدَىٰ إليه - إذا شئتَ. وانصرفتُ.

الليلةُ السادسةُ والعشرونَ

قال الوزيرُ: ما أمثلةُ الكلماتِ القصارِ التي أومأَ إليها ذلك الشيخُ[١]؟

فكان من الجوابِ: إنَّ هذا البابَ واسعٌ، نحوُ قولِ القائلِ:

ما خابَ مَن استخارَ، ولا ندِم مَن استشارَ.

كلُّ عزيزٍ دخَل تحتَ القدرةِ فهو ذليلٌ.

غنمُ مَن أدَّبتَه الحكمةُ، وأحكمَتْه التجربةُ.

التضاغنُ رائدُ التباينِ.

المرءُ ما عاشَ في تجريبٍ.

وأكثرُ أسبابِ النجاحِ مع اليأسِ.

الدهرُ يومٌ ويومٌ، والعيشُ عذلٌ ولومٌ.

مَن لم يقدمْه حزمٌ أخَّره عجزٌ.

كم من مستدرَجٍ بالإحسانِ إليه، ومغترٍّ باليسرِ عليه.

---

(١) يقصد بالشيخ هنا؛ ابن المراغي الذي مر ذكره في آخر الليلة السابقة، ونص كلامه هو: «ما أحسن معونة الكلمات القصار، المشتملة علىٰ الحكم الكبار، لمن كانت بلاغته في صناعته بالقلم واللسان...».

الحربُ متلفةُ العبادِ مذهبةٌ للطارفِ والتلادِ.

ليس المقلُّ عن الزمانِ براضِي.

من ضاقَ صدرُه اتسعَ لسانُه.

وحسبُك داءً أن تصحَّ وتسلمَا.

العيالُ سوسُ المالِ.

ظمأٌ قامحٌ خيرٌ من ريٍّ فاضحٍ.

احذروا نفادَ النعمِ، فما كلُّ شاردٍ مردودٌ.

خيرُ الأمورِ أوساطُها.

يكفيك من شرٍّ سماعُه.

الكريمُ لا يلينُ علىٰ قسرٍ، ولا يُقتَسرُ علىٰ يسرٍ.

ما أدركَ النمامُ ثأرًا، ولا محَا عارًا.

ومَن يبكِ حولًا كاملًا فقد اعتذَر.

إن المطامعَ فقرٌ والغنَىٰ اليأسُ.

والأمرُ تحقرُه وقد يَنْمِي.

ربَّ كبيرٍ هاجَه صغيرٌ.

ذهَب القضاءُ بحيلةِ الأقوامِ.

وقد يُستَجْهَلُ الرجلُ الحليمُ.

مَن عُرِفَ بالحكمةِ لاحظتْه العيونُ بالهيبةِ.

البِطْنةُ تذهبُ الفطنةَ.

إنَّ المقدرةَ تذهبُ الحفيظةَ.

مَن ثقُل علىٰ صديقِه خفَّ علىٰ عدوِّه.

زيادةُ لسانٍ علىٰ عقلٍ خُدْعَةٌ، وزيادةُ عقلٍ علىٰ منطقٍ هُجْنةٌ.

وحاجةُ مَن عاش لا تنقضِي

مَن أطاعَ هوَاه، أعطَىٰ عدوَّه منَاه.

عندَ الشدائدِ تذهبُ الأحقادُ.

احذرْ صرعاتِ البغيِ وفلتاتِ المزاحِ.

المرءُ يعجزُ لا المحالةَ.

ذلُّ الطالبِ بقدرِ حاجتِه.

إذا ازدَحم الجوابُ خفيَ الصوابُ.

الكريمُ للكريمِ مجلٌّ.

موتٌ في قوةٍ وعزٍّ خيرٌ من حياةٍ في ذلٍّ وعجزٍ.

عدلُ السلطانِ خيرٌ من خصبِ الزمانِ.

مَن توقَّىٰ سلِم، ومَن تهوَّر ندِم.

مَن أسرعَ إلىٰ الناسِ بما يكرَهون، قالوا فيه ما لا يعلَمون.

الضرُّ خيرٌ من الفاقةِ.

عيٌّ صامتٌ خيرٌ من عيٍّ ناطقٍ.

ربَّما سَوَّدَ المالُ غيرَ السيدِ، وقوَّي غيرَ الأيدِ.

وهل يدفعُ ريبَ المنيةِ الحيلُ.

كفَىٰ بالإقرارِ بالذنبِ عذرًا، وبرجاءِ العفوِ شافعًا.

قليلٌ يوعَىٰ، خيرٌ من كثيرٍ يُنسَىٰ.

ليس علىٰ طولِ الخدمِ ندمٌ، ومن وراءِ المرءِ ما لم يعلمْ.

مروءَتانِ ظاهرتانِ: الرياسةُ والفصاحةُ.

مَن أطالَ الأملَ أساءَ العملَ.

لا تَكَلَّفْ مَا كُفِيتْ، ولا تُضَيِّعْ مَا وُلِّيتَ.

احتملْ مَن أدلَّ عليك، وأقبلْ ممَّن اعتذرَ إليك.

إنَّ الشجاعةَ مقرونٌ بها العطبُ.

إنَّ الكرامَ علىٰ ما نابَهم صُبْرٌ.

لو سكَت مَن لا يعلمُ سقَط الاختلافُ.

لا عذرَ في غدرٍ.

ليس من العدلِ سرعةُ العذلِ.

أقبحُ عملِ المقتدرينَ الانتقامُ.

شرٌّ من الموتِ، ما يُتمنَّىٰ له الموتُ.

مَن جاعَ جشِع.

المكيدةُ في الحربِ أبلغُ من النجدةِ.

لك من دنياكَ، ما أصلَح مثواكَ.

مَن أحبَّ أن يطاعَ، لا يسألُ ما لا يستطاعُ.

إذا غلَبتك نفسُك بما تظنُّ، فاغلبْها بما تستيقنُ.

الردُّ الجميلُ أحسنُ من المطلِ الطويلِ.

القبرُ خيرٌ من الفقرِ.

شفيعُ المذنبِ إقرارُه، وتوبتُه اعتذارُه.

صحبةُ الأشرارِ، تورثُ سوءَ الظنِّ بالأخيارِ.

لا كثيرَ مع تبذيرٍ، ولا قليلَ مع تقديرٍ.

مَن صانَ لسانَه نجَا من الشرِّ كلِّه.

ولربَّما نفَع الفتَىٰ كذبُه.

فمَن يعدلْ إذا ظلَم الأميرُ.

إذا فزِع الفؤادُ فلا رقادَ.

ما العلمُ إلَّا ما وعَاه الصدرُ.

إنَّ الكريمَ علىٰ الإخوانِ ذو المالِ.

إنَّ الفرارَ لا يزيدُ في الأجلِ.

إنَّ الشفيقَ بسوءِ ظنٍّ مولَعٌ.

إذا أقبلَتْ الدنيا علىٰ المرءِ أعارتْه محاسنَ غيرِه، وإذا أدبرتْ عنه سلَبتْه محاسنَ نفسِه.

في التجاربِ علمٌ مستأنفٌ.

قد خاطَر مَن استغنَىٰ برأيِه.

عليك لأخيك مثلُ الذي عليه لك.

الحقُّ ظلٌّ ظليلٌ.

المودةُ قرابةٌ مستفادَةٌ.

معدمٌ وصولٌ خيرٌ من مكثرٍ جافٍ.

من الفراغِ تكونُ الصبوةُ.

مَن نال استطالَ.

في تقلبِ الأحوالِ علمُ جواهرِ الرجالِ.

الشكرُ عصمةٌ من النقمةِ.

اللبُّ مصباحُ العلمِ.

مَن ركِب العجلةَ، لم يأمنْ الكبوةَ.

إزالةُ الرواسِي، أيسرُ من تأليفِ القلوبِ.

قارِبْ الناسَ في عقولِهم، تسلمْ من غوائلِهم، وترتعْ في حدائقِهم.

عاشرْ أخاك بالحسنَىٰ.

الحسدُ أهلَك الجسدَ.

خذْ علىٰ خلائقِك ميثاقَ الصبرِ.

كلُّ امرئٍ في شأنِه ساعِي.

قد يدركُ المتأنِّي بعضَ حاجتِه، وقد يكونُ مع المستعجِلِ الزللُ.

غمُّ الفقيرِ لا يكشفُه إلَّا الموتُ.

خفةُ الظهرِ أحدُ اليسارَينِ.

أصولُ الأسقامِ من فضولِ الطعامِ.

طلاقُ الدنيا مهرُ الجنةِ.

من عزِّ النفسِ إيثارُ القناعةِ.

التواضعُ بالغنَىٰ أجملُ، والكبرُ بالفقيرِ أسمجُ.

مَن استعانَ بغيرِ اللهِ لم يزلْ مخذولًا.

مَن لم يقبلْ من الدهرِ ما آتاه، طالَ عتبُه علىٰ الدهرِ.

عُجبُ المرءِ بنفسِه أحدُ حسَّادِ عقلِه.

العجزُ والتوانِي ينتجانِ الفاقةَ.

إن صبرتَ صبرَ الأحرارِ، وإلَّا سلوتَ سَلْوَ الأغمارِ.

العلمُ بالعملِ ينمو.

معاشرةُ الإخوانِ تجلُو البصرَ، وتطردُ الفكرَ.

لا توحشُك الغربةُ ما أنِسْتَ بالكفايةِ، فإنَّ الفقرَ أوحشُ من الغربةِ.

الغنَىٰ أنسٌ في غيرِ الوطنِ.

الغنُّي في الغربةِ موصولٌ، والفقيرُ في الأهلِ مصرومٌ.

أوحِشْ قرينَك إذا كان في إيحاشِه أنسُك.

إذا أيسرتَ فكلُّ أهلٍ أهلُك، وإن أعسرتَ فأنت غريبٌ في قومِك.

من أخلاقِ الصبيانِ، إلْفُ الأوطانِ، والحنينُ إلىٰ الإخوانِ.

مَن لم يأنفْ، لم يَشْرُفْ.

خيرُ المودةِ ما لم تكنْ حِذَارَ عاديةٍ، ولا رجاءَ فائدةٍ.

مَن حمَل الأمورَ علىٰ القضاءِ استراحَ في الإقبالِ والإدبارِ حتىٰ ينتهيَا.

لو استحسنَ الناسُ ما أمِرَ به العقلُ استقبَحوا ما نَهىٰ عنه العقلُ.

أقدرُ الناسِ علىٰ الجوابِ مَن لا يغضبُ.

الكلامُ في وقتِ السكوتِ عيٌّ، والسكوتُ في وقتِ الكلامِ خُرْسٌ.

الهمُّ يهدمُ البدنَ، وينغصُ العيشَ، ويقرِّبُ الأجلَ.

الموتُ رقيبٌ غيرُ غافلٍ.

المرءُ نَهْبُ الحوادثِ.

إذا تمَّ العقلُ نقَص الكلامُ.

هَبْ ما أنكرتَ لمَا عرفتَ، واغفرْ ما أغضبَك لمَا أرضاكَ.

اليأسُ إحدَىٰ الراحتينِ.

المطلُ أحدُ العذابينِ.

الكظمُ مرٌّ، ولا يتجرَّعُه إلَّا حرٌّ.

الرأيُ لا يصلحُ إلَّا بالشركةِ، والملكُ لا يصلحُ إلَّا بالتفردِ.

مَن كبُر عنصرُه، حسُن محضرُه.

ولرُبَّ مطمعةٍ تعودُ رياحًا.

والحمدُ لا يشترَىٰ إلَّا بأثمانٍ.

ولكنْ نَكْءُ القرحِ بالقرحِ أوجعُ.

مَن أزهَر بقولٍ، حقيقٌ أن يثمرَ بفعلٍ.

السلامُ أرخَىٰ للبالِ، وأبقَىٰ لنفوسِ الرجالِ.

حسبُك من عقلِك ما أوضَح غيَّك من رشدِك.

التسويفُ بطاعةِ اللهِ اغترارٌ، وحياةُ المرءِ كالشيءِ المُعارِ.

مَن بذَل بعضَ عنايتِه لك، فاجعلْ جميعَ شكرِك له.

وللحرِّ من مالِ الكريمِ نصيبٌ.

اليومَ فعلٌ، وغدًا ثوابٌ.

الخيرُ مختارٌ شهيُّ المطلَبِ، والشرُّ محذورٌ كريهٌ مجتنَبٌ.

ربَّ سكوتٍ من كلامٍ أبلغُ، وربَّ قولٍ من عمودٍ[1] أدمغُ.

مَن سلِم الناسُ من لسانِه، أصبَح منصورًا علىٰ سلطانِه.

من القليلِ يُجمَعُ الكثيرُ، وربَّ صغيرٍ قدرُه كبيرٌ.

مَن باعَ ما يفنَىٰ بما يبقَىٰ غنِم، وآثرَ الدنيا علىٰ الأخرَىٰ ندِم.

قد يحرمُ الراجِي ويعطَىٰ القانطُ، ويبعدُ الأدنَىٰ ويُدْنَىٰ الشاحطُ.

من لم يُنِلْك البرَّ في حياتِه، لم تبْكِ عيناكَ علىٰ وفاتِه.

المالُ ما تنفقُ لا ما تجمعُه، والزرعُ ما تحصدُ لا ما تزرعُه.

يا رُبَّ هزلٍ كان منه الجِدُّ، وربَّ مزحٍ كان منه الحقدُ.

البحرُ مستغنٍ عن الفراتِ.

فقال الوزيرُ - أدامَ اللهُ أيامَه -: هذا فنٌّ موفٍ علىٰ الغايةِ.

❁ ❁ ❁

(١) يريد بالعمود: الذي يضرب به في الحرب.

الليلةُ الواحدةُ والثلاثونَ

ترامَىٰ الحديثُ إلىٰ أمرِ المطعِمينَ والطَّاعمينَ، والذين يهُشُّونَ عندَ المائدةِ، والذينَ يعبِسُون ويجُمُّون ويطرِقُون، والذين يصخَبون ويلغَطون، ويضْجَرُون ويغتاظُون.

فقال الوزيرَ: أحبُّ أن أسمعَ في هذا أكثرَ ما فيه، ويمرُّ بي أعجبُه، فإنَّ في معرفةِ هذا البابِ تهذيبًا وإيقاظًا كثيرًا.

فكان من الجوابِ: إنَّ الناسَ قديمًا وحديثًا قد خاضُوا في هذا الفنِّ خوضًا بعيدًا، وما وقَفوا منه عندَ حدٍّ، لأنَّ الحديثَ عن الأخلاقِ المختلفةِ بالأمزجةِ المتباينةِ، والطبائعِ المتنائيةِ لا يكادُ ينتهِي إلىٰ غايةٍ يكونُ فيها شفاءٌ للمستمعِ المستفيدِ و لا للرَّوايةِ المفيدِ.

قال الوزيرُ: قبلَ كلِّ شيءٍ أعلِمونا يا أصحابَنا: الحثُّ علىٰ الأكلِ أحسنُ، أم الإمساكُ حتىٰ يكونَ من الأكلِ ما يكونُ؟

فكان من الجوابِ: أنَّ هذه المسألةَ بعينِها جرَتْ بالأمسِ بالرَّيِّ عندَ ابنِ عبَّادٍ فتناوَب الكلامَ فيها، وأفضَىٰ إلىٰ أن الأَولىٰ الحثُّ والتأنيسُ والبسطُ والطلاقةُ ولينُ اللفظِ وقلةُ التحديقِ وإسجاءُ الطرفِ مع اللطفِ والدماثةِ، من غيرِ دلالةٍ علىٰ تكلفٍ في ذلك فاضحٍ، ولا إمساكٍ عنه قادحٍ، وحكَىٰ ابنُ عبَّادٍ

في هذا الموضعِ أنَّ بعضَ السلفِ قال: الطعامُ أهونُ من أن يُحَثَّ علىٰ تناولِه، قال: ولقد حضرتُ موائدَ ناسٍ لا أظنُّ بهم البخلَ فلم يحثُّوني ولم يبسطوني فقبَضني ذلك، وكأنَّ انقباضِي كان بمعونتِهم، وإن لم يكن بإرادتِهم.

وقال الحسنُ بنُ عليٍّ: الطعامُ أجلُّ من أن لا يُحَثَّ علىٰ تناولِه. ومذهبُ الحسنِ أحسنُ.

قال الوزيرُ: هذه فائدةٌ من هذا الرجلِ الذي يتهادَىٰ قولُه، وتتراوَىٰ أخبارُه.

ثم حكيتُ له أنَّ أسماءَ بنَ خارجةَ قال: ما صنَعتُ طعامًا قطُّ فدعوتُ عليه نفرًا إلَّا كانوا أمَنَّ عليَّ منِّي عليهم.

فقال الوزيرُ: زدْنا من هذا الضربِ ما كان، قلتُ: لو أُذِن لي في جمعِه كان أولَىٰ؛ قال: لك ذلك فما يضرُّنا أن تُطرِبَ آذانَنا بما تهوَىٰ نفوسُنا.

فكان من الجوابِ: أنَّ الجاحظَ قد أتَىٰ علىٰ جمهرةِ هذا البابِ إلَّا ما شذَّ عنه ممَّا لم يقعْ إليه، فإنَّ العالمَ - وإن كان بارًا - ليس يجوزُ أن يُظَنَّ به أنَّه قد أحاطَ بكلِّ بابٍ، أو بالبابِ الواحدِ إلىٰ آخرِه؛ علىٰ أنَّه حدَث من عهدِ الجاحظِ إلىٰ وقتِنا هذا أمورٌ وأمورٌ، وهناتٌ وهناتٌ، وغرائبُ وعجائبُ، لأنَّ الناسَ يكتسِبون علىٰ رأسِ كلِّ مائةِ سنةٍ عادةً جديدةً، وخليقةً غيرَ معهودةٍ، وبدءُ هذه المئينَ هو الوقتُ الذي فيه تنعقدُ شريعةٌ، وتظهر نبوةٌ، وتفشُو أحكامٌ، وتستقرُّ سننٌ، وتؤلَّف أحوالٌ بعدَ فطامٍ شديدٍ، وتلكؤٍ واقعٍ؛ ثم علىٰ استنانِ ذلك يكونُ ما يكونُ.

قال ميمونُ بنُ مِهران: مَن ضافَ البخيلَ صامَتْ دابَّتُه، واستغنَىٰ عن الكُنَيْف[١]، وأمِنَ التُّخمةَ.

وقال حامدٌ اللفافُ المتزهدُ: المرائِي إذا ضافَ إنسانًا حدَّثه بسخاوةِ إبراهيمَ، وإذا ضافَه إنسانٌ حدَّثه بزهدِ عيسَىٰ بنِ مريمَ.

وقال الأعمشُ: كان خيثمةُ يصنَعُ الخبيصَ ثم يقولُ: كلوا فواللهِ ما صنِع إلَّا من أجلِكم.

وقال بكرُ بنُ عبدِ اللهِ المزنيُّ: أحقُّ الناسِ بلطمةٍ مَن إذا دُعِيَ إلىٰ طعامٍ ذهَب بآخرَ معَه، وأحقُّهم بلطمتينِ مَن إذا قيل له: اجلسْ هاهنا قال: بل هاهنا، وأحقُّ الناسِ بثلاثِ لطماتٍ مَن إذا قيل له: كُلْ، قال: ما بالُ صاحبِ البيتِ لا يأكلُ معَنا.

وقال إبراهيمُ بنُ الجنيدِ: أربعٌ لا ينبغِي لشريفٍ أن يأنفَ منهنَّ وإن كان أميرًا: قيامُه من مجلسِه لأبيه، وخدمتُه للعالمِ يتعلمُ منه، والسؤالُ عمَّا لا يعلمُ ممَّن هو أعلمُ منه، وخدمةُ الضيفِ بنفسِه إكرامًا له.

وقال حاتمٌ الأصمُّ: العجَلةُ من الشيطانِ إلَّا في خمسٍ فإنَّها من سنةِ رسولِ اللهِ ﷺ: إطعامُ الضيفِ إذا حلَّ، وتجهيزُ الميتِ إذا ماتَ، وتزويجُ البكرِ إذا أدرَكت، وقضاءُ الدينِ إذا حلَّ ووجَب، والتوبةُ من الذنبِ إذا وقَع.

وقال النبيُّ ﷺ: **«ليلةُ الضيفِ حقٌّ واجبٌ علىٰ كلِّ مسلمٍ، فمَن أصبَح بفنائِه فهو أحقُّ به؛ إن شاءَ أخَذ، وإن شاءَ ترَك»**.

---

(١) بيت الخلاء.

وجاءَت امرأةٌ إلىٰ الليثِ بنِ سعدٍ وفي يدِها قَدَحٌ، فسَألت عسلًا وقالت: زوجِي مريضٌ، فأمَر لها براويةِ عسلٍ، فقالوا: يا أبَا الحارثِ: إنَّما تسألُ قدحًا! قال: سألَتْ قدرَها ونعطيها علىٰ قدرِنا.

وقال الحسنُ في الرجلِ يدخلُ بيتَ أخيه فيرَىٰ السلةَ فيها الفاكهةُ: لا بأسَ أن يأكلَ من غيرِ أن يستأذنَه.

وقال ابنُ عمرَ: أهديَت لرجلٍ من أصحابِ النبيِّ ﷺ شاةٌ فقال: أخِي فلانٌ أحوجُ إليها، وبعَث بها إليه، فلم يزل يبعثُ بها واحدٌ بعدَ واحدٍ حتىٰ تداولَها تسعةُ أبياتٍ، ورجَعتْ إلىٰ الأولِ، فنزَلتْ الآيةُ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

قال أبو سعيدٍ الخدريُّ: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**مَن كان له ظهرٌ فليعُدْ علىٰ مَن لا ظهرَ له، ومَن كان له زادٌ فليعُدْ علىٰ مَن لا زادَ له، حتىٰ رأينا أنَّه لا حقَّ لأحدٍ منَّا في الفضلِ**».

وسئِل ابنُ عمرَ: ما حقُّ المسلمِ علىٰ المسلمِ؟ قال: ألَّا يشبعَ ويجوعُ، وألَّا يلبسَ ويعرَىٰ، وأن يواسِيه ببيضائِه وصفرائِه.

وكان ابنُ أبي بكرةَ ينفقُ علىٰ جيرانِه أربعينَ دارًا سوَىٰ سائرِ نفقاتِه، وكان يبعثُ إليهم بالأضاحِي والكسوةِ في الأعيادِ، وكان يعتقُ في كلِّ يومِ عيدٍ مائةَ مملوكٍ.

وكان حمَّادُ بنُ أبي سليمانَ يفطرُ كلَّ ليلةٍ من شهرِ رمضانَ خمسينَ إنسانًا، وإذا كان يومُ الفطرِ كسَاهم ثوبًا ثوبًا وأعطاهم مائةً مائةً.

وقال الشاعرُ:

أَرَاكَ تُؤَمِّلُ حُسْنَ الثَّنَاءِ وَلَمْ يَرْزُقِ اللهُ ذَاكَ البَخِيلَا
وَكَيْفَ يَسُودُ أَخُو بِطْنَةٍ يَمُنُّ كَثِيرًا ويُعْطِي قَلِيلَا

وقال النبيُّ ﷺ: «تجافُوا عن ذنبِ السخيِّ، فإنَّ اللهَ يأخذُ بيدِه كلَّما عثَر».

وقال ﷺ: «مَن أدَّىٰ الزكاةَ، وقَرَىٰ الضيفَ، وآوَىٰ في النائبةِ، فقد وُقيَ شحَّ نفسِه».

وقالت أمُّ البنينَ أختُ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ: أفٌّ للبخلِ، لو كان طريقًا ما سلكتُه، ولو كان ثوبًا ما لبستُه، ولو كان سراجًا ما استضأتُ به.

وقال الأصمعيُّ: قال بعضُ العربِ: ليست الفتوةُ الفسقُ ولا الفجورُ، ولا شربُ الخمورِ، وإنَّما الفتوةُ طعامٌ موضوعٌ، وصنيعٌ مصنوعٌ، ومكانٌ مرفوعٌ، ولسانٌ معسولٌ، ونائلٌ مبذولٌ، وعفافٌ معروفٌ، وأذًىٰ مكفوفٌ.

وقال أبو حازمٍ المدنيُّ: أسعدُ الناسِ بالخُلقِ الحسنِ صاحبُه؛ نفسُه منه في راحةٍ، ثم زوجتُه، ثم ولدُه، حتىٰ إنَّ فرسَه ليَصْهَلُ إذا سمِع صوتَه، وكلبُه يشرشرُ بذنَبِه إذا رآه، وقطُّه يدخلُ تحتَ مائدتِه. وإنَّ السيِّءَ الخلقِ لأشقَىٰ الناسِ؛ نفسُه منه في بلاءٍ، ثم زوجتُه، ثم ولدُه، ثم خدمُه، وإنَّه ليدخلُ وهم في سرورٍ فيتفرَّقونَ فرقًا منه، وإنَّ دابتَه لتحيدُ عنه إذا رأتْه، ممَّا ترَىٰ منه، وكلبُه ينزُو علىٰ الجدارِ، وقطُّه يفرُّ منه.

وكان علىٰ بابِ ابنِ كيسانَ مكتوبٌ: ادخلْ وكُلْ.

وكانت عائشةُ رضي الله عنها تقولُ في بكائِها علىٰ النبيِّ ﷺ: بأبِي مَن لم ينَمْ علىٰ الوثيرِ، ولم يشبعْ من خبزِ الشعيرِ.

وقال النبيُّ ﷺ: «**إنَّ اللهَ لم يخلقْ وعاءً ملِئَ شرًّا من بطنٍ، فإن كان لابدَّ فاجعلوا ثلثًا للطعامِ، وثلثًا للشقال ابن إسحاقرابٍ، وثلثًا للريحِ**».

وحكَىٰ لنا أبو بكرٍ أحمدُ بنُ إبراهيمَ بجرجانَ إمامُ الدنيا قال: رأيتُ أبَا خليفةَ المفضلَ بنَ الحبابِ، وقد دعِي إلىٰ وليمةٍ فرأَىٰ الصِّحافَ تُوضعُ وتُرفعُ، فقال: أللحُسنِ والمنظرِ دُعينَا، أم للأكلِ والمخبرِ؟ فقيل: بل للأكلِ والمخبرِ، قال: فاتركوا الصحفةَ يبلغُ قعرُها.

قال أبو الحسنِ: كانت لي ابنةٌ تجلسُ معي علىٰ المائدةِ فتبرزُ كفًّا كأنَّها طَلْعَةٌ، في ذراعٍ كأنَّها جُمَّارَةٌ[1]، فلا تقعُ عينُها علىٰ أكلةٍ نفيسةٍ إلَّا خصَّتني بها، فزوجتُها، وصارَ يجلسُ معي علىٰ المائدةِ ابنٌ لي، فيبرزُ لي كفًّا كأنَّها كِرْنَافَةٌ، في ذراعٍ كأنَّها كَرَبَة[2]، فواللهِ إنّ تسبقْ عيني إلىٰ لقمةٍ طيبةٍ إلَّا سبقتْ يدُه إليها.

وقال أعرابيٌّ للنبيِّ ﷺ: إنِّي نذَرت إذا بلَغتني ناقتي أن أنحرَها وآكلَ من كبدِها. قال: «بئسَما جازيتَها».

---

(١) الجُمَّارَة: هي شحمة النخل، وتكون في قلبها، وعادة ما تكون بيضاء وناعمة الملمس، وامرأة طلعة أي تظهر رأسها مرة وتستره أخرىٰ من حياءها وعدم جرأتها.

(٢) الكِرْنَافَة: أصل سَعَفْ النخل، والسعف كله يسمىٰ كَرَب، وتقال للرجل عظيم اليد أو الرجل أو الأنف مع يبوسة.

وقيل لطفيليٍّ: ما حدُّ الشبعِ؟ قال: أن يؤكلَ علىٰ أنَّه آخرُ الزادِ، ويؤتَىٰ علىٰ الجِلِّ والدِّقِّ.

وقيل لأعرابيٍّ: ما حدُّ الشبعِ؟ قال: أمَّا عندَكم يا حاضرةَ فلا أدرِي؛ وأما عندَنا في الباديةِ فما وجَدَتْ العينُ، وامتدَّتْ إليه اليدُ، ودارَ عليه الضرسُ وأساغَه الحلقُ، وانتفخَ به البطنُ، واستدارتْ عليه الحوايَا، واستغاثَتْ منه المعدةُ، وتقوَّستْ منه الأضلاعُ، والْتوتْ عليه المصارينُ، وخيفَ منه الموتُ.

وقيل لطبيبٍ: ما حدُّ الشبعِ؟ قال: ما عدَل الطبيعةَ، وحفظَ المزاجَ وأبقَىٰ الشهوةَ لمَا بعدُ..

وقيل لملاحٍ: ما حدُّ الشبعِ؟ قال: ألا تعرفُ السماءَ من الأرضِ، ولا الطولَ من العرضِ، ولا النافلةَ من الفرضِ، من شدةِ النهسِ والكسرِ والقطعِ والقرضِ. قيل له: أما تخافُ الهَيْضةَ؟ قال: إنَّما تصيبُ الهَيْضةُ مَن لا يسمِّي اللهَ عندَ أكلِه، ولا يشكرُه علىٰ النعمةِ فيه، فأمَّا مَن ذكَر اللهَ وشكَره فإنَّه يهضِمُ ويستمرئُ ويقومُ إلىٰ الزيادةِ.

وقيل لبخيلٍ: ما حدُّ الشبعِ؟ قال: الشبعُ حرامٌ كلُّه، وإنَّما أحلَّ اللهُ من الأكلِ ما نفَىٰ الخوَىٰ، وسكَّن الصداعَ، وأمسَك الرمقَ، وحالَ بينَ الإنسانِ وبينَ المرحِ، وهل هلَك الناسُ في الدينِ والدنيا إلَّا بالشبعِ و التضلُّعِ و البطنةِ و الاحتشاءِ، واللهِ لو كان للناسِ إمامٌ لوكَّل بكلِّ عشرةٍ منهم مَن يحفظُ عليهم عادةَ الصحةِ، وحالةَ العدالةِ، حتىٰ يزولَ التعدِّي، ويفشوَ الخيرُ.

وقيل لجنديٍّ: ما حدُّ الشِّبعِ؟ قال: ما شدَّ العضدَ، وأحمَىٰ الظهرَ، وأدرَّ

الوريدَ، وزاد في الشجاعةِ.

وقيل لزاهدٍ: ما حدُّ الشبعِ؟ قال: ما لم يحُلْ بينَك وبينَ صومِ النهارِ وقيامِ الليلِ. وإذا شكَا إليك جائعٌ عرفتَ صدقَه لإحساسِك به.

وقيل لسمُّويَه القاصِّ: مَن أفضلُ الشهداءِ؟ قال: مَن مات بالتخمةِ، ودفِن علىٰ الهيضةِ.

قيل لسمرقنديٍّ: ما حدُّ الشبعِ؟ قال: إذا جحَظتْ عيناك، وبكَم لسانُك، وثقُلت حركتُك، وارْجَحَنَّ بدنُك، وزالَ عقلُك، فأنت في أوائلِ الشبعِ. قيل له: إذا كان هذا أولُه، فما آخرُه؟ قال: أن تنشقَّ نصفينِ.

قيل لجمَّالٍ: ما حدُّ الشبعِ؟ قال: أنا أواصلُ الأكلَ فما أعرفُ الحدَّ، ولو كنتُ أنتهِي لوصفتُ الحالَ فيه، أعنِي أنِّي ساعةً ألُتُّ الدقيقَ، وساعةً أمُلُّ المَلَّةَ، وساعةً أثردُ، وساعةً آكلُ وساعةً أشربُ لبنَ اللقاحِ؛ فليس لي فراغٌ فأدرِي أنِّي بلغتُ من الشبعِ، إلَّا أنَّني أعلمُ في الجملةِ أنَّ الجوعَ عذابٌ وأنَّ الأكلَ رحمةٌ، وأنَّ الرحمةَ كلمَّا كانت أكثرَ، كان العبدُ إلىٰ اللهِ أقربُ، واللهُ عنه أرضٍ.

قال الوزيرُ: لما بلغتُ هذا الموضعَ من الجزءِ - وكنتُ أقرأُ عليه -: ما أحسنَ ما اجتمَع من هذه الأحاديثِ! هل بقيَ منها شيءٌ؟

قلتُ: بقيَ منها جزءٌ آخرُ.

قال: دعْه لليلةٍ أخرَىٰ.

ثم حضرتُ الليلةَ التي يليها فقرأتُ ما بقيَ من هذا الفنِّ.

حكَىٰ لنا ابنُ أسادة قال: كان عندَنا - يعني بأصفهانَ - رجلٌ أعمَىٰ يطوفُ ويسألُ، فأعطَاه مرةً إنسانٌ رغيفًا، فدعَا له وقال: أحسَن اللهُ إليك، وبارَك عليك، وجزَاك خيرًا، وردَّ غربتَك، فقال له الرجلُ: ولِمَ ذكرتَ الغربةَ في دعائِك، وما علمُك بالغربةِ؟ فقال: الآنَ لي هاهنا عشرونَ سنةً ما ناولَني أحدٌ رغيفًا صحيحًا.

وقال سعيدُ بنُ المسيبِ: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**أطيبُوا الطعامَ فإنَّه أنفَىٰ للسخطِ، وأجلبَ للشكرِ، وأرضَىٰ للصاحبِ**».

قال الشعبيُّ: استسقيتُ علىٰ خِوَانِ قتيبةَ، فقال: ما أسقيكَ؟ فقلتُ: الهَيِّنُ الوَجْدِ، العزيزُ الفقدِ، فقال: يا غلامُ، اسقِه الماءَ.

وسمِع أبو الأسودُ الدؤليُّ دابةً له تعتلِفُ في جوفِ الليلِ، فقال: إنِّي لأراكِ تسهرينَ في مالِي والناسُ نيامٌ، واللهِ لا تصبحينَ عندِي، وباعَها.

وأبو الأسودِ يُعَدُّ في الشعراءِ والتابعينَ والمحدِّثينَ والبخلاءِ والمفاليجِ والنحويينَ والقضاةِ والعرجِ والمعلمينَ.

كان مسلمُ بنُ قتيبةَ لا يجلسُ لحوائجِ الناسِ حتىٰ يشبعَ من الطعامِ الطيبِ، ويروَىٰ من الماءِ الباردِ، ويقولُ: إنَّ الجائعَ ضيقُ الصدرِ، فقيرُ النفسِ، والشبعانَ واسعُ الصدرِ، غنيُّ النفسِ.

وقَف أعرابيٌّ علىٰ حلقةِ الحسنِ البصريِّ رحمةُ اللهِ عليه، فقال: رحِم اللهُ

مَن أعطَىٰ من سعةٍ، وواسَىٰ من كفافٍ، وآثَر من قلةٍ، فقال الحسنُ: ما أبقَىٰ أحدًا إلَّا سأله.

قال طفيليٌّ: إذا حُدِّثْتَ علىٰ المائدةِ فلا تزدْ في الجوابِ علىٰ نَعَمْ، فإنَّك تكونُ بها مؤانسًا لصاحبِك، ومسيغًا للقمتِك، ومقبلًا علىٰ شأنِك.

وقيل لأعرابيٍّ: أيُّ شيءٍ أَحَدُّ؟ قال: كبدٌ جائعةٌ تُلقَىٰ إلىٰ أمعاءَ ضالعةٍ.

وقيل لآخرَ: أيُّ شيءٍ أَحَدُّ؟ قال: ضرسٌ جائعٌ، يلقَىٰ إلىٰ معًىٰ ضالعٍ.

ويقالُ: أقبحُ هزيلينِ: المرأةُ والفَرَسُ.

وكان الحسنُ البصريُّ إذا طبَخ اللحمَ قال: هلمُّوا إلىٰ طعامِ الأحرارِ.

قال سفيانُ الثوريُّ: إنِّي لألقَىٰ الرجلَ فيقولُ لي مرحبًا فيلينُ له قلبي، فكيف بمَن أطأُ بساطَه، وآكلُ ثريدَه، وأزدرِدُ عَصيدَه؟.

قال ابنُ هبيرةَ: تعجيلُ الغداءِ يزيدُ في المروءةِ، ويطيبُ النكهةَ، ويعينُ علىٰ قضاءِ الحاجةِ.

وقال أبو الحارثِ حميدٌ: ما رأيتُ شيئًا أشبهَ بالقمرِ ليلةَ البدرِ من قدرٍ سُقيت اللبنَ كثيرةِ السكرِ.

ضمَّ عثمانَ بنَ رواحٍ السَّفَرُ ورفيقًا له، فقال له الرفيقُ: امضِ إلىٰ السوقِ فاشترِ لنا لحمًا، قال عثمانُ: واللهِ ما أقدرُ، فمضَىٰ الرفيقُ واشترَىٰ اللحمَ، ثم قال لعثمانَ: قمْ الآنَ فاطبخْ القدرَ، فقال: واللهِ ما أقدرُ، فطبَخها الرفيقُ، ثم قال: قمْ الآنَ فاثردْ، فقال: واللهِ إنِّي لأعجزُ عن ذلك، فثَرد الرفيقُ، ثم قال: قمْ الآنَ فكلْ، فقال عثمان: واللهِ لقد استحييتُ من كثرةِ خلافِي

عليك، ولولا ذلك ما فعلتُ.

قال أردشيرُ: احذروا صولةَ الكريمِ إذا جاعَ، واللئيمَ إذا شبع.

وقال آخرُ: إنَّ من شؤمِ الضيفِ أن يغيبَ عن عشاءِ الحيِّ، أي لا يدركُه، فيريدُ إذا جاءَهم أن يتكلَّفوا له عشاءً علىٰ حدةٍ.

قال النبيُّ ﷺ فيما روَاه جابرُ بنُ عبدِ اللهِ: «**هلاكُ الرجلِ أن يحتقرَ ما في بيتِه أن يقدمَه إلىٰ ضيفِه، وهلاكُ الضيفِ أن يحتقرَ ما قُدمَ إليه**».

كتَب بعضُهم إلىٰ أخٍ له: إن رأيتَ أنَّ تروِي ظمأَ أخيك بقربِك، وتبرِّدَ غليلَه بطلعتِك، وتؤنسَ وحشتَه بأُنسِك، وتجلوَ غشاءَ ناظرِه بوجهِك، وتزيِّنَ مجلسَه بجمالِ حضورِك، وتجعلَ غداءَك عندَه في منزلِك الذي هو فيه ساكنٌ، وتمَّمت له السرورَ بك باقي يومِك، مؤثرًا له علىٰ شغلِك، فعلتَ - إن شاءَ اللهُ.

وقال جابرُ بنُ قبيصةَ: ما رأيتُ أحلمَ جليسًا، ولا أفضلَ رفيقًا، ولا أشبهَ سريرةً بعلانيةٍ، من زيادٍ.

وقال أيضًا: شهِدتُ قومًا ورأيتُهم بعيني، فما رأيتُ أقرأَ لكتابِ اللهِ، ولا أفقهَ في دينِ اللهِ، من عمرَ ابنَ الخطابِ رضي الله عنه.

وما رأيتُ رجلًا أعطَىٰ من صلبِ مالِه في غيرِ ولائِه، من طلحةَ بنِ عبيدِ اللهِ.

وما رأيتُ رجلًا أسودَ من معاويةَ.

وما رأيتُ رجلًا أنصعَ ظرفًا، ولا أحضرَ جوابًا، ولا أكثرَ صوابًا من عمرو ابنِ العاصِ.

وما رأيتُ رجلًا المعرفةُ عندَه أنفعُ منها عندَ غيرِه، من المغيرةَ بنِ شعبةَ.

قال الهلاليُّ: أتَىٰ رجلٌ أبا هريرةَ فقال: إنِّي كنتُ صائمًا فدخَلتُ بيتَ أبي فوجَدتُ طعامًا، فنسيتُ فأكلتُ، فقال أبو هريرةَ: اللهُ أطعَمك، قال: ثم دخلتُ بيتًا آخرَ فوجدتُ أهلَه قد حلَبوا لقحتَهم فسقوْني، فنسيتُ فشرِبتُ، فقال: يا بنيَّ هوِّنْ عليك فإنَّك قلَّما اعتدتَ الصيامَ.

وقال أعرابيٌّ: لا يكنْ بطنُ أحدِكم عليه مغرمًا، ليكسرْه بالتميرةِ والكسيرةِ والبقيلةِ والعليكةِ.

بَشَّرَت امرأةٌ زوجَها بأنَّ ابنَها منه قد اتغرَ[1]، فقال: أتبشرينَني بعدوِّ الخبزِ؟! اذهبِي إلىٰ أهلِك.

قال جابرٌ: كان النبيُّ ﷺ يأمرُ الأغنياءَ باتخاذِ الغنمِ، والفقراءَ باتخاذِ الدجاجِ.

قالت عائشةُ رضي الله عنها: يا رسولَ اللهِ، لي جارتانِ بأيِّتهما أبدأُ؟ قال: «**بأدناهِما بابًا منك**».

وقال النبيُّ ﷺ: «**الطاعمُ الشاكرُ بمنزلةِ الصائمِ الصابرِ**».

وقال النبيُّ ﷺ: «**ليس بمؤمنٍ مَن باتَ شبعانَ ريَّانَ وجارُه جائعٌ طاوٍ**».

قال عمرُ: مدمن اللحمِ كمدمنِ الخمرِ.

ويقال: القانعُ غنيٌّ وإن جاعَ وعريَ، والحريصُ فقيرٌ وإن ملَك الدنيا.

---

(١) أي ظهرت أسنانه.

قيل لإبراهيمَ الخليلِ عليه السلام: بأيِّ شيءٍ اتخذَك اللهُ خليلًا؟ قال: بأنِّي ما خيِّرتُ بينَ أمرينِ إلَّا اخترتُ الذي للهِ، وما اهتمَمتُ لمَا تكفَّل لي به، وما تغدَّيتُ وما تعشَّيتُ إلَّا مع ضيفٍ.

قال إسحاقُ الموصليُّ: أملَىٰ بعضُ الفقهاءِ بالكوفةِ أنَّ عمرَ بنَ الخطابِ رضي الله عنه كرِه السَّمَرَ إلَّا في الفقهِ، يريدُ كثرةَ السمرِ إلَّا في الفقهِ.

قال أعرابيٌّ: هذا الطعامُ مطيَبةٌ للنفسِ، محسنةٌ للجسمِ.

ومرَّ ابنُ عامرٍ علىٰ عامرِ بنِ عبدِ القيسِ وهو يأكلُ بقلًا بملحٍ، فقال: لقد رضيتُ باليسيرِ. فقال: أرضيَ منِّي باليسيرِ مَن رضيَ بالدنيا عوضًا عن الآخرةِ!

وقال سعيدُ بنُ سلمةَ: شيئانِ لا تشبعُ منهما ببغدادَ: السمكُ والرطبُ.

وقال حكيمٌ: ينبغِي ألَّا يُعطَىٰ البخيلُ أكثرَ من قوتِه، ليُحْكَمَ عليه بمثلِ ما حكَم به علىٰ نفسِه.

وقال آخرُ:

رأيتُ الجوعَ يطردُه رغيفٌ وملءُ الكفِّ من ماءِ الفراتِ

قيل لحاتمٍ الأصمِّ: بمَ رُزقتَ الحكمةَ؟ قال: بخلاوةِ البطنِ، وسخاوةِ النفسِ، ومكابدةِ الليلِ.

وقال شقيقٌ البلخيُّ: العبادةُ حرفةٌ، وحانوتُها الخلوةُ، وآلتُها الجوعُ.

قال لقمانُ: إذا امتلأتْ المعدةُ نامتْ الفكرةُ، وخرِست الحكمةُ، وقعَدت الأعضاءُ عن العبادةِ.

وقال عمرُ: لولا القيامةُ لشاركناكم في لينِ عشِيكم.

وقال بعضُ العربِ: أقلِلْ طعامَك تحمدْ منامَك.

قال يحيىٰ بنُ معاذٍ: الشبعُ يكنَىٰ بالكفرِ. وقال غيرُه: الجوعُ يكنَىٰ بالرحمةِ.

والعربُ تقولُ: أكرِموا الإبلَ إلَّا في بيتٍ يُبْنَىٰ، أو دمٍ يُفْدَىٰ، أو عزبٍ يتزوجُ، أو حَمَلِ حَمَالةٍ.

وقال معاويةُ لأعرابيّ: ما تجارتُك؟ قال: أبيعُ الإبلَ، قال: أما علِمتَ أنَّ أفواهَها حَرَبٌ، وجلودَها جَرَبٌ، وبعرَها حَطَبٌ، وتأكلُ الذهبَ.

وقال خالدُ بنُ صفوانَ: الإبلُ للبعدِ، والبغالُ للثقلِ، والبراذينُ للجَمالِ والدعَةِ، والحميرُ للحوائجِ، والخيلُ للكرِّ والفرِّ.

❁ ❁ ❁

ووصَف بعضُ البلغاءِ التجارَ فقال: لا يوجدُ الأدبُ إلَّا عندَ الخاصةِ والسلطانِ ومدبريه، وأمَّا أصحابُ الأسواقِ فإنَّا لا نُعْدَمُ من أحدِهم خُلُقًا دقيقًا، ودينًا رقيقًا، وحرصًا مسرفًا، وأدبًا مختلفًا، ودناءةً معلومةً، ومروءةً معدومةً، وإلغاءَ اللفيفِ[1]، ومجاذبةً علىٰ الطفيفِ، يبلغُ أحدُهم غايةَ المدحِ والذمِّ في علقٍ[2] واحدٍ، في يومٍ واحدٍ، مع رجلٍ واحدٍ، إذا اشترَاه منه أو

(١) أي الصديق.

(٢) العِلْق: البضاعة النفيسة.

باعَه إيَّاه، إن بايَعك مرابحةً وخبرَ بالأثمانِ، قويَ الأيمانُ علىٰ البهتانِ، وإن قلَّدتَه الوزنَ أعنتَ لسانَ الميزانِ، ليأخذَ برجحانٍ أو يعطيَ بنقصانٍ، وإن كان لك قبله حقٌّ لوَّاه محتجًّا في ذلك بسنةِ السَّوْفيِّين[١]، يرضَىٰ لك ما لا يرضَىٰ لنفسِه، ويأخذُ منك بنقدٍ ويعطيك بغيرِه، ولا يرَىٰ أنَّ عليه من الحقِّ في المبايعةِ مثلَ ما له؛ إن استنصحتَه غشَّك، وإن سألْته كذَبك، وإن صدقتَه حربَك، متمردُهم صاعقةٌ علىٰ المعاملينَ، وصاحبُ سمتِهم نقمةٌ علىٰ المسترسِلين[٢]؛ قد تعاطوا المنكرَ حتىٰ عرِف، وتناكَروا المعروفَ حتىٰ نُسِيَ، يتمسَّكون من الملةِ بما أصلَح البضائعَ، وينهَون عنها كلَّما عادَت بالوضائعِ[٣]؛ يُسَرُّ أحدُهم بحيلةٍ يرزقها لسلعةٍ ينفِقُها، وغيلةٍ لمسلمٍ يحميه الإسلامُ، فإذا أحكَم حيلتَه وغيلتَه غدَا قادرًا علىٰ حردِه، فغرَّ وضرَّ، وآبَ إلىٰ منزلِه بحطامٍ قد جمَعه، مغتبطًا بما أباحَ من دينِه، وانتَهك من حرمةِ أخيه، يَعُدُّ الذي كان منه حذقًا بالتكسبِ، ورفقًا بالمطلبِ، وعلمًا بالتجارةِ وتقدمًا في الصناعةِ.

فلمَّا بلغَت قراءتي هذا الموضعَ قال الوزيرُ: إن كان هذا الواصفُ عنَىٰ العامةَ بهذا القولِ فقد دخَل في وصفِه الخاصةُ أيضًا، فواللهِ ما أسمعُ ولا أرَىٰ هذه الأخلاقَ إلَّا شائعةً في أصنافِ الناسِ من الجندِ والكتابِ

---

(١) الذي يظهر أنها مشتقة من كلمة «سوف»، والتي يرددها الذين يسوفون ويماطلون.

(٢) أي الذي يتظاهر بسمت أهل الخير، يكون نقمة علىٰ صاحب الخلق المسترسل والمنبسط.

(٣) أي الخسائر.

والصالحينَ وأهلِ العلمِ، لقد حالَ الزمانُ إلىٰ أمرٍ لا يأتي عليه النعتُ، ولا تستوعبُه الأخبارُ، وما عجبِي إلَّا من الزيادةِ علىٰ مرِّ الساعاتِ، ولو وقَف لعلَّه كان يرجَىٰ بعضُ ما قد وقَع اليأسُ منه، واعترَض القنوطُ دونَه، ولو كان البالُ ظافرًا بنعمةٍ، والصدرُ فارغًا من كربةٍ، لكنَّا نبلغُ من هذا الحديثِ مبلغًا نشفِي به غليلَنا قائلينَ، ونشفِي به مستمعينَ، ولكنِّي قاعدٌ معَكم وكأنِّي غائبٌ، بل أنا غائبٌ من غيرِ كافِ التشبيهِ، واللهِ ما أملكُ تصرفِي ولا فكرِي في أمرِي، أرَىٰ واحدًا في فتلِ حبلٍ، وآخرَ في حفرِ بئرٍ، وآخرَ في نصبِ فخٍّ، وآخرَ في تمزيقِ عِرْضٍ، وآخرَ في اختلاقِ كذبٍ، وآخرَ في صدعِ ملتئمٍ، وآخرَ في حلِّ عقدٍ، وآخرَ في نفثِ سحرٍ، ونارِي مع صاحبِي رمادٌ، وريحُه عليَّ عاصفةٌ، ونسيمِي بينِي وبينَه سَمومٌ، ونصيبِي منه همومٌ وغمومٌ، وإنِّي أحدثُكم بشيءٍ تعلَمون به صدقي في شكوايَ، وتقِفون منه علىٰ تفسُّخي تحتَ بلوايَ، ولولا أنِّي أطفئُ بالحديثِ لهبًا قد تضرَّم صدري به نارًا، واحتشَىٰ فؤادي منه أُوارًا؛ لِمَا تحدثتَ به، ولو استطعتُ طيَّه لمَا نبستُ بحرفٍ منه، ولكنَّ كتمانِي للحديثِ أنقَبُ لحجابِ القلبِ من العَتلَةِ لسورِ القصرِ.

فقال له ابنُ زرعةٍ: إنَّ الأمورَ كلَّها بيدِ اللهِ، ولا يستنجَزُ الخيرُ إلَّا منه، ولا يستَدفعُ الشرُّ إلَّا به، فسلْه جميلَ الصنعِ وحسنَ النيةِ، وانْوِ الخيرَ وبُثَّ الإحسانَ، وكِلْ أعداءَك إلىٰ ربِّك الذي إذا عرَف صدقَك وتوكلَك عليه، فلَّلَ حدَّهم، وغفَر خَدَّهم، وسَيَّحَ الفراتَ إلىٰ جمرتِهم حتىٰ يطفئَها، وسلَّط الأَرَضَةَ علىٰ أبدانِهم حتىٰ تقرضَها، وشغَلهم بأنفسِهم، وخالَف بينَ كلمتِهم،

وصدَّع شملَ جميعِهم، وردَّهم إليك صاغرينَ ضارعينَ، وعرَضهم عليك خاضعينَ، وما ذلك علىٰ اللهِ بعزيزٍ، وإنَّ اللهَ مع المحسنينَ علىٰ المسيئينَ.

قال: واللهِ لقد وجدتُ رَوْحًا[١] كثيرًا بما قلتُ لكم وما سمِعتُ منكم، وأرجو أنَّ اللهَ يعينُ المظلومَ، ويهينَ الظالمَ. قد تمطَّىٰ الليلُ، وتغوَّرت النجومُ، وحنَّ البدنُ إلىٰ الترفُّهِ؛ فإذا شئتُم[٢]، فانصرَفنا متعجبينَ.

(١) أي راحة.

(٢) أي لو أذنتم بالانصراف.

الليلةُ الثالثةُ والثلاثونَ

أيُّها الشيخُ وصَل اللهُ قولَك بالصوابِ، وفعلَك بالتوفيقِ، وجعَل أحوالَك كلَّها منظومةً بالصلاحِ، راجعةً إلىٰ حميدِ العاقبةِ، متألفةً بشواردِ السرورِ، ووفَّر حظَّك من المدحِ والثناءِ، فإنَّهما ألذُّ من الشهدِ والسلوَىٰ، ومدَّ في عمرِك لكسبِ الخيرِ، واستدامةِ النعمةِ بالشكرِ؛ وجعَل تلذذَك باصطناعِ المعروفِ، وعرَّفك عواقبَ الإحسانِ إلىٰ المستحقِّ وغيرِ المستحقِّ، حتىٰ تكلفَ ببثِّ الجميلِ، وتشغفَ بنشرِ الأيادِي، وحتىٰ تجدَ طعمَ الثناءِ، أقولُ - وأبقاك لي خاصةً -: فقد تعصبتَ لي غائبًا وشاهدًا، وتعمَّمتَ بسببي سرًّا وجهرًا، وبدأتَ بالتفضلِ، وعُدتَ بالإفضالِ، وتظاهرتَ بالفضلِ؛ فإن استزدتُك فللنهمِ الذي قلَّما يخلُو منه بشرٌ، وإن تظلمتُ فللدّالَّةِ التي تغلطُ بها الخدمُ، وإن خاشنتُ فللثقةِ بحسنِ الإيجابِ، وإن غالطتُ: فلعلمِي بغالبِ الحلمِ وفرطِ الاحتمالِ، وما افترَق الكرمُ والتغافلُ قطُّ، وما افترَق المجدُ والكَيْسُ قطُّ، والناسُ يقولونَ: الحقُّ مرٌّ، وأنا أقولُ: السؤددُ مرٌّ، والرئاسةُ ثقيلةٌ، والنزولُ تحتَ الغبنِ شديدٌ؛ لكنَّ ذلك كلَّه منبتُ العزِّ، ودليلٌ علىٰ صحةِ الأصلِ، وبابٌ إلىٰ اكتسابِ الحمدِ، وإشادةِ الذكرِ، وإبعادِ الصيتِ. ومكرمُ النفسِ بإهانةِ المالِ وبذلِ الجاهِ وإيثارِ التواضعِ أربحُ تجارةً، وأحمىٰ حريمًا، وأعزُّ ناصرًا من مهينِ النفسِ بصيانةِ المالِ وحبسِ الجاهِ واستعمالِ

التكبرِ؛ هذا ما لا يشكُّ فيه أحدٌ وإن أبَاه طباعُه، ولم يساعدْه اختيارُه، وكان في طينِه يبسٌ، وفي منبتِه شوكٌ، وفي عرقِه خورٌ، وفي خلقِه تيهٌ.

وقد رأيتُ ناسًا من عظماءِ أهلِ الفضلِ والمروءةِ عابُوا مذهبَ الرجلِ الذي ماكَس في شيءٍ تافهٍ يسيرٍ اشترَاه، قيل له: أنت تهبُ أضعافَ هذا، فما هذا المِكاسِ؟! فقال: هذا عقلِي أبخلُ به، وتلك مروءَتي أجودُ بها.

وأكثرُ الناسِ الذين لم يغوروا في التجاربِ، ولا أنجَدوا في الحقائقِ، يرونَ هذا حكمةً تامةً، وفضيلةً شريفةً، وأما عظماءُ أهلِ الفضلِ والمروءةِ فإنَّهم قالوا: لا تتمُّ المروءةُ وصاحبُها ينظرُ في الدقيقِ الحقيرِ، ويعيدُ القولَ ويبدئُه في الشيءِ النزرِ الذي لا مردَّ له ظاهرٌ، ولا جدوَىٰ حاضرةٌ، وذكروا أيضًا أنَّ العقلَ أشرفُ من أن يذالَ في مثلِ هذه الحالِ، ويستخدمَ علىٰ هذا الوجهِ، وقد قال الأولُ:

وَقْدَ يَتَغَابَىٰ المَرْءُ عَنْ عُظْمِ مَالِهِ وَمِنْ تَحْتِ بُرْدَيْهِ المُغِيرَةُ أَوْ عَمْرُو

وبعُدتُ - جعلنِي اللهُ فدَاك - عن منهجِ القولِ وسننَ الحديثِ، وأطعتُ داعيةَ الوسواسِ، وذهَبت مع سانحِ الوهمِ؛ وقد قيل: الحديثُ ذو شجونٍ.

فأرجعُ وأقولُ: قد أوصلتُ إليك الجزأينِ الأولَ والثانِي علىٰ يدِ غلامِك فائقٍ؛ وهذا الجزءُ - وهو الثالثُ - قد واللهِ نفَثتُ فيه كلَّ ما كان في نفسِي من جِدٍّ وهزلٍ، وغثٍّ وسمينٍ، وشاحبٍ ونضيرٍ، وفكاهةٍ وطيبٍ، وأدبٍ واحتجاجٍ، واعتذارٍ واعتلالٍ واستدلالٍ، وأشياءَ من طريفِ الممالحةِ علىٰ ما رسِم لي، وطلِبَ منِّي.

وها أنَا آخذُ في نشرِ ما جرَىٰ علىٰ وجهِه إلَّا ما اقتضَىٰ من الزيادةِ في الإبانةِ والتقريبِ، والشرحِ والتكشيفِ، وقد جمعتُ لك جميعَ ما شاهدتُه في هذه المدةِ الطويلةِ، ليكونَ حظُّك من الكرمِ والمجدِ موفورًا، ونصيبِي من اهتمامِك بأمرِي وجذبُك بباعِي وإنقاذُك إيايَ من أسرِي تامًّا، فظنِّي واعدٌ بأنَّك تبلغُ بي ما آملُه فيك وتتجاوزُه وتتطاولُ إلىٰ ما فوقَه، لأزدادَ عجبًا ممَّا خصَّك اللهُ به، وأفرَدك فيه؛ وأتحدثُ علىٰ مَرِّ الأيامِ بغريبِه، وأحثُّ كلَّ مَن أرَاه بعدَك علىٰ سلوكِ طريقِك في الخيرِ، ولزومِ منهاجِك في الجميلِ، والدينونةِ بمذهبِك المستقيمِ، فقد ألبسَك اللهُ رداءَ الفضلِ، وأطلَعك من منبتٍ كريمٍ، ودرَجك من بيتٍ ضخمٍ، وآتاك الحكمةَ، وفتَق لسانَك بالبيانِ، وأترَع صدرَك بالعلمِ، وخلَط أخلاقَك بالدماثةِ، وشهَرك بالكرمِ، وخفَّف عليك النهوضَ بكلِّ ما يكسبُك الشكرَ من القريبِ والبعيدِ، وبكلِّ ما يدخرُ لك الأجرَ عندَ الصادرِ والواردِ، حتىٰ صرتَ كهفًا لأبناءِ الرجاءِ، ومفزعًا لبنِي الآمالِ؛ فبابُك مغشيٌّ مزورٌ، وفناؤُك متابٌ، وخوانُك محضورٌ، وعلمُك مقتبَس، وجاهُك مبذولٌ، وضيفُك محدَّثٌ، وكتبُك مستعارَةٌ، وغداؤُك حاضرٌ، وعشاؤُك معجَّلٌ، ووجهُك مبسوطٌ، وعفوُك محمودٌ، وجدُّك مشكورٌ، وكلُّ أمرِك قائمٌ علىٰ النهايةِ، وبالغٌ الغايةَ، واللهُ يزيدُك ويزيدُنا بك، ولا يبتلينا بفقدِ ما ألفنَاه منك، بمنِّه وجودِه، والسلامُ.

❁ ❁ ❁

وكان الوزيرُ قد استزادَني من حديثِ الممالحةِ، فقلتُ: قال زيادٌ لغيلانَ

ابنَ خرشةَ[١]: أحبُّ أن تحدثَني عن العربِ وجَهْدِها وضَنْكِ عيشِها، لنحمدَ اللهَ علىٰ النعمةِ التي أصبَحنا بها. فقال غيلانُ: حدَّثني عمِّي قال: توالَت علىٰ العربِ سِنُونُ سَبْعٌ في الجاهليةِ حصَّتْ كلَّ شيءٍ، فخَرجتُ علىٰ بَكرٍ لي في العربِ، فمكثتُ سبعًا لا أذوقُ فيهنَّ شيئًا إلَّا ما ينالُ بعيرِي من حشراتِ الأرضِ، حتىٰ دنوتُ إلىٰ حِوَاءٍ[٢] عظيمٍ، فإذا ببيتٍ جَحِيشٍ[٣] عن الحيِّ، فملتُ إليه، فخرَجَتْ إليَّ امرأةٌ طُوَالةٌ[٤] حُسَّانةٌ، فقالت: مَن؟

قلتُ: طارقُ ليلٍ يلتمِسُ القِرَىٰ.

فقالت: لو كان عندَنا شيءٌ آثرنَاك به، والدالُّ علىٰ الخيرِ كفاعلِه، جُسَّ هذه البيوتَ فانظرْ إلىٰ أعظمِها، فإن يكُ في شيءٍ منها خيرٌ ففيه.

ففعلتُ حتىٰ دنوتُ إليه، فرحَّب بي صاحبُه وقال: مَن؟

قلتُ: طارقُ ليلٍ يلتمِسُ القِرَىٰ.

فقال: يا فلانُ، فأجابَه، فقال: هل عندَك من طعامٍ؟ قال: لا.

قال عمِّي: فوالله ما وقَر في أذنيَّ شيءٌ كان أشدَّ عليَّ منه.

فقال ربُّ البيتِ: هل عندَك من شرابٍ؟

---

(١) هو غيلان بن خرشة بن عمرو الضبي البصري، من أشراف البصرة، وكان من أصحاب أبي موسىٰ الأشعري حين كان واليًا للبصرة في خلافة عثمان بن عفان، له أخبار مع الخوارج، وإليه تنتسب فرقة من فرق الإرجاء تسمىٰ الغيلانية.

(٢) الحواء: جماعة البيوت.

(٣) أي بيت منعزل في ناحية عن منازل الناس.

(٤) طوالة: صيغة مبالغة من طويلة.

قال: لا، ثم تأوَّه وقال: قد أبقَيْنا في ضرعِ فلانةٍ[١] شيئًا لطارقٍ إن طرَق.

قال ربُّ البيتِ: فأتِ به، فأتَىٰ العَطَنَ فابتعَثها.

فحدَّثني عمِّي: أنَّه شهِد فتحَ أصفهانَ وتُسْتَرَ ومِهْر جَان قَذقَ وكُورَ الأهوازِ وفارسَ، وجاهَد عندَ السلطانِ وكثُر مالُه وولدُه، فما سمِعتُ شيئًا قطُّ كان ألذَّ إليَّ من شَخَبِ[٢] تلك الناقةِ في تلك العُلبةِ، حتىٰ إذا ملأها ففاضت من جوانبِها وارتفَعت عليها رَغْوَةٌ كَجُمَّةِ[٣] الشيخِ، أقبَل بها نحوي فعثَر بعودٍ أو حجرٍ، فسقَطت العلبةُ من يدِه، فحدَّثني عمِّي: أنَّه أصِيب بأبيه وأمِّه وولدِه وأهلِ بيتِه، فما أُصيب بمصيبةٍ أعظمَ عليه من ذهابِ العلبةِ، فلمَّا رآني كذلك ربُّ البيتِ خرَج شاهرًا سيفَه، فبعَث الإبلَ ثم نظَر إلىٰ أعظمَها سنامًا، علىٰ ظهرِها مثلَ رأسِ الرجلِ الصَّعِلِ[٤]، فكشَف عن فُوَّهَتِه[٥] ثم أوقَد نارًا، واجْتَبَّ سنامَها، ودفَع إليَّ مُدْيةً وقال: يا عبدَ اللهِ، اصْطَلِ وَاجْتَمِلْ[٦]، فجعَلت أهوِي بالبَضْعَةِ إلىٰ النارِ، فإذا بلَغت إنَاها أكلتُها، ثم مسحتُ ما في يدِي من إهالتِها علىٰ جلدِي، وكان قد قَحِلَ[٧] علىٰ عظمِي حتىٰ كأنَّه شَنٌّ[٨]،

---

(١) اسم لناقته.

(٢) صوت حلب الضرع.

(٣) الشعر الكثير الذي يصل إلىٰ الكتف.

(٤) الرجل الصعل: أي دقيق الرأس.

(٥) أي أعلىٰ السنام.

(٦) اجتمل الشحم: أذابه في النار.

(٧) يبس من وهج الحر وبعد عهده من الماء.

(٨) المزادة اليابسة الخلقة.

ثم شرِبتُ ماءً وخرَرتُ مغشيًّا عليَّ، فما أفقتُ إلىٰ السَحَرِ.

واستعادَني الوزيرُ أدامَ اللهُ علوَّه هذا الحديثَ مرتينِ وأكثرَ كالمتعجِّبِ، وقال: صدَق القائلُ في العربِ: مُنِعوا الطعامَ وأُعطوا الكلامَ.

❁ ❁ ❁

واعترَض حديثَ العلمِ، فأنشدَ ابنُ عبيدٍ الكاتبُ لسابقٍ البربريِّ قولَه:

العلمُ يَجلو العمَىٰ عن قلبِ صاحبِه كما يُجلِّي سوادَ الظلمةِ القمرُ

وقال أيضًا:

إذا ما لم يكنْ لكَ حسنَ فهمٍ أسأتَ إجابةً وأسأتَ فهمَا

وقال آخرُ:

العلمُ يُنعِشُ أقوامًا فينقَعُهم[1] كالغيْثِ يُدرِكُ عِيدانًا فيُحْييها

فقال الوزيرُ: عندِي في صحيفةِ حفظِ الصِّبَا: العلمُ سراجٌ يجلِّي الظلمةَ، وضياءٌ يكشِف العمَىٰ، التذللُ مكروهٌ إلَّا في استفادتِه، والحرصُ مذمومٌ إلَّا في طلبِه، والحسدُ منهيٌّ عنه إلَّا عليه.

قال ابنُ عبَّاسٍ: ما من داخلٍ إلَّا وله حيرةٌ، فابدءوه بالسلامِ، وما من مدعوٍّ إلَّا وله حشمةٌ، فابدءوه باليمينِ.

❁ ❁ ❁

(١) أي يرويهم بالماء.

قال أعرابيٌّ:

يَمُنُّ عَلَيَّ بِالتَزْوِيجِ شَيْخِي ... وَفِي التَزْوِيجِ لِي هَمٌّ وَشُغْلُ
وَكُنْتُ مِنَ الهُمُومِ رَخِيَّ بَالٍ ... فَحَلَّ مِنَ الهُمُومِ عَلَيَّ ثِقْلُ
فَقُلْتُ لَهُ: مَنَنْتَ بِغَيْرِ مَنٍّ ... وَمَالَكَ بِالذِي أَسْدَيْتَ فَضْلُ
أَعُزَّابُ العَشِيرَةِ لَوْ عَلِمْتُمْ ... بِحَالِي حِينَ لِي بَيْتٌ وَأَهْلُ
عَلِمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي حَالِ عَيْشٍ ... رَخِيٍّ مَالَهُ يَا قَوْمُ عَدْلُ

الليلةُ الرابعةُ والثلاثونَ

قال الوزيرُ: قد واللهِ ضاقَ صدري بالغيظِ لمَا يبلغُني عن العامةِ من خوضِها في حديثِنا، وذِكرِها أمورَنا، وتتبُّعِها لأسرارِنا، وتنقيرِها عن مكنونِ أحوالِنا، ومكتومِ شأنِنا. وما أدري ما أصنعُ بها؟

وإنِّي لأَهُمُّ في الوقتِ بعدَ الوقتِ، بقطعِ ألسنةٍ وأيدٍ وأرجلٍ وتنكيلٍ شديدٍ، لعلَّ ذلك يطرحُ الهيبةَ، ويحسمُ المادةَ، ويقطعُ هذه العادةَ، لحَاهم اللهُ، ما لهم لا يُقبِلُون علىٰ شؤونِهم المهمةِ، ومعايشِهم النافعةِ، وفرائضِهم الواجبةِ؟ ولِمَ يُنَقِّبُون عمَّا ليس لهم، ويُرْجِفُونَ بما لا يُجْدِي عليهم، ولو حَقَّقُوا ما يقولونَ ما كان لهم فيه عائدةٌ ولا فائدةٌ؛ وإنِّي لأعجبُ من لهَجِهم وشَغفِهم بهذا الخلقِ حتىٰ كأنَّه من الفرائضِ المحتومةِ، والوظائفِ الملزومةِ.

وقد تكرَّر منَّا الزجرُ، وشاعَ الوعيدُ، وفشَا الإنكارُ بينَ الصغارِ والكبارِ، ولقد تَعَايَا عليَّ هذا الأمرُ، وأُغْلِقَ دوني بابُه، وتكاثفَ عليَّ حجابُه، واللهُ المستعانُ.

فقلتُ: أيُّها الوزيرُ، عندِي في هذا جوابٌ: هو ما سمعتُ من شيخِنا أبي سليمانَ، وهو مَن تفوَّق في الفضلِ والحكمةِ والتجربةِ ومحبةِ هذه الدولةِ والشفقةِ عليها من كلِّ هَبَّةٍ ودَبَّةٍ؛ وفي الجوابِ فائدةٌ عظيمةٌ، ولكنَّ الجملةُ

خشناءُ، وفيها بعضُ الغلظةِ، والحقُّ مرٌّ، ومَن توخَّىٰ الحقَّ احتمَل مرارتَه.

فقال الوزيرُ: اذكرْ الجوابَ وإن كان غليظًا، فليس يُنتفَعُ بالدواءِ إلَّا بالصبرِ علىٰ بشاعتِه، وصدودِ الطبعِ عن كراهتِه.

قلتُ: قال أبو سليمانَ: ليس ينبغِي لمَن كان اللهُ ﷻ جعَله سَائِسَ الناسِ؛ عامتِهم وخاصتِهم، وعالمِهم وجاهلِهم، وضعيفِهم وقويِّهم، وراجحِهم وشائلِهم، أن يضجرَ ممَّا يبلغُه عنهم أو عن واحدٍ منهم لأسبابٍ كثيرةٍ، منها: أنَّ عقلَه فوقَ عقولِهم، وحلمَه أفضلُ من حلومِهم، وصبرَه أتمُّ من صبرِهم.

ومنها: أنَّهم إنَّما جُعِلوا تحتَ قدرتِه، ونِيطُوا بتدبيرِه، واختُبِروا بتصريفِهم علىٰ أمرِه ونهيِه، ليقومَ بحقِّ اللهِ تعالىٰ فيهم، ويصبرَ علىٰ جهلِ جاهلِهم، ويكونَ عمادُ حالِه معهم الرفقُ بهم، والقيامُ بمصالحِهم.

ومنها: أن العلاقةَ التي بينَ السلطانِ وبينَ الرعيةِ قويةٌ، لأنَّها إلهيةٌ، وهي أوشجُ من الرحمِ التي تكونُ بينَ الوالدِ والولدِ، والملكُ والدٌ كبيرٌ، كما أن الوالدَ ملكٌ صغيرٌ، وما يجبُ علىٰ الوالدِ في سياسةِ ولدِه من الرفقِ به، والحُنُوِّ عليه، والرقةِ له، واجتلابِ المنفعةِ إليه، أكثرُ ممَّا يجبُ علىٰ الولدِ في طاعةِ والدِه، وذلك أنَّ الولدَ غِرٌّ، وقريبُ العهدِ بالكونِ، وجاهلٌ بالحالِ، وعارٍ من التجربةِ، كذلك الرعيةُ الشبيهةُ بالولدِ، وكذلك الملكُ الشبيهُ بالوالدِ؛ وممَّا يزيدُ هذا المعنَىٰ كشفًا، ويكسبُه لطفًا، أنَّ الملكَ لا يكونُ ملكًا إلَّا بالرعيةِ، كما أنَّ الرعيةَ لا تكونُ رعيةً إلا بالملكِ، وهذا من الأحوالِ المتضايفةِ، والأسماءِ المتناصفةِ؛ وبسببِ هذه العلاقةِ المحكَمةِ والوصلةِ الوشيجةِ، لهَجَت العامةُ بِتَعَرُّفِ حالِ سائسِها، والناظرِ في أمرِها، والمالكِ

لزمامِها، حتىٰ تكونَ علىٰ بيانٍ من رفاهةِ عيشِها، وطيبِ حياتِها، ودرورِ مواردِها، بالأمنِ الفاشِي بينَها، والعدلِ الفائضِ عليها، والخيرِ المجلوبِ إليها، وهذا أمرٌ جارٍ علىٰ نظامِ الطبيعةِ، ومندوبٌ إليه أيضًا في أحكامِ الشريعةِ.

ولو قالت الرعيةُ لسلطانِها: لم لا نخوضُ في حديثِك، ولا نبحثُ عن غيبِ أمرِك، ولِمَ لا نسألُ عن دينِك ونِحْلتِك وعادتِك وسيرتِك؟ ولِمَ لا نقفُ علىٰ حقيقةِ حالِك في ليلِك ونهارِك؛ ومصالحُنا متعلقةٌ بك، وخيراتُنا متوقَّعةٌ من جهتِك، ومسرتُنا ملحوظةٌ بتدبيرِك، ومساءتَنا مصروفةٌ باهتمامِك، وتظلُّمنا مرفوعٌ بعزِّك، ورفاهيتُنا حاصلةٌ بحسنِ نظرِك وجميلِ اعتقادِك، وشائعِ رحمتِك، وبليغِ اجتهادِك؟

ما كان جوابَ سلطانِها وسائسِها؟

أما كان عليه أن يعلمَ أنَّ الرعيةَ مصيبةٌ في دعوَاها التي بها استطالت؟ بلىٰ واللهِ، الحقُّ معترَفٌ به وإن شغَب الشاغبُ، وأعنَتَ المعنِّتُ.

ولو قالت الرعيةُ أيضًا: ولِمَ لا نبحثُ عن أمرِك؟ ولِمَ لا تسمعُ كلَّ غثٍّ وسمينٍ منَّا! وقد ملَكتَ نواصِينا، وسكنتَ ديارَنا، وصادَرتنا علىٰ أموالِنا، وحُلْتَ بينَنا وبينَ ضِياعِنا، وقاسَمتنا مواريثَنا، وأنسيتَنا رَفاغةَ العيشِ، وطيبَ الحياةِ، وطمأنينةَ القلبِ، فطرقُنا مخوفةٌ، ومساكنُنا منزولةٌ، وضياعُنا مقطَّعةٌ، ونعمُنا مسلوبةٌ، وحريمُنا مستباحٌ، ونقدُنا زائفٌ، وخراجُنا مضاعفٌ، ومعاملتُنا سيئةٌ، وجنديُّنا متغطرِسٌ، وشُرطيُّنا منحرفٌ، ومساجدُنا خربةٌ، ووقوفُها منتهَبةٌ، ومارستاناتُنا خاويةٌ، وأعداؤُنا مستكلبةٌ، وعيونُنا سخينةٌ،

وصدورُنا مغيظةٌ، وبليتُنا متصلةٌ، وفرحُنا معدومٌ؟

ما كان الجوابَ أيضًا عمَّا قالت؟

وعمَّا لم تقلْ، هيبةً لك، وخوفًا علىٰ أنفسِها من سطوتِك وصولتِك؟

وقد حُكِيَ أنَّه رفِع إلىٰ الخليفةِ المعتضدِ أنَّ طائفةً من الناسِ يجتمعونَ ويجلسونَ ويخوضونَ في الفضولِ والأراجيفِ وفنونٍ من الأحاديثِ، وفيهم من يسترقُ السمعَ منهم من خاصةِ الناسِ، وقد تفاقَم فسادُهم وإفسادُهم، فلمَّا عرَف الخليفةُ ذلك ضاقَ ذرعًا، وحرِج صدرًا، وامتلأ غيظًا، ودعَا بأحدِ وزرائِه، ورمَىٰ بالرفيعةِ[1] إليه، وقال: انظرْ فيها وتفهَّمْها.

ففعل الوزيرُ - وشاهَد من تربُّدِ وجهِ الخليفةِ المعتضدِ ما أزعَج ساكنَ صدرِه، وشرد آلفَ صبرِه - وقال: قد فهمتُ يا أميرَ المؤمنينَ.

قال الخليفةُ: فما الدواءُ؟

قال الوزيرُ: تتقدمُ بأخذِهم وصلبِ بعضِهم، وإحراقِ بعضِهم، وتغريقِ بعضِهم، فإنَّ العقوبةَ إذا اختلَفت، كان الهولُ أشدَّ، والهيبةُ أفشَا، والزجرُ أنجعَ، والعامةُ أخوفَ.

فقال المعتضدُ - وكان أعقلَ من وزيرِه -: واللهِ لقد بَرَّدْتَ لهيبَ غضبي بفورتِك هذه، ونقَلتني إلىٰ اللينِ بعدَ الغلظةِ، وحَطَطْتَ عليَّ الرفقَ، من حيثُ أشرتَ بالخُرْقِ، وما علمتُ أنَّك تستجيزُ هذا في دينِك وهديِك ومروءتِك، ولو أمرتُك ببعضِ ما رأيتَ بعقلِك وحزمِك، لكان من حسنِ المؤازرةِ.

---

(١) أي الورقة المرفوعة وفيها أسماء من يجتمعون ويخوضون في أحاديث المَلِك.

ومبذولُ النصيحةِ، والنظرُ للرعيةِ الضعيفةِ الجاهلةِ، أن تسألَني الكفَّ عن الجهلِ، وتبعثَني علىٰ الحلمِ، وتُحَبِّبَ إلَيَّ الصفحَ، وترغِّبُني في فضلِ الإغضاءِ علىٰ هذه الأشياءِ، وقد ساءَني جهلُك بحدودِ العقابِ، وبما تقابلُ به هذه الجرائرَ، وبما يكونُ كُفْا للذنوبِ، ولقد عصيتَ اللهَ بهذا الرأيِ، ودلَلتَ علىٰ قسوةِ القلبِ، وقلةِ الرحمةِ، ويبسِ الطينةِ، ورقةِ الديانةِ.

أما تعلمُ أنَّ الرعيةَ وديعةُ اللهِ عندَ سلطانِها؟ وأنَّ اللهَ يسألُه عنها كيف ساسَها؟ ولعلَّه لا يسألُها عنه، وإن سألها فليؤكدَ الحجةَ عليه منها؛ ألا تدرِي أنَّ أحدًا من الرعيةِ لا يقولُ ما يقولُ إلَّا لظلمٍ لحِقه أو لحِق جارَه، وداهيةٍ نالتْه أو نالت صاحبًا له، وكيف نقولُ لهم: كونوا صالحينَ أتقياءَ مقبلينَ علىٰ معايشِكم، غيرَ خائضينَ في حديثِنا، ولا سائلينَ عن أمرِنا، والعربُ تقولُ في كلامِها: غلبَنا السلطانُ فلبِس فروتَنا، وأكَل خضرتَنا، وحَنَقُ المملوكِ علىٰ المالكِ معروفٌ، وإنَّما يُحتمَلُ السيدُ علىٰ صروفِ تكاليفِه، ومكارهِ تصاريفِه، إذا كان العيشُ في كَنَفِه رافعًا، والأملُ فيه قويًّا، والصدرُ عليه باردًا، والقلبُ معه ساكنًا، أتظنُّ أنَّ العملَ بالجهلِ ينفعُ، والعذرَ به يسعُ، لا واللهِ ما الرأيُ ما رأيتَ، ولا الصوابُ ما ذكرتَ.

وَجِّه صاحبَك وليكنْ ذا خبرةٍ ورفقٍ، ومعروفًا بخيرٍ وصدقٍ، حتىٰ يعرفَ حالَ هذه الطائفةِ، ويقفَ علىٰ شأنِ كلِّ واحدٍ منها في معاشِه، وقَدْرِ ما هو متقلبٌ فيه ومنقلبٌ إليه، فمَن كان منهم يصلحُ للعملِ فعلِّقْه به، ومَن كان سيئَ الحالِ فصلْه من بيتِ المالِ بما يعيدَ نضرةَ حالِه، ويفيدُه طمأنينةَ بالِه؛ ومَن لم يكنْ من هذا الرَّهْطِ، وهو غنيٌّ مكفيٌّ، وإنَّما يخرجُه إلىٰ هذا البطرُ

والزهوُ، فادعُ به، وانصحْه، ولاطِفْه، وقلْ له: إنَّ لفظَك مسموعٌ، وكلامَك مرفوعٌ؛ ومتىٰ وقَف أميرُ المؤمنينَ علىٰ كُنْهِ ذلك منك لم تجدْك إلَّا في عَرْصَةِ المقابرِ، فاستأنفْ لنفسِك سيرةً تسلمُ بها من سلطانِك، وتُحْمَدُ عليها عندَ إخوانِك، وإيَّاك أن تجعلَ نفسَك عظةً لغيرِك بعدَما كان غيرُك عظةً لك؛ ولولا أنَّ الأخذَ بالجريرةِ الأُولىٰ مخالفٌ للسيرةِ المُثلَىٰ، لكان هذا الذي تسمعُه ما ترَاه، وما ترَاه تودُّ أنَّك لو سمعتَه قبلَ أن ترَاه.

فإنَّك إذا فعلتَ ذلك فقد بالغتَ في العقوبةِ، وملكتَ طرفِي المصلحةِ، وقمتَ علىٰ سواءِ السياسةِ، ونجوتَ من الحوبِ والمأثمِ في العاقبةِ.

وفارقَ الوزيرَ حضرةَ الخليفةِ، وعمِل بما أُمِرَ به علىٰ الوجهِ اللطيفِ، فعادَت الحالُ ترفُّ بالسلامةِ العامةِ، والعافيةِ التامةِ.

قال الوزيرُ لأبي حيانَ: ما سمِعتُ مثلَ هذا قطُّ، وما ظننتُ أنَّ الخطبَ في مثلِ هذا يبلغُ هذا القدرَ، ولقد مرَّ في هذا الفنِّ ما كان فوقَ حسباني وأكثرُ ممَّا كان في ظنِّي، وكم من شيءٍ حقيرٍ يطلعُ منه علىٰ أمرٍ كبيرٍ، وإنَّ فيما مرَّ لكفايةٌ، وما يزيدُ علىٰ الكفايةِ، وإنَّ الزيادةَ من العلمِ داعيةٌ إلىٰ الزيادةِ من العملِ، والزيادةُ من العملِ جالبةٌ الانتفاعَ بالعلمِ، والانتفاعُ بالعلمِ دليلٌ علىٰ سعادةِ الإنسانِ، وسعادةُ الإنسانِ مقسومةٌ علىٰ اقتباسِ العلمِ والتماسِ العملِ، حتىٰ يكونَ بأحدِهما زارعًا، وبالآخرِ حاصدًا، وبأحدِهما تاجرًا، وبالآخرِ رابحًا.

وقال الوزيرُ: أنشدْني شيئًا؛ فأنشدتُه قولَ الشاعرِ:

رَجَعْتُ عَلَىٰ السَّفِيهِ بِفَضْلِ حِلْمِي وَكَانَ تَحَلُّمِي عَنْهُ لِجَامَا
وَظَنَّ بِي السِفَاهَ فَلَمْ يَجِدْنِي أُسَافِهُهُ وَقُلْتُ لَهُ: سَلَامَا
فَقَامَ يَجُرُّ رِجْلَيْهِ ذَلِيلًا وَقَدْ كَسِبَ المَذَلَّةَ وَالمَلَامَا
وَفَضْلُ الحِلْمِ أَبْلَغُ فِي سَفِيهٍ وَأَحْرَىٰ أَنْ يَنَالَ بِهِ انْتِقَامَا

فقال الوزيرُ: ما أعجبَ أمرَ العربِ، تأمرُ بالحلمِ مرةً، والصبرِ والكظمِ مرةً، وتحثُّ بعدَ ذلك علىٰ الانتصافِ وأخذِ الثأرِ، وتذمُّ السفهَ وقمعَ العدوِّ! وهكذا شأنُها في جميعِ الأخلاقِ؛ أعني أنَّها ربَّما حضَّتْ علىٰ القناعةِ والصبرِ والرضَا بالميسورِ، وربَّما خالَفت هذا، فأخذتْ تذكرُ أنَّ ذلك فسالةٌ ونقصانُ همةٍ ولينُ عريكةٍ ومهانةُ نفسٍ، وكذلك أيضًا تحثُّ علىٰ البسالةِ والإقدامِ والانتصارِ والحميةِ والجسارةِ، وربَّما عدَلت إلىٰ أضدادِ هذه الأخلاقِ والسجايَا والضرائبِ والأحوالِ؛ في أوقاتٍ يحسنُ فيها بعضُها، ويقبحُ بعضُها، ويعذَرُ صاحبُها في بعضِها، ويُلامُ في بعضِها؛ وذلك لأنَّ الطبائعَ مختلفةٌ، والغرائزَ متعاديةٌ، فهذا يمدحُ البخلَ في عرضِ الحزمِ، وهذا يحمدُ الاقتصادَ في جملةِ الاحتياطِ، وهذا يذمُّ الشجاعةَ في عرضِ طلبِ السلامةِ، وليس في جميعِ الأخلاقِ شيءٌ يحسنُ في كلِّ زمانٍ وفي كلِّ مكانٍ، ومع كلِّ إنسانٍ، بل لكلِّ ذلك وقتٌ وحينٌ وأوانٌ.

ثم قال الوزيرُ: حدِّثْني بشيءٍ فيه جوابٌ حاضرٌ، وللبديهةِ فيه توقدٌ ظاهرٌ.

فحدثتُ: أنَّ رجلًا أتَىٰ الزهريَّ فسأله أن يحدثَه ويروِي له؛ فأبَىٰ عليه، فقال له الرجلُ: إنَّ اللهَ لم يأخذْ الميثاقَ علىٰ الجهالِ أن يتعلموا حتىٰ أخذَ الميثاقَ علىٰ العلماءِ أن يعلِّموا. فقال: صدقتَ، وحدَّثه.

وحدَّثنا القاضِي أبو حامدٍ المروروذيُّ؛ قال: وقَف سائلٌ في جامعِ البصرةِ وفي المجلسِ ابنُ عبدلٍ المنصوريُّ، وابنُ معروفٍ، وأبو تمامٍ الزينبيُّ، فسأل وألحَّ؛ فقلتُ له من بينِ الجماعةِ - وقد ضجِرتُ من إلحاحِه وصفاقةِ وجهِه - : يا هذا نزلتَ بوادٍ غيرِ ذي زرعٍ.

قال السائلُ: صدقتَ، ولكن يجبُىٰ إليه ثمراتُ كلِّ شيءٍ.

فضحِكت الجماعةُ، ووهبْنا له دراهمَ.

ومن الجوابِ الحاضرِ المُسكتِ الذي حزَّ الكبدَ ونقَب الفؤادَ ما جرَىٰ لأبِي الحسينِ البَبِّي مع الشريفِ محمدِ بنِ عمرَ، فإنَّ ابنَ عمرَ قال للببِّي: أنت واللهِ شمامةٌ ولكنَّها مسمومةٌ، فقال الببِّيُّ علىٰ النَفَسِ: لكنَّك أيُّها الشريفُ شمامةٌ مشمومةٌ، عُطِّرَتْ الأرضُ بها، وسارَت البُرُدُ بذكرِها.

وقال نصرُ بنُ سيَّارٍ بخراسانَ لأعرابيٍّ: هل أتخمتَ قطُّ، قال: أمَّا من طعامِك وطعامِ أبيك فلا. فيقال: إنَّ نصرًا حُمَّ من هذا الجوابِ أيامًا؛ وقال: ليتني خرِستُ ولم أفُهْ بسؤالِ هذا الشيطانِ.

❁ ❁ ❁

وجرَىٰ حديثُ الذكورِ والإناثِ؛ فقال الوزيرُ: قد شرَّف اللهُ الإناثَ بتقديمِ ذِكرِهنَّ في قولِه ﷻ: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾.

فقلتُ: في هذا نظرٌ.

فقال: ما هو؟

قلتُ: قدَّم الإناثَ - كما قلتَ - ولكن نكَّر، وأخَّر الذكورَ ولكن عَرَّف، والتعريفُ بالتأخيرِ أشرفُ من النكرةِ بالتقديمِ.

ثم قال: هذا حسنٌ.

قلتُ: ولم يترُك هذا أيضًا حتىٰ قال: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾ فجمَع الجنسينِ بالتنكيرِ مع تقديمِ الذكرانِ. فقال: هذا مستوفًىٰ.

وقال: ما معنَىٰ: كأسٌ أُنُفٌ؟ فكان من الجوابِ: يقالُ كأسٌ أُنُفٌ، أي يُشْرَبْ منها قبلَ ذلك؛ وكذلك يقالُ: روضةٌ أُنُفٌ، إذا لم يكنْ رعَاها أحد

❁ ❁ ❁

وقال الوزيرُ: هاتِ حديثًا نخرجُ به ممَّا كنَّا فيه.

فقلتُ: سمِع عمرُ منشدًا ينشدُ:

مَا سَاسَنَا مِثْلُكَ يَابْنَ الخَطَّابِ أَبَرَّ بِالأَقْصَىٰ وَبِالأَصْحَابِ
بَعْدَ النَّبِيِّ صَاحِبِ الكِتَابِ

فنخَسه عمرُ وقال: أينَ أبو بكرٍ ويلَك!

قال عمرُ وهو بمكةَ: لقد كنتُ أرعَىٰ إبلَ الخطابِ بهذا الوادِي في مُدَرَّعَةٍ صُوفٍ، وكان فظًّا يتعبُني إذا عملتُ، ويضربُني إذا قصَّرتُ، وقد أمسيتُ ليس بيني وبينَ اللهِ أحدٌ، ثم تمثَّل:

لَا شَيْءَ مِمَّا تَرَىٰ تَبْقَىٰ بَشَاشَتُهُ ... يَبْقَىٰ الإِلَهُ وَيُودِي المَالُ وَالوَلَدُ
لَمْ تُغْنِ عَنْ هُرْمِزٍ يَوْمًا خَزَائِنُهُ ... وَالخُلْدَ قَدْ حَاوَلَتْ عَادٌ فَمَا خَلَدُوا
وَلَا سُلَيْمَانَ إِذْ تَسْرِي الرِّيَاحُ بِهِ ... وَالإِنْسُ وَالجِنُّ فِيمَا كُلِّفُوا عُبُدُ
أَيْنَ المُلُوكُ التِي كَانَتْ نَوَافِلُهَا ... مِنْ كُلِّ أَوْبٍ إِلَيْهَا رَاكِبٌ يَفِدُ
حَوْضٌ هُنَالِكَ مَوْرُودٌ بِلَا كَذِبٍ ... لَابَدَّ مِنْ وِرْدِنَا يَوْمًا كَمَا وَرَدُوا

وقال عمرُ: خيرُ الدوابِّ الحديدُ الفؤادِ، الصحيحُ الأوتادِ.

وقال عمرُ: كانت العربُ أُسْدًا في جزيرتِها يأكلُ بعضُها بعضًا، فلمَّا جمَعهم اللهُ بمحمدٍ لم يقمْ لهم شيءٌ.

وقال المأمونُ: قليلُ السفهِ يمحُو كثيرَ الحلمِ، وأدنَىٰ الانتصارِ يخرجُ من فضلِ الاغتفارِ، وعلىٰ طالبِ المعروفِ المعذرةُ عندَ الامتناعِ، والشكرُ عندَ الاصطناعِ، وعلىٰ المطلوبِ إليه تعجيلُ الموعودِ، والإسعافُ بالموجودِ.

فقال الوزيرُ: مَن أفضلُ هؤلاءِ؟ يعني بني العباسِ، فكان الجوابُ: أنَّ المنصورَ أنقدُهم، والمأمونَ أمجدُهم، والمعتصمَ أنجدُهم، والمعتضدَ أقصدُهم، فقال: كذلك هو. وقال: فالباقونَ؟ قلتُ: ليس فيهم بعدَ هؤلاءِ من يوحَّدُ بالذِّكرِ، لأنَّه في نقصِه وزيادتِه مشاكلٌ لغيرِه. فقال: للهِ درُّكَ.